سِرْداب قارون

رواية

د. أحمد السّعيد مراد

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب:	سِرْداب قارون
التأليف:	د. أحمد السّعيد مراد
موضوع الكتاب:	رواية
عدد الصفحات:	304 صفحات
عدد الملازم:	19 ملزمة
مقاس الكتاب:	14x20
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	2017/26997
الترقيم الدولى:	978-977-278-617-6

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

إهــــداء

إليها.. هي تدري مَن تكون

الفصل الأول

الطريقُ إلى الكنز

- الآن -

وقفَ يلتقط أنفاسَه بصعوبة وهو يشعرُ بها تصنعُ ضجيجًا وصدًى يكادُ أن يصمّ الآذان، شعرَ باحتياجه لخنق أنفاسه، تلكَ التي تسْعى لفضحه واكْتشاف أمره. ملمسُ الأرض الصّلدة التي يقف عليها، والمكوّنة من صخور عتيقة متراصّة بانتظام عجيب، يندهشُ كلّ مَن يراها.. كيف مرّت تلك السّنونَ وما زالت تحتفظُ بهذا الرّونق الخلّاب؟!

استندَ على الحائط المجاوِر، والذي يئنّ مِن القدم، عسى أنْ يشاركه الأنين والشكوى. بدأت أنفاسُه تهدأ قليلًا؛ فأخرجَ جوّاله، وضغط أحدَ أرقام الاتّصال ليضيء شاشتَه فقط بضوْئها الخافت؛ فتظهرُ له بعض التفاصيل دونَ أن يفتضحَ أمرُه، رغم زيارته ورصْده لكلّ ذلك نهارًا أثناء التخطيط لعمليّته السّريّة هذه؛ إلّا أنّه يشعر برهبةٍ وخوف عظيمَيْن لا يدْري مصدرَهما. دقّات قلبه المتسارعةُ، والوجَلُ المحيط به ما جرّبَهما مِن قبْل، تذكّر بأنه وحيدٌ في قصرٍ مهجور منذُ عهد

بعيد، وأنّ كل ما يحيط به مِن أساطيرَ ليس سوى خزعبلاتٍ يتناقلها العامّة، فهل سيصمت القصرُ نهارًا، ثمّ يغتنم ظلامَ الليل ليأتي بألاعيبه السحريّة تلك؟! أمْ يحتاجُ الجن الظلامَ لأجل افتراس ضحاياهم؟!

لا يوجد لخطَتِه تهديدٌ سوى رجال الشرطة القابعين بالخارج، والذين أفلحَ في المرور منهم دون رصدِه بخطّته البارعة التي أعدّها باقتدارٍ كبير مع شريكه الذي ينتظرُه عند نقطة اللّقاء المتّفق عليها؛ لذًا كلّ ما عليه هو اسْتكمال تنفيذِ كلّ الخطوات، وسوف يتحقّق مرادُه الكبير وحلمُه الخيالي.

انتظمت أنفاسُه، وهدأ روعُه، واطمأنّ جنانه، فبدأ يتحرك ببطء وحذرٍ مسترشدًا بضوءِ شاشة جوّاله الشاحب، والذي حتمًا لن يفضَح أمرَه للحرّاس بالخارج. تجاوز كلَّ الغرف التي يراها الزّوار العاديّون، وانطلق إلى عمق القصر، وتحديدًا إلى الغرفة التي تكادُ الصخور أن تغلق بابَها، ويظهر عليها تعمّد تركِها على حالها هكذا لتكون سدًّا وحاجزًا لكلّ مَن تراودُه فكرةُ الدخول إليها. وكما في كلّ القصص والأساطير، لو سكنْتَ قصرًا به آلاف الغرف فيها ما تلذّ الأنفس، وقيلَ لك ارتَعْ كما تشاء ولكنْ لا تقرب هذه الغرفة؛ لنْ تتوق وتحلم إلّا بدخولها فقط!

رصدَ بعينيه الصخورَ التي سيتشبّث بها، ويخطّ بقدميه فوقها.

وضعَ الجوّال بجيب بنطاله، وبدأ يتحسّس تلك الصخورَ مُسترشدًا بذاكرته القريبة وسْط الظلام، صعدَ حتى وصل للقمة، وأخرجَ الجوّال ليرصد طريقَ الهبوط، الصخورُ الحادة والتي يكسوها التّراب كانت بارزةً منَ الأعلى بما يغطّي الصخور السفليّة، حاول التشبّث بيده اليسرى، ومدّ جذعَه للأمام، وكذلك يدَه اليُمنى الممسكة بالجوّال محاولًا اسْتكشافَ أقصى ما يمكنه للهبوط الآمن، وبينما هو يفعلُ؛ إذا به يهتزّ ويكاد أن يسقط، وبآليّة تامّة وردِّ فعلٍ تلقائي حاول أن يستندَ بيده اليمنى على أقرب ما يُمكنه، فإذا بالجوّال يتفلّت منه ويسابقه للهبوط مرتطمًا بالأرض بقوة كأنّما يناطحها، ثمّ انسحبت منه الرّوح وصمت للأبد بلا أي ضوء يمكنُ أن يُنير له السبيل. لم تفلحْ محاولةُ التشبّث به، والتي كانت محدودة الأفق، بعد الصمت التامّ والسكون الكامل لثوانٍ مع إطْراق السّمع بحذر، وبعد الاطمئنان بأنّ انتحار الجوّال لم ينتبه له أحد؛ تنهّد بارتياح مرةً أخرى بعد أنْ زال همُّه الأكبر، وبدأ يكتسي بهمّه الأصغر وهو كيفية اسْتمرار الرّحلة بعد فقْدِه لمُرشدِه الأساسي.

أصبح معتمدًا على عوالق الذّاكرة، فذهب للركن الأيمن وتشبّث بقوةٍ بكلتا يديه، وبدأ ينسحبُ ببقيّة جسده إلى أسفل، وقدماه تتحسّسان الطريق عسى أن تجِدا ملجأً لهما. وقد كان، فعانقتا تلك الصخرة الطيبة، واستمرّت رحلة الهبوط الحذِرة حتى توسّد استقرار الأرض بقدميه، ولم يملَّ التّنهّد الذي رافقه منذ بدايةِ الرحلة بعد النجاح في هذه المرحلة كذلك. أخذ يتحسّس الأرض بحذر حتى وصل إلى جوّاله الصريع، والذي تمزّقت أشلاؤه، كان يراوده الأملُ في أنْ يسارع بإنقاذه عسى أن يردّ له الجميلَ باستكمال إرشاده السبيل إلى مبتغاه، ولكن كان الجوّال ينتقص لأهمّ ما يبثّ فيه الحياة؛ فقدِ انطلقت بطاريتُه مخاصمة إيّاه ومفارقة له إلى حين. ومع خدوش الشاشة كان من الواضح تحطّمها الكبير، ولكن لا يهمّ توقّف ظهور البيانات عليها الآن؛ المهمّ أن تحافظ على بثّ الضوء وكفى، لهذا كانت رحلة التحسّس للأرض المتاخِمة للسّور الذي هبط منه؛ عسى أن يجدَ تلك البطارية التي أدرك أنها أثمنُ ما يملك الآن، مرّ عليه ربع الساعة كأنها هو دهرٌ، وصفعه الفشلُ بقوة ليذيقه ألمَ المذلّة؛ فلم يجِد البطارية، وفقد الأملَ في العثور عليها. الغرفةُ مظلمةٌ تمامًا بجدرانها المصْمَتة وسقفها المحكَم، ماذا يفعل!؟ لا يوجد حلٌّ سوى اللّجوء

للخطّة الاحتياطية، وهي الانتظار حتى الصباح ليسترشدَ بضوء الشمس التي تمتدّ أشعتها بمهَل قُبيل شروقها، عسى أن تنيرَ له الدرب ها هنا، وبعدَ ذلك كما كان مخططًا سيندمجُ مع الجموع الزائرة صباحًا إن لم يجدْ بغيتَه ويخرج معهم، وزميله حتمًا سينصرف بعد مرور الساعتيْن حسبما اتّفقَا عليه.

تجنّب الارتكان إلى الحائط، والذي تسعى الحشراتُ والزواحف للاطمئنان بملامستِه أثناء سعيها الليلي، وسار ببطء نحو منتصف الغرفة ليتمدّد بها حتى بزوغ الفجر، كان يسير الهويْنَا، وقدمُه اليمنى تمتد للأمام تتحسّس له الأرض وتستكشفُ له المسير، وإذا بها تصطدم بشيء ليّن لا يتناسب مع صلابة وصلادَة كلّ مكونات الغرفة.

توقّف بوجَل، ومدّ يده ليتحسّس ما اصطدم به، وقبل أن تصل يداه إليه؛ إذا بقبضةٍ تمسك بمعصمه ليطلق صرختَه المجلجلة، وقلبُه قاب قوسين أو أدنى من التوقّف.

***

- منذُ شهر-

تقلّب «ماجد» في فراشه، وقد انتابته انتباهةٌ تخنقها نَسمات النوم ولذّته. طرق سمعَه همهمةٌ قادمة بجوار الفراش، فأغمض عينيه بسرعة قبلَ أنْ تلتقط زوجتُه «هدير» خبرَ استيقاظه، فتلحُّ عليه- كعادتها- ليقوم مصلّيًا معها حتى أذان الفجر، وينشب الصراع المعتاد طلبًا منه الذهابَ إلى المسجد لصلاة الجماعة. سمع صوتَ تكبيرها فاطمئنّ لتجنّبه ذلك، وارتخى جسدُه مطالبًا إيّاه بسرعة الاندماجَ مع عالم الأحلام، ولكن صدرَ مِن جوّاله تنبيه يوحي بوصول رسالة على حسابه بالفيس بوك. غفل عن كلّ العواقب التي كان يحذرها منذُ قليل، ومدّ يده ملتقطًا الجوّال ليضيء شاشته متلهّفًا لمعرفة فحْوى تلك الرسالة وممّن أتَت، وإذْ به ينتفض جالسًا، وهو يهتف:

- أتمزح معي؟

كانت «هدير» قد أنْهت صلاتها، فقالت له متسائلة:

- ماذا هناك؟

همّ أن يخبرها، ولكنْ تذكّر عدم اهتمامها بما يعتزم مشاركتها فيه، ولتجنّب الجدال الذي ينتهي بتسفيهه، أطفأ شاشة جوّاله وهو يضعه جانبًا، وقال لها:

- لا شيء

بمنتهى البساطة قالت له:

- حسنًا. أنتظر أن تؤمّني؛ لأستمتع بصوتك النّديّ في ركعتين فقط.

شعر بالضجر، وهمّ أن ينام، ولكن كانت التواشيحُ المنبعثة من مكبّر الصوت الخاصّ بالمسجد القريب توحي باقتراب الأذان، ولعلمه بأنها لن تتركَه يفوّت الصلاة عقب ذلك الأذان؛ فضّل القيام الآن بدلًا من أن يرتخي جسدُه بخدر النوم الجميل، وتنشب المعارك بينهما بسببه، فقال لها:

- حسنًا، ثانية واحدة فقط أردّ فيها على هذه الرسالة.

وأمسك بجوّاله ثانية؛ ليكتب ردًّا على الرسالة قائلًا: لمرسلها:

- أنتظرك غدًا في مقهى الميدان بتمام العاشرة.

قام وهو يترقّب ذلك الموعد بمنتهى اللّهفة.

***

ما زال ذلك الميدانُ الشهير بمدينة الفيوم يضجّ بحركة السائرين فيه، كلٌّ لوِجْهته، يحملون بين جنبيهم صراعاتٍ وأفكارًا تتنازع داخلَ رأسهم، لا يبدو على وجوههم أثرها، وإن كانت السّمة المشتركة هي الوجوم والشّرود!

اعتادت الآذان على الأصوات التي تصنع السيمفونية الخاصّة بهذا المكان؛ فلمْ تعُدْ تلتفت لتلك الدّقات المعدنية التي تصنع ضجيجًا صار بالنسبة لهم كدقّات الساعة، ولا لوشوشة الموقد الكبير الذي يتصدّر مطعمَ الفول والطعمية، ولا للصياح الهادر عند المتجر المخصّص لصرف الموادّ التموينيّة المدعّمة وقد بدأ التزاحمُ أمامه منذ الصباح الباكر، حتى أبواق السيارات المارقة اعتادتْه الأذن، ولم يعدْ يثير الانتباه إلّا لو حدث ذلك الصوتُ العملاق من بوق إحدى سيارات النقل الثقيل، والتي يحلو لها استخدام هذا الصوت العنيف وكأنّ أصحابها يروْن أنه يتناسب مع حجمها وقدراتها!

أو مع أزيز احْتكاك إطار إحدى السيّارات بالأسفلت إذا سعت للتوقّف المفاجئ، والذي غالبًا يصاحبه تصادمٌ لا يخلو من إصابات أو أضرار.

جلس «ماجدُ» على المقعد الخارجي لمقهى الميدان، والذي يحتلّ إحدى الواجهات الرئيسية، ما زال لا يطيق رائحةَ الدخان بالداخل، جاءه «سمير» بكوب الشاي ووضعه أمامه بجوار زجاجة مياه معدنية صغيرة، وسأله إن كان يريد شيئًا آخر، فشكره بإيماءةٍ من رأسه وابتسامة شاحبة. نظر في ساعة جوّاله ليجدها العاشرة وخمس دقائق، سيضطر لانتظار صديقه «معتز» لأمدٍ قدْ يكون طويلًا. لكَمْ تأخّر عنه «معتز» سابقًا ولم يعتبر، وما زال محافظًا على دقّة مواعيده، ربما كانت هذه إحدى صفاته التي لم ينلْها التغيير الكبير الذي طرأ عليه منذ عامين، مدّ يده ليتناول رشفةً من كوب الشاي، توقّف يحاول إقناعَ نفسه بمذاقه الجيد، والذي لم يستسِغْه بعد، ابتسم متهكّمًا كيف كان يمقتُه فيما سبق، وينظر شذرًا لمحبّيه، ها هو يعود إليه راجيًا إيّاه أن يقبله في نادي هؤلاء المحبّين، قبل أن يسبح تفكيرُه لذكرياته التي يحاول وأدها، جلس بجواره «عرفة» كبير مخبري المنطقة السريّين، ونادى على «سمير» ليجلبَ له شيشته، نظر له «ماجد» بعمق وقال:

- لقد هربت من الدّاخل متحمّلًا الشمس هنا بسبب دخّان الشيشة.

بابتسامة لزِجَة، وبلا عناية، قال له:

– صدّقني لو جرّبتها ستندم على عمرٍ مِن السلطنة ضاع منك.

وأشار نحو كوب الشاي مُستطردًا:

– مثلها مثل الشاي الذي عدت له، أكْمَلك الله بعقلك.

تنهّد «ماجد» بنفاذ صبرٍ وقال له:

– ماذا تريد منّي يا عرفة؟!

تناول «عرفة» شيشته التي جلبها «سمير»، وعدلها، وبدأ في سحب أنفاسه العميقة، وبعد سحابته الأولى والتي تعمّد نفثها في اتّجاه «ماجد»، قال:

– أنت أكثر مَن يعجبني من شباب المنطقة بعودتك لعقلك وابتعادك عن صحبة الإرهابيّين، لماذا تصرّ على رفض مصاحبتي للأمن الوطني لتدلي بكلّ ما تعرفه عنهم!؟

قام «ماجد» واقفًا وهو يقول:

– قلتُ لك مائة مرة لا أعرف عنهم شيئًا، لقد كانت صحبة مسجد سطحيّة رغبة في التديّن، وانتهى الأمر بموتهم أو سجنهم.

مدّ «عرفة» يده ممسكًا بساعد «ماجد» جاذبًا إيّاه وقائلًا:

– لماذا غضبت؟ اجلس يا أستاذ ماجد، نحن نتحدّث فقط.

نظر «ماجد» لساعته مجددًا، وهو يلعنُ «معتز» في سرّه لتأخّره الذي يجبره على هذه الجلسة المُشينة، فجلس وتنهّد مجددًا وقائلًا:

– نعم يا «عرفة»، ماذا تريد غير ذلك؟

نفثَ «عرفة» دخانَه مجددًا مصحوبًا بقرقرة الشيشة المميزة، وقال:

– لا تؤاخذني يا أستاذ «ماجد»، أنا فقط أحبّ الحديث معك، فأنت رجلٌ محترم.

رسم «ماجد» ابتسامة مصطَنَعة، وقال:

– شكرًا يا عرفة.

ولمح «معتز» قادمًا برفقة خطيبته «سارة» المتألقة في ثيابها الأنيقة والمكونة من بنطال جينز أزرق زاهٍ، وقميص زهريّ متوّج ببعض القصاصات اللامعة، وشعرها الناعم اللامع والمتطاير مع نَسمات الهواء حول وجهها الجميل الأخّاذ.

فاستطرد قائلًا: لعرفة:

- لقد وصل صديقي «معتز» برفقة خطيبتِه، هل من الممكن أن تفسحَ لنا مجالَ الجلوس؟

نظر عرفة تجاه «معتز» وخطيبته، وأطلق صفيرًا قصيرًا قائلًا:

- مِن أين أتى صديقُك بهذا الصاروخ!؟

نظر «ماجد» نحوه نظرةً تحمل كلّ اللّوم، وهمّ أن يقرعه بكلماته، ولكن أشار «عرفة» نحوه بكفّه أنْ كفى، وجرّ شيشته إلى أقرب الموائد جالسًا إليها، وعينُه لا تفارق «سارة» فاحصًا كلّ تفصيلة صغيرة بها.

قام «ماجد» مستقبلًا ومرحّبًا بصديقه وخطيبته التي مدّت كفّها مسلّمة عليه وهي تبتسمُ له ابتسامة ساحرة أكلت قلبَه من الحسد، متسائلًا: كيف يستأثر «معتز» بكلّ هذا السّحر وحده!؟ ونسي كلّ عبارات اللّوم والتقريع التي أعدّها له بسبب تأخّره؛ فقد كانت منحته السخيّة بمجيء هذه الكتلة من الجَمال الباهر معه في مفاجأة لم يعدّ لها حسابًا.. انتبه على يد «معتز» التي تمسك بيده طلبًا للمصافحة وقدْ غفلَ عنها وعنْ صاحبها تمامًا أمام الأنوار التي غشيت بصرَه من الشمس

المشرقة التي سمّيت خطأً باسْم «سارة». تنحنح وصافحَه في حرجٍ ظاهر، وأشار إليهما ليجلسا، وجذب كرسيًّا إضافيًّا من المائدة التي يجلس إليها «عرفة»، والذي همس له قائلًا:

– يا أبناء المحظوظة!

لم يُعرْ «ماجد» عبارتَه اهتمامًا، وتجاهل الردّ عليها. كان «معتز» على يسار المائدة و«سارة» على يمينها، فوضع كرسيّه بالمنتصف وأصبح ظهرُه للشارع، ونادى على «سمير» الذي أسرع بالمجيء فأشار نحو رفقتِه وطالبَه بإحضار ما يُريدون. هزّ رأسَه في دهشه عندما طلبت «سارة» شيشة بمواصفات لا يعلمها، لم يستطع النطقَ ودار بمخيّلته سؤال ساخر: إنْ كان هذا مطلب «سارة»، فحتمًا مطلب «معتز» سيكون سيجارًا محشوًّا بالبانجو وعدة ممنوعات أخرى لا يعرف عنها شيئًا! ولكن تصاعدت دهشته عندما كان الطلبُ مجردَ كوبٍ من الشاي وفقط. حضرت الشيشة، ووضعها «سمير» أمامها، وعيناه تقتنص من صاحبتها الكثيرَ وتبحثُ عن المزيد، وعند أول نفثة دخانٍ لم يتمالك «عرفة» نفسه، وأطلق السراحَ لقهقهتِه العالية، ربما أصبح تدخينُ الفتيات أمرًا عاديًّا في بعض المجمعات التجارية بالقاهرة أو بالمقاهي الشهيرة فيها، ولكن في الفيوم لا يمكن وصفُه بالعاديِّ أبدًا، مشهدُ

الفتاة المدخّنة هنا يصمُها بالانحلال والاسترجال المنافي لكلّ علامات الأنوثة التي تتفجّر منها، وما زادَ الطين بلّة أنها تجلس أمام واجهة المقهى ليراها العابرون بأحدِ أكبر ميادين المدينة! حمدَ الله أنّ ظهره نحو الشارع، وبالتالي لن تطولَه نظرات الاستهجان التي ستنهمرُ على هذا المشهد غيرِ الاعتيادي.

حاول «ماجد» الخروجَ من هيمنة هذا الأمر عليه؛ فسأل «معتز» قائلًا:

- لمَ أصررت على المجيء من القاهرة بالقطار وليس بسيارتك؟!

همّ «معتز» أن يجيبه، ولكنْ سبقته «سارة» مبتسمةً وقائلة:

- نريد أن تكون رحلتنا أفضلَ بالحديث والتفاعل الأكبر، بعيدًا عن شغله بالقيادة.

نظر «ماجد» نحوها، وانكسرت عيناه بسرعة أمام قوة عينيها العميقتين واللّتين لا يدري كيف تتصارع داخلهما كلّ هذه الطاقة السحريّة من الجاذبية والجَمال!، وقال لها:

- ولكن، حسبما أدري، رحلتنا ستكون شاقّة عليك، فليس الأمر مجردَ الوصول إلى مدينة الفيوم وفقط.

بمنتهى البساطة قالت:

- أنا لها.

توجّه بحديثه مجددًا نحو «معتز» سائلًا:

- وهل وافق خالك على كلّ هذه الصحبة؟

همّ «معتز» أن ينطق، ولكنّها سبقته بنفس البسمة التي تنالُ من «ماجد» كلَّ مرة بشكل نافذٍ عن سابقتها، وقالت:

- أنا أقنعتُه.

كانت إجابتها وافية جدًّا، فمَن هذا الذي يجرؤ على رفض مطلب لها!!

همّ «ماجد» أن ينطق بتساؤلٍ آخر، ولكنْ قاطعه رنينُ جوّاله، وإذا بها «هدير» زوجتُه، وبمنتهى الضيق ردّ عليها متسائلًا عن سبب الاتّصال، فإذا بها تقول له:

- ماجد، أحاول فتحَ بريدي.. ورغم تأكدي من كلمة السرّ يخبرني أنها خاطئة، هل تعرّض للسرقة هكذا؟!

تنهّد «ماجد» بفراغ صبرٍ، وقال لها:

- قومي بتحويل لغة الكتابة من العربية إلى الإنجليزية، وتأكّدي من أن زرَّ الحروف الكبيرة مغلَق.

صمتت حينًا، وقالت:

- لقد فتح، شكرًا يا حبيبي، لا حرمني الله منك.

قال لها بغيظ:

- هذه هي المرةُ الألف، أرجو ألّا تشغليني بها فيما بعد.

وأغلق الاتصال قبل أن تطالبه بما يغيظه أكثر. نظر نحو «معتز» فوجدَه قد فرغَ من كوبه، و»سارة» تنفثُ الدّخان باستمتاع يتعجّب له، فقال لمعتز:

- هيّا فلننطلق الآن حتى لا نتأخّر عن خالك.

توقّفت «سارة» عن معانقة شيشتها، وقامت واقفة، وقالت:

- هيّا بنا؛ فكلِّي شغفٌ لذلك.

توجّه «ماجد» إلى الداخل لدفع الحساب، وخرج ليستوقف إحدى سيارات الأجرة، همّ بأن يركب بجوار السائق تاركًا مساحةً لمعتز بجوار خطيبته بالخلف، ولمْ يستطعْ هذه المرّة أن يقاوم اتساعَ عينيه عندما وجد «سارة» قد سبقتْه لتجلس هي بالمقدمة قائلة:

- أريد أكبر مساحة من الرؤية حتى أستمتعَ بكلّ تفصيلة في رحلتنا.

وانطلقت سيارة الأجرة، وعرفة واقفٌ بموضعه يهمّ بأن يجري خلفها!

***

- ربّ هبْ لي من لدُنك ذريةً طيبةً إنّك سميع الدعاء.

طرق الدعاءُ أذنَ «ماجد»، فكان سوطًا يلهب عقله وقلبه، ما زالت «هدير» تلازم تضرّعها هذا في كلّ تهجّد، لقد مرّ على زواجهما أكثرُ من ثلاثة أعوام ولمْ يرزقْهما الله تلك الذرية التي يعدّها الغالبيةُ الدليلَ الوحيد على نجاح الزواج!

قال- سبحانه- بأنّها زينة الحياة الدنيا، ولكنْ أليست الزينةُ هي الإضافات التي تزيدُ من رونق الشيء وتظهر قيمتَه؟

هل ينعدمُ هذا الشيء إذا فقد زينتَه!؟

كان الشقّ الثاني لهذه الزينة هو المال، والبشر في التعاطي مع هذا الأمر يختلفون، هناك مَن يمثّل له المال جُلّ الزينة، وآخرون عندهم الذّرية هي السندُ والحياة التي تفوق كلّ كنوز الدنيا، وفي قصة الخضر موعظةٌ لم يلتفت إليها أحد،

ولكن كما تمرّ الكلمات العابرات على أذن السامعين ولا تنفذ إلّا لَمن يهمّه الأمر؛ فقد طرقتْ هذه الموعظة قلبَه واستقرّت به، أيّهما أفضل: ولدٌ عاقّ يجعل الحياة عسيرة شاقة، أم العيشُ بدونه؟ لقد جعل- سبحانه- مكافأة الصالحين هي التَخلص من عقوق ولدِهم المستقبليّ في قصة الخضر عليه السلام، ولهذا ربّما كان عدم إنجابه مكافأةً له من الله بمنع العقوق المُستقبلي.

استقرتْ هذه القناعةُ في وجدانه ورضيَ بها، وعلى نقيض المتوقّع كان يرفض تمامًا الذهابَ للكشف عن سبب تأخّر هذا الإنجاب، كيف ستستمرّ الحياة لو ظهر أنّ أحدهما عاقرٌ لا ينجب!؟ سيظلّ كسيرًا منهزمًا أسيرًا لأوهام وأفكارٍ تغتاله تدور حول ترقّب الطعنة من الطرف الآخر!

أنْ يستمرّ الأمر حاملًا لاحتمال وشكّ في أيّ منّا هو السبب؛ أفضلُ آلاف المرّات من سطوة طرفٍ يرى نفسَه الأعزّ الأكرم لو استمرت الحياة بنفس وتيرتها والتي حتمًا لن تفعل، والله أعلم إلى أيّ مدى سيتحمّل هذا الطرف فيضانَ الكرم المُنساب منه وصبره على الطرف الآخر!

طرقه العزمُ ذاتَ مرة على الذّهاب وحده لهذا الكشف، وبذلك تنعدم الخسائر، ولكن.. هل حقًّا علمُه بحقيقة الأمر،

سواء كان هو المَعيب أو «هدير» هي المصابَة؛ ستجعل حياته مستقرّة كما هي الآن؟!

وهلْ يضمن ألّا تفعل «هدير» المِثل؟

لديه قناعةٌ دينيّة بالقَصاص العادل في كلّ شيء، وربّما كان هذا السببَ الأكبر في تجنّبه لكثير من الانحرافات الخلقيّة؛ لعلمه بأنّ ذلك حتماً سينال من بيته إنْ فعل، ولهذا وفاؤه لـ «هدير» جعل ضميرَه مطمئنًّا لها في كلّ شيء.

كفّت «هدير» عن مطالبته بالسعي للفحص الطبي في هذا الشأن، ولكنْ يرى في عينيها الصراخَ بهذا الطلب دائماً.

أغمض عينيه، ووضع وسادته الصغيره فوق رأسه وهو يتقلّب للناحية الأخرى حتى لا يطرق سمعَه هذا الدعاءُ مرة أخرى.

***

سار «ماجد» عبر الطرقات الجانبيّة متجنّبًا العبور من خلال الميدان؛ حتى لا يلتقطه «عرفة» مقتحماً سمعه بعباراته اللّزجة التي لم يعدْ يمقت أكثرَ منها، وإذا بها أمامه بثوبها الأسود وملامحها الكسيرة ومِشْيتها البطيئة وأنفاسِها المتسارعة والثقيلة، رأته قبل أن يراها فانشرحتْ أساريرها

ولمعت عيناها، وتجعّدت جبهتها على إثر اتّساع عينيها بفرحة لرؤياه، ونادته باسمه فانْتبه لها، وعلى نقيض مشاعرها فقدِ انتابتْه غصّة بحلقه، وشعر بسكينٍ حادّ يمزق أحشاءه، وألمٍ يعتصر قلبه وكلَّ مشاعره، تسارعتْ خطواتها البطيئة لتصلً إليه وتحتضنه وتنساب دموعها على كتفه، وهي تقول له:

- أين اخْتفيت يا حبيبي، بالله عليك لا تغبْ عنّي هكذا مرّةً أخرى.

رغم حضنها الدافئ ومشاعرها الفيّاضة التي غمرته، والتي يعلمُ مدى صدقها، حاول «ماجد» التملّص منها برفق وهو يقول بتردّد وانكسار:

- معذرةً يا أمي، فأنت تعلمين مصاعبَ العمل الآن، وكيف أنه يلتهم كلّ وقتي.

أمسكت بكفّه، وهمّت أن تقتاده عائدةً إلى بيتها قائلة:

- لا حرمني الله منك، يكفيني تذكّرك لي والمجيء لزيارتي الآن، تعالَ سنفطر سويًّا، أخيرًا سأستشعر طعمَ الأكْل في فمي.

همّ «ماجد» أن يصرخَ فيها بأنّه لم يمرّ مِن هنا لهذا الغرض، ولكنّ لهفتها وأماراتِ الحياة التي دبّت في كل أطرافها، حتى أنّ أنفاسها أصبحت منتظمة طبيعية، واعتدلت قامتها وأضيء

وجهُها وقد غادرته الكآبة، كل ذلك قتله واغتالَ فيه كلَّ عزمٍ بداخله على التخلّص منها.

اقتادته إلى منزلها القريب، وهو يتلفت حوله، والخشية- كلّ الخشية- أن يظهر له «عرفة» كعفريتٍ مُلتقطًا لهذا المشهد الذي تجنّبه منذ عامين.

صعد خلفها درجاتِ السلم، وكلّما لامست قدمه إحداها أضيئت ذاكرتُه بحدث وقعَ فوقها، وعندما فتحت باب الشقة بأزيزه المميّز، والذي استثارَ بداخله كلّ الذكريات تثاقلت عيناه بدموع نجحَ في كبْحها، وعندما نادته للدخول ارتجَّ وجدانُه، همَّ أن يصرخ بها أن تدعَه وشأنه لينطلق عائدًا، ولكن لم يستطع، خطا بقدمه إلى الداخل وهو يقاوم قوّةً خفيّة هائلة تمنعه من الدخول، وما إنْ فعل حتى حدَثَ الانهيار؛ فقد كانت الصورةُ الكبيرة تتوسّط الصالة وتحتلّ غالبَ الحائط المواجِه للباب، الصورة تحمل نفسَ البسمة الهادئة والعينيْن العميقتين المسالمتَيْن واللّتيْن تحْملان حزنًا دفينًا كأنّما كان يعلم صاحبها مصيرَه ومصير البلد من بعده. تعلّق بصرُه بالصورة وبالعينيْن اللّتين شعر بهما كأنّما قد دبّت فيهما الحياة لتخاطباه لومًا وعتابًا، سالت دموعُه بصمت وقد فشل في مقاومتها هذه المرّة.

وطرق سمعَه نشيجُها، وقالت مِن بين دموعها:

- البيت أصبح خَربًا مِن بعده، عليه رحمة الله.

لم يستطعْ إبعادَ عينيه وقد وقع أسيرًا لتلك الصورة التي انتزعتْه ليسبح معها في ذكرياتٍ شتى كانت هي كلّ حياته، فقالت له:

- بالله عليك، أنتَ الوحيد الذي يذكّرني بمصطفى، عليه رحمة الله، لا تغبْ عنّي هكذا مرّة أخرى.

كان «ماجد» يشعر بها، ويعلم جيدًا مدى مصابها كأمٍّ مكلومةٍ بفقْد وحيدها وهو في ريعانِ شبابه، ولكنها لا تعلم بأنّ هذا المنزل إنّما هو ماض يحاول أن يتخلّص منه تمامًا؛ ليتمكّن من استكمال حياته بشكلٍ طبيعي. لقد فعل الكثيرَ حتى يستشعر قدرتَه على التخلّص من كلّ ما يربطه بهذا الماضي، ولكن ها هي نظرة صامتة تحيي بداخله كلَّ ما ظنَّ مَواتَه عنده، أقسم مكنونُه ألّا يخطو بأيّ شارع يقترب من منزلها مستقبلًا، وقال لها:

- حاضر يا أمي، أنت تعرفين أنّ «مصطفى» لم يكن صديقًا وفقط، لقد كان أخي التوأمَ الملاصق لي في كلّ شيء.

غمرته بكثيفِ دعائها وانصرفت لتعدّ له إفطارًا يليق بجلال اللّحظة، بينما جلس هو على كرسي مطرقًا رأسَه للأرض، ومتجنّبًا أن يصلَ لعينيه أيُّ تفصيل يُعيد إليه ذكرى يهربُ منها، ولكن كانت روحُ المكان هي المسيطرةَ وصاحبةَ اليد العليا، رغمًا عنه اخترقت أذنه قهقهاتُ «مصطفى» الشجيّة، يليها ترنّمُه الملائكي بآياتِ القرآن الكريم، وأخيرًا صوته الهادئ وهو يقول له:

– قيمة المرء في هذه الحياة ترتبط بمدى الهمّ الذي يحمله، والمسئولية المَنوطة به.

لم يتحمّل «ماجد» كلّ ذلك فهَمَّ بأن يفرّ مُسرعًا، ولكنْ هاجمتْه هذه المرّة ذكرى حسيّة مختلفة، إنها رائحةُ الطعام التي تمتاز به أمُّ مصطفى، وقد خرجت إليه لتضع أمامَه نفسَ الصّنوف التي كان يتلذّذ بها ببهجة في صحبة مصطفى.

أشفق عليها من أنْ تغتالَ فرحتها برؤياه التي تذكّرها بفلذة كبدها المغدور منذ عامين، فمدّ يدَه ليتناول الطعام مصطنعًا الفرحةَ به، وهو يشعر بطعمه لا يشابه أبدًا ما اعْتاد عليه سابقًا!

كانت تتحرّك كفراشة بُثّت فيها الحياةُ بعد طول رقود، وبمنتهى الرشاقة اخْتفت خلف الباب الذي لم يطرقْه «ماجد» ببصره أبدًا، ونجح في تجنّبه تمامًا منذ دخل، وخرجت بعد حين ومعها حقيبةٌ مُنْبعجة بما فيها، وقالت له:

– بالله عليك يا «ماجد»، لا تردّ يدي؛ هذه ملابس «مصطفى» الأنيقة، وأنت تعلمُ غلاءَ ثمنها، أرجو أنْ تقبلها؛ فارتداؤك لها إحياءٌ لذكرى صاحبها أفضلَ مِن ركودها في خزائنها.

كان هذا فوق احْتماله بالفعل هذه المرّة، فقام واقفًا وقال لها بصوتٍ مُتهدّج:

– هل تعلمين لماذا غبتُ عنك لعامين كاملين؟ لقد كان ذلك لضعف قدرتي على تحمّل ذكراه هنا، أرجوك لا تُثقليني بذلك؛ فلنْ أستطيع.

وانْهمرت دموعُه مرة ثانية ليعزفا سويًّا لحنًا مأساويًّا على إثر كلماته.

***

طرق بابُ المنزل الريفي العتيق ليأتيَه صوتٌ جَهْوري متسائلًا: مَن الطارق؟ فردّ عليه قائلا:

– أنا.

ورغم كآبته وحزنِه المثقَل به عقب ما عاني منذ قليل، إلّا أنّ «ماجد» تبسّم حين أتاه الردّ بالانتظار ثوانٍ، وسوف يفتح له، هل كانت كلمة «أنا» هذه فيها الردّ الشافي المطمئن لمن بالداخل؟! صوته ليس مميزًا لهم، ولم يعرفوه سوى بالأمس، فلماذا كانت الأنا هذه كافيةً لهم؟! لم تستطلْ تساؤلاته فقد فُتح له الباب، وبرز مِن خلفه وجهٌ ريفيّ غليظ تمعّن فيه لثوان، ثمّ تراجع بتفهّم وهو يقول:

– أهلًا يا أستاذ، أنت صديق «معتز»؟

أومأ «ماجد» مؤكّدًا على ذلك، فاصطحبه الرجلُ مرحّبًا به إلى الداخل ليجد الجمع جالسًا حول تلك المائدة الريفية القصيرة، وأمامهم ما لذّ وطاب من طعام، بسبب شبعه على إثر تناوله لإفطاره مرّتين: إحداهما ببيته، والأخرى معبّقة بمشاعر أفسدت شهيّته لعامين قادمين عند أمّ مصطفى؛ لم تثِرْ شهيتَه تلك الصنوفُ التي لو رآها سابقًا لسقط أسيرها، ولكنِ انطلقت شهيّة أخرى مِن عِقالها بتلك المساحة البصريّة التي احتلتها «سارة» مرتديةً ثوبًا ريفيًّا رجاليًّا مخطّطًا طوليًّا، لو كانت عارية ما ظهرت فتنتُها بمثل ما هي الآن! كانت تجلس وسطَ الرجال بمنتهى البساطة، وتمدّ يدَها لتقتطع ما تريدُ منَ الفطير اللامع بمكوّناته الطبيعية، تقضم قضمةً وتلقي

تعليقًا على مدى انْبهارها بذلك، وتعلو ضحكاتها بين الفَيْنة والأخرى، وبجوارها «معتز» ينتابه حياءٌ شديد، ولا يدري كيف يدافعُ عن نفسه وعنها أمامَ خاله وذويه الذين كانت تتأرجح مشاعرهم ما بين الإعجاب بتلقائيّتها والدهشة من جرأتها غير المسبوقة.

بعد الكثير من الهَرج التالي للإفطار وشرب الشاي، أخيرًا استقرّ المقام بـ«معتز» وخاله و«سارة» و«ماجد»، تنحْنحَ خالُ «معتز» قائلًا:

- سنبدأ في الكلام الحقّ الآن يا معتز، أنتَ ابن أختي، ولكنْ عند الجدّ ستكون القيامة التي يفرّ فيها المرء مِن أمه وأبيه.

قال «ماجد» بتلعثم:

- لا تقلق يا خالي، سنلتزم بكلّ ما تريد.

نظر الرجل بعمقٍ نحو «ماجد»، وقال:

- وأنت يا أستاذ، لو طالتْ تصاويرك وجهَ أحدهم لن يكون التالي خيرًا أبدًا، فلتكن مُتيقظًا لذلك، فقد أقنعتهم بصعوبة حتى وافقوا على السّماح لك بالتصوير، ولو تسربتْ هذه الصور لِمَن يفهمها ويستدلّ بها علينا؛ قلْ على نفسِك يا رحمن يا رحيم.

قال «ماجد» بجديّة:

- اطمئن يا خال، لن تكون الصور سوى للجدران فقط، ولن تخرج لمخلوق أبدًا، ولن أستعين بها سوى في بحثي، والخيرُ سيعمّ علينا بها إن شاء الله.

نظر الرجل له شذَرًا، وقال:

- الساحرُ وصل، وكلهم عند المقبرة الآن، فما تأخّر علينا إلّا لانشغاله بمقبرة أخرى أمس، تلتزم بالموضع الذي آمركَ بالوقوف فيه، ولا تتقدّم ولا تُخرِج الكاميرا إلّا بعد إشارتي لك.

هزّ «ماجد» رأسَه موافقًا، في حين فركَتْ «سارة» يديها بحماس، وقالت:

- هيّا يا خالي، لقد تشوّقت للغاية بهذا الحدث.

تنحنَحَ الرجل، وقال ببطء:

- أنت مِن العائلة يا بنيّتي، نرحبُ بك، ولن نتدخّل في شأنك عندما تكونين بيننا، ولكن الآن ستكونين واجهةً لنا أمام رجال غرباء، سيكون مِن المُشين ظهورُك أو تصرّفك الذي اعتدت عليه أمامنا.

بمنتهى البساطة والتفهّم ردّت «سارة» قائلة:

– ماذا تريد، وسوف أمتثل له؟

بترقّب وحذر شديد، قال لها:

– سترتدين عباءةً سوداء ونقابًا، ولن تتفوّهي بكلمة واحدة أمامهم.

بنفس البساطة ردّت قائلة:

– لك ما أردتَ يا خالي.

***

بتكتيكٍ فطْري غير مدروس تمّ تهيئة الأمر، أول الطريق وعلى قمة أعلى منزلٍ به يجلس مراقبٌ يمدّ بصره لأبعد نقطة مُمكنة راصدًا تحرّك أيٍ قوة أمنيّة أو رقابية قد تأتي، وتكرّر الأمر عند كلّ المداخل المُمكنة التي تؤدي لذلك المنزل الريفي البسيط، والذي يظهر عليه أنّه حديثُ البناء حتى أنّ موادّ البناء به لم تجفّ ببعض المواضع، المنزل مساحتُه متوسطة، والسقف أغلبُه من مادة بلاستيكية سميكة، ممّا يظهر بأنّ البناء إنما تمّ على عجل وبأقلّ تكلفة لغرض محدّد، وفي الداخل ترتكنُ سيارتان ذواتا دفْعٍ رُباعي، على أُهْبة الاستعداد للانطلاق

السريع، وعلى باب المنزل جلست سيدتان تلاعبان طفلَيْن صغيرين؛ ممّا صنع تمويهًا كافيًا لنقض جميع الشكوك لِمَا سيدور بالداخل.

وقفت «سارة» برفقة «ماجد»، و«معتز» في ركن قصيٍّ؛ أمرهم خالُ الأخير بالمُكث فيه، فما يعنيهم إلّا أنه سيكشف لهم الأحداث التالية، لم يخلُ الأمرُ في بدايته من استنكار أحد الرجال ذوي الشوارب الكثيفة وجودَ متفرّجين أو شهودٍ على حسب كلامه، ولكن يبدو أنّ سطوة خال «معتز» كانت طاغية فقد امتثل الجميع له، وإن كان أحدُهم ظلّ يرمقهم بين الحين والآخر بمنتهى الشكّ.

قال أحدهم:

- أين الساحر؟ هل سيتغيّب عنّا اليوم كذلك!؟

ردّ عليه خال «معتز»:

- أخبرني أنه في الطريق إلينا الآن، وسببُ تأخره محاولةُ الإفلات من أي متابعة له.

لم تمضِ دقائق حتى ارتفع رنينُ جوّاله، فنظر لهم مبتسمًا قائلًا:

- لقد جاء.

ذهب أحدُ الرجال إلى الباب الكبير ليفتحه على إثر البوق المتقطّع الذي صدر لإحدى السيارات بالخارج.

وقفت «سارة» مشدوهةً تترقّب رؤية هذا الساحر، والذي حتمًا سيأتي مستقلًّا مقشّتَه التي تُطلق هذا البوق، وكانت دهشتها التي اغْتالتها هي ورفقتها عندما دخلت سيارةُ جيب سوداء من أحدث طراز، وهبط منها شابٌّ أنيق ببدلته السوداء القاتمة ورابطة عنقه اللامعة وحذائه الذي تكاد الوجوهُ أن تنعكس عليه أفضلَ مِن أحدثِ مرآة.

منعت «سارة» قهقهتَها بصعوبة، وقالت بهمس:

- حتمًا تمزحون، لقد كنت أنتظرُ أشعثَ أغبرَ يرتدي ملابسَ مهلهلةً متعددةَ الألوان، ولحيته البيضاء يكاد أن يتعثّر فيها.

قال لها «ماجد» مازحًا:

- خرّبَ الله بيتَ السينما التي أفسدت عقولَكم وشوّهت كلّ شيء.

لم تستطعْ هذه المرّة أن تمنع ضحكتها الرفيعة القصيرة التي طربَ لها قلبُه، وجذبت إليها كلَّ الأنظار باستنكار شديد، كان أشدّها مِن خال «معتز» الذي نظر لها نظرةً خاصة،

فهمتْ منها الرسالةَ المبطّنة التي تعني كيف يتأتّى لها أنْ تخالف التعليمات، فأشارت إليه بيدِها ما يعني أسَفَها. استمرّ الرجال فيما هُم منهمكون به، أخذ الساحر يحدّثهم ويطلب منهم أشياءَ جاءوا بها إليه، نزع سترةَ بدلته ووضعها بعناية فوقَ غطاءِ سيارته، وخفّف رابطة العنق قليلًا، وطوى كُمّيه إلى أعلى الساعد، ووضع ما جاءوا به بمنتصف إناءٍ سميك وعميقٍ أسودِ اللون يمتلئ ثلثُه بالرّمال، طلب منهم الابتعاد، ورفع يديه عاليًا، وأخذ يتمتِمُ بعبارات غامضة، كانت براعتُه في كيفية حفظه لها بلهجتِها ولغتِها غير المعلومة، نثرَ شذراتٍ من مادة فوق المكونات التي وضعها سابقًا بالإناء؛ فاشتعلت النيرانُ بها، وامتدّ لسانها لأعلى مدى حتى كادت أن تصل إلى السقف البلاستيكي وتذيبَه، شهق الجمع وهُم يتراجعون للخلف، واتّسعت أعينُ «سارة» ورفاقها، وصدرت منها كلمة «واااو» بصوتٍ خافت، في حين ارتمى الساحر العجيبُ على الأرض بوضع السجودِ مادًّا يديه للأمام، وكفّاه مَفْرودتا الأصابع، وتصافحان الأرض، صارخًا بكلماته الغامضة، فعاد لسانُ اللّهب إلى الوضع الطبيعي الذي يتناسب مع النيران البسيطة في الإناء، ظلّ الساحر على وضعه وهو يهمس بكلماتٍ ويصمت قليلًا ثمّ يعاود الهمس. وأخيرًا بعد تكرار

الأمر خمسَ مرّات قام منتصبًا، والعرقُ يتصبّب مِن جبينه وقد غمر قميصَه الأنيق بموضع الصدر وأسفل إبطيْه، ونظر نحو خالِ «معتز» وقال له:

– البوابة طوعُ أمرك الآن، لقد كانت حراستُها قاسية.

ابتسم الخالُ، وعلا وجهَه البِشْر، ومدّ يدَه بجيْب جلبابه العميق، وأخرج منه كتلةً من الأموال الخضراء تحوي ما يُقارب الخمس رزمٍ مرتبطة ببعضها البعض، ومنحَها إيّاه قائلًا:

– تستحقّ كلّ مِلّيم فيها.

أخذها الساحر بمنتهى اللّهفة، وهو يضحك قائلًا:

– تقصد كلَّ سِنْت فيها.

ونظر نحو «سارة» قائلًا:

– أنت وجْه الخير يا حفيدة نفرتيتي.

ولم ينتظر ردّها، واستقلّ سيارته لتفتح له البوابة ويمرُّ منها مسرعًا.

أزال الرجال الإناءَ بناره المشتعلة، وبدأ الحفر أسفلَها، وبعد ساعة واحدة هتف أحدُهم قائلًا:

– لقد وصلنا.

هنا اندفع «ماجد» لينظر للأسفل، وأشرق وجهُه عندما رأى الجدار العتيق بنقوشه الفرعونيّة الشهيرة وقد انكشفتْ عنه الرمال، نادى على خال «معتز» وقال له:

– هذا هو الشيء الوحيد الذي أريد تصويرَه، لا يهمّني ما بالداخل.

أشار الرجل له بالهدوء، ثمّ نادى على الرجال بالأسفل وطلب منهم الصعود، وأخبره بأنّ أمامه دقيقة واحدة، لم يضيّع «ماجد» ثانية، وعلى الفور كان بالأسفل يُزيل بقايا الرمال العالقة بالجدار، وعيناه تطالعُ الرموز بمنتهى اللّهفة حتى وصل لرمز سابقَتْه عيناه إليه؛ فأخرج جوّاله وأخذ يلتقطُ الصور لهذا الرّمز، وكلِّ الرموز المجاورة له، وخرج منتشيًا وهو يكادُ أن يقبّل خال «معتز» قائلًا:

– لست أدري كيف أشكرك يا خال!

أشار الرجلُ للبقيّة أن يستكملوا أعمالَهم فاندفعوا إليها، وقال له باهتمام:

– ما هذا الذي وجدته وخرجتَ سعيدًا لأجله هكذا؟!

تنهّد «ماجد» قائلًا:

– إنها عصارة بحثٍ كبير أعمل عليه يا خال، سرٌّ فرعوني قديم أصبحتُ قابَ قوسين أو أدنى من كشفه، لو حدث سيكون خيرًا وفيرًا لا حدود له، ولنْ أجد أفضلَ منك لمشاركتي فيه.

همّ الرجل أن يردّ عليه، ولكنْ قاطعه نداءُ أحد الرجال بالأسفل، فتركه وانصرف إليهم، وعندما همّ «ماجد» أن يذهب إلى «معتز» و«سارة» بموضعيْهما إذا بذلك الغليظ ذي العينيْن الناريّتين صاحبِ المعارضة الشديدة على وجود شهودٍ من البداية؛ إذا به يقفُ أَمامه ويقول له بمنتهى الغلظة:

– أرني تلك الصور التي التقطتها.

بمنتهى البساطة، فتح له «ماجد» جوّاله، واستعرض له كافة الصور، بدا على الرجل عدمُ الفهم لَمَا فيها، فمدّ يدَه بجوّاله إليه، وقال له:

– انقلْ لي كافة تلك الصور إلى جوّالي.

تردّد «ماجد» ولكنْ ليقينه باستحالة وصول الرّجل لمراده، فعلها له، وقام بنقل الصور بخاصيّة «البلوتوث»، فتح الرجل

جوّاله واستعرض كافة الصور ليتأكّد من أنّ جميعها تمّ نقلها إليه، ثمّ رمق «ماجد» بشظيةٍ ناريّة ملتهبة، وقال له:

– ابتعدْ عنّا مستقبلاً.

وتركه وانصرف، في حين خالجَ «ماجد» وجَلٌ تسرّب إلى قلبه، وتمسّك بالعزم على عدم مقابلة هذا الرجل مُستقبلاً بالفعل. وأخيرًا ذهب ليستقرّ برفقة «معتز» و«سارة» اللّذين ينتظران فتح المقبرة الفرعونية ليرَوْا ما بها من كنوز مكثَتْ فيها لآلاف السنين.

***

خنفساءٌ سوداءُ ظهرت كنقطة غبار فوق سطح أملس، وذلك بسيرها البطيء المتمَهّل وبأقدامها العديدة التي تترك آثارًا لا يكاد يلحظُها إلّا المدقّق فوق الرمال الساخنة اللامعة تحت أشعة الشمس الساطعة وقتَ الهجير، لا يعلم مخلوقٌ سواها إلى أين سينتهي بها المسير، أو ما هي غايتها من تلك الرحلة، والتي- حتماً- ستتّصف بأنها شاقة. وفجأة هبّت عاصفة حملتْها ودفعتها بعيدًا عن مسارها عشرات الأمتار على إثْر السيارة التي مرقَتْ كالبرق فوق الرصيف المقارب لها، انتهى بها الأمرُ منقلبةً على ظهرها، وأقدامُها تتبدّل كأنما ما

زالت تجدّ في السّير، ولكن بسرعة أكبر. وبعد كثير من المجاهدة كانت قد اعْتدلت لتقف على أقدامها ولم تتوقّف هُنيْهة، وإنّما أكملت سيرها رغم تغيّر الاتجاه وابتعاده عن مسارها الأوّل، وكأنّما غايتها في الحياة هي أن تجدَّ السيرَ وفقط!

وبداخل السيارة المسرعة التي طالت وعدّلت مسار حياتها ارتفعت قهقهةُ «سارة» التي ارتعشَ لها وجدان «ماجد» سرورًا وهي تقول:

- وانتظرتُ أن تكون فقرة «جلا.. جلا» بها انبهارٌ أكبر من هذا، ولكنّه خيّب ظنّي وقدّم عرضًا وضيعًا بتلك المادة التي ألقاها لترتفع النيران بسببها لأعلى.

قال «معتز» باهتمام:

- لا تسخري منه، فهذا الرجل سعرُه عالٍ جدًّا، ومن الصعب الوصول إليه.

ارتفع حاجبا «سارة» بتقوّس جميل، وقالت:

- براعتُه الحقيقية أنه ترك هذا الأثر في قلب مَن يسمع عنه، وصنع تلك السّمعة، هل تصدق حقًّا أنّ الجن قد ترك كلّ مشاغله وأعماله وثرواته وممالكه ووقف ليحرس مقبرةً فرعونية مغلقة ومغمورةً أسفلَ الأرض منذ آلاف السنين؟!

أراد «معتز» إنْهاء هذا الجدل؛ فقال:

- طالما يوجدُ افتراض ولو ضعيف أنّ هناك حارسًا خارقًا، ويمكن صرفه بأي طريقة كانت، ما المانع مِن فعل اللازم حتى لزرع اليقين في قلوب الرجال المؤمنين بذلك أثناء عملهم، وربما كان أمرُ الجنّ الحارس للمقابر هذا أحدَ تفاسير ما يسمَّى بلعنة الفراعنة.

كان «ماجد» منهمكًا في تصفّح الصور التي الْتقطها على جوّاله، انْتبه على سؤال «سارة» الذي ساءلته به قائلة:

- وأنت يا «ماجد»، ما رأيك في ذلك؟

رفع «ماجد» رأسه وحاجبيْه، وقال:

- لو افترضنا أنّ أمرَ حراسة مردَةِ الجنّ هذا حقيقيًّا، يوجد دعاءٌ واحد.. المحافظةُ عليه ثلاثًا في اللّيل والنهار؛ يقيك جميعَ شرورهم.

اعتدلت «سارة» متسائلةً في لهفة، وقائلة:

- ما هو؟

- أعوذ بكلمات الله التّامّات من شرّ ما خلق.

ضحكت «سارة» بقوة قائلة:

– لقد ضربتَ أغلبَ رواياتِ الرّعب في مقتل بقولك هذا.

كانت شاشة جوّاله قد انطفأت؛ فضغط زرًّا ليبقيها مُضاءة وكاشفة للصورة التي كان يمعنُ فيها النظرَ؛ فانتبهت «سارة» إليها وقالت له:

– والآن حانَ دورك، ما هو سرّ تلك الصور التي لم يشغلْك سواها طوال الرحلة؟

نظر «ماجد» نحو سائق السيارة ومرافقِه بالأمام ليجدَهُما منهمكَيْن في حوارهما الخاص، فخفض صوته كي لا يخرجهما ممّا هُما فيه، وقال لها:

– أنت تخرّجت من كلية الآثار، أليس كذلك؟

هزّت رأسها موافقة دون أن تردّ، فأشار إلى أحد الرموز الهيروغليفية بالصورة واستكمل قائلًا:

– أريد منك فقط ترجمةَ هذه الجملة التي تحملُ هذا الرّمز.

ضحكت قائلة:

– أغلب دراستِنا لا نخرج منها بنفْع حقيقي، وحتمًا لا أجيد الهيروغليفية، ولكن سأساعدك فيمكّنني ذلك الآن.

أخرجت جوّالها وظلّت تبحث عبْر متصَفّحه، وتنظر نحو شاشة جوّال «ماجد» التي يسرع بإضاءتها حين إغلاق إنارتها ليبقيها أمام ناظريها، وأخيرًا قالت له:

- لقد ترجمتُ كلّ المكتوب ما عدا هذا الرّمز فقط، فلم أجدْ له مُشابهًا قطّ في اللغة الهيروغليفية!

ابتسم «ماجد» بثقة، وقال:

- هذا هو سرُّ اهتمامي به.

قالت باهتمامٍ شديد، وقد علا صوتُها قليلًا:

- كيف توقّعت وجودَه على جدار هذه المقبرة؟ وما قصّته معك؟

نظر «ماجد» نحو الرجليْن ليجدهما ما زالا على حاليْهِما؛ فقال بخُفوت:

- القصّة طويلة ويعرفها «معتز»، سيحكيها هو لك، المهمّ ما هي الترجمة؟

أخرجت جوّالها وقالت:

- أرسلْ لي هذه الصور، لقد شحذتَ اهتمامي بالفعل.

أرسل لها الصور، وأعادت جوّالها إلى جيب حقيبتها الداخلي، وقالت:

- لو افترضنا أنّ هذا الرمز غيرُ موجود؛ فالترجمةُ تقول: «السيرُ في حرّ القيْظ عشرة آلاف خطوة». جملةٌ لا معنى لها وحدها!

ابتسم «ماجد» وهَمّ أن يردّ عليها، ولكنْ فجأة اندفع للأمام على إثر ضغطِ السائق بقوّةٍ على مكابح سيارته فوْرَ رؤيته لذلك الجذْع الكبير، والذي يقتربُ من إغلاق الطريق تمامًا، وأخيرًا توقّفت السيارة قبلَه بأمتار، والسائقُ يعزف مع مرافقِه سيمفونيةَ سبابٍ قذرة في حقّ مَن فعل ذلك، ولكنْ بمجرد نزوله من السيارة تحوّل لفأر مذعورٍ يكاد أنْ يَبول على نفسه، إنْ لم تكنْ بعضُ القطرات قد تفلّتت منه بالفعل، وذلك عندما رأى المتسبّب الذي نالَ منه قبيلَ مغادرة السيارة، فقد خرجَ من خلف تبَّةٍ رمليّة قريبة رجلان مُلثّمان يحمل كلٌّ منهما بندقيةً ارتعدَ الجميع فورَ رؤيتِهما، وكتمت «سارة» صرختَها بكفّها بمنتهى الصعوبة، أحاط «معتز» كتفَها بذراعه وكأنّما سيحميها منهما بذلك، والرعبُ يكاد أن يوقِفَ ضرباتِ قلبه، في حين قالَ لها «ماجد» بصوتٍ مُرتعش:

- أخْفضي النّقاب فوق وجهك بسرعة قبل أن يطمَعا بك.

فأسرعت بفعل ذلك، وفي الخارج وقف السائق ومرافقه يكبّلُهما الخوفُ بشللٍ تامّ، وأخيرًا نطق قائلًا: بصوتٍ يخنقه الرجاء:

- نحن أغرابٌ عن هنا يا باشا.

ضحك أحدُهما قائلًا:

- حملُكَ للسلاح جعلك باشا يا صميدة.

فقال الآخرُ ذو الحاجبين الكثيفين، واللّذين لا يكاد أن يظهر سواهما خلف اللّثام:

- لا تقل اسمي الحقيقي يا غبي.

قال السائق:

- أسْتحلفك بالله ألّا تؤذينا، والله لن نعودَ هنا مرة ثانية أبدًا، ولن نقدّم أي بلاغ.

قال الغليظُ وهو يشير إلى الجانب البعيد عن السيارة:

- قفا جانبًا هنا.

امتَثَلا مسرعَيْن لطلبه، فالتفت الغليظُ للملثّم الثاني وقال له:

– صوّب إليهما بندقيّتك، ولا تصرف عينك عنهما يا بليغ.

فقال الرجل معاتبًا:

– لماذا تقول الأسماء أنت الآن؟

فقال الغليظ:

– يا غبي، لقد ذكرت اسمًا غيرَ حقيقي لك حتى أشوّش عليهما، وهل اسمك هو بليغ؟!

كتمتْ «سارة» ضحكتها بصعوبة، وقالت:

– ما شاء الله، مجرمون أذكياء جدًّا!

ولكن عاد لها ارتعاشُها عندما وجدته يتّجه نحو السيارة، وعينُه فاحصة لِمَن بداخلها، وفوّهة بندقيته تسابقه إليهم، فتح البابَ وأشار لهم ليخرجوا ويقفوا مُصطفّين وظهرُهم للسيارة، بأسرع ما يكون وقفوا كما أراد، ويغلب على ظنّهم أنه سيقوم بتصفيتهم ببندقيّته الآن، نطق «ماجد» قائلًا:

– إذا كنتَ تريد أموالًا، معي ألف جنيه.. هل تكفي لتتركنا نمُرّ أحياء من هنا؟

صمت الغليظُ حينًا، وعيناه تكادا أن تخترقا عيني «ماجد» الذي لازم الصمتَ بعدها وهو لا يدري تُرى هل أساء الأدب بقوله هذا، أم لا؟!

ظلّ الرجل على صمته ووقفته الثابتة التي تكادُ أن تفتك بهم، وهُم لا يدرون كمْ تبقّى لهم من الثواني على وجْه الدنيا، وأخيرًا حكَّ رأسَه بأطراف أصابعه، ونظر نحو زميله مسائلًا:

- ولد يا راضي، هل قال لنا بأنّ الشاب سيكون قميصُه أخضر، أم أزرق؟

نظر «ماجد» و«معتز» لبعضهما البعض بدهشة، فلم يكن أحدُهما يرتدي أيًّا مِن اللونيْن، في حين قال راضي بحيرَة:

- لا أذكر.

قال «ماجد» باهتمام:

- أظنّ بأنك أوقفت السيارة الخطأ.

نهرَهُ الغليظ قائلًا:

- نحن لا نخطئ. إنّها السيارة البيجو الحمراء الوحيدة التي تمرّ مِن هنا، هيّا أعطني جوّالك أنت وزميلك، وليأخذ هو ما يشاء منهما.

أسرعَ «ماجد» و«معتز» بإخراج جوّاليهما وقدّماها إليه بطيبِ خاطر، فوضعهما بجيْبِ جلبابه الكبير، وقال لهما:

– انطلقوا بسرعة، ولو سمعنا بأنّكم تفوّهتم بحرف أو قدّمتم بلاغًا رسميًّا بما حدث؛ سيكون آخرَ يوم بالفعل في حياتكم، فقد كُتبَ لكم عمرٌ جديد الآن.

لم يصدّق الجمعُ ما تفوّه به، فقام السائق ومساعده بإزالة الجذع عن الطريق، وبعد ثوانٍ كانت السيارة تنطلق بأسرع ممّا كان قُبيل ظهور هذا الجذع.

***

صعد «ماجد» درجَ المبْنى الذي يقيمُ بالطابَق السّابع منه، وكلُّ عضلات جسدِه تئنّ من الإرهاق، وكأنّما لمْ يكنْ ينقصُه إلّا انْقطاع التيّار الكهربي ليصعدَ كلّ هذه الطوابق بلا مِصعد إلكْتروني، كان يتحسّس طريقَه بحذر، فحتّى جوّاله الذي كان يُنير له دربَه قدْ فقدَه ولا بديلَ له، تذكّر اضطرابَ مشاعره وتصاعدَها للذورة إيجابًا وسلبًا حين فقدَ هذا الجوّال، وتداعتْ ذكريات اليوم بأكلمه أثناءَ رحلة صعودِه الشّاقة، ولكن ما هوّن عليه الكثيرَ ضحكةُ «سارة» القصيرة والمتكرّرة في أغلب المواقف، والتي ما زال صداها يتردّد بأذنيه، وصلَ أخيرًا لباب

شقّته فطرقَه بيدِه مرةً تلْو أخرى، حتى سمعَ صوت «هدير» المرتَجِف والمتسائل عنِ الطارق، وحينما أجابها بأنّه هو، فتحَتِ البابَ بسرعة لتلقي نفسَها بين ذراعيه وهي تبكي قائلة:

– حمدًا لله على سلامتِك، لقد متّ رعبًا عليك.

كان يشعرُ بالضّجر من ردّة فعلِها المفرطة، ولم يكنْ لديه الطاقة ولا القدرة ولا الذهن الذي يدفعُه للترفّق بها، فقال بجمود:

– لمَ كلّ هذا؟ مجرّد رحلة طالت مدّتها لا أكثر!

تمسّكت بأحضانه، وكأنّها تستمدّ منها طاقة تفتقدُها، وقالت:

– جوّالك مغلقٌ منذ ساعات، ولا إضاءة بالشّقة منذ نفادِ بطارية الكشافات، وجوّالي على وشك الموت، بالله عليْك ماذا كنت أفعلُ في الظلام الدّامس بدونك؟

دفعها برفق عنه وهو يقول:

– فلنستثْمرْ ما تبقّى مِن طاقة جوّالك قبلَ فوات الأوان.

اندفعَتْ مسرعةً لتعدّ له وجبتَه السّاخنة، والتي ظلّت سويعات تبذل الجهدَ فيها عسى أنْ تنال رضاه، وما إنِ انْتهى

من تبديل ملابسِه وشاركَها تلك المائدة ظلّت تتطلّع إلى ملامحه الشاحبة، والتي يختفي أغلبُها خلف الظّلال الناشئة عن ضوء الجوّال الضّعيف وهو يأكل بلهفة كأنّما لمْ يتناول طعامَه منذ أيام، توقّف عندما رآها تتطلّع إليه وفقط، فابتسمَ وقال:

- تنتظرين النتيجة؟ طهيُكِ رائع جدًّا.

ضحكت بقوة وقالت:

- رغم علمي بأنّها قد تكون مجاملةً إلّا أنها أسْعدتني.

- لمَ لا تشاركيني إيّاه؟

- كنت صائمةً وأفطرت منذ ساعتين فقط.

هزّ رأسَه دون أن يردّ عليها، خشي أنْ يثني على صيامِها فتذكّره بأنه هجرَ صيام النّافلة منذ عام مع بقية الطاعات الكثيرة التي يتهاون فيها، ويبدأ الجدالُ الّذي يمقتُه حولَ هذا الأمر، ولكنْ لو علم فيما سيبدأ الجدال تاليًا لوجدَ ذلك أهْون بكثيرٍ عمّا سيلاقيه؛ فقد تنهّدت «هدير» وقالت له برجاء:

- بالله عليك أليسَ طفلًا معي بالشّقة سيهوّن علي الكثيرَ من العنَتِ بمثل ما حدث اليوم؟

تموّه تمعُرُه بين الظّلال، وابتلع لقيْمَته بصعوبة، وتوقّف هنيهة، ثمّ قال:

- يهبُ مَن يشاء إناثًا ويهبُ مَن يشاء الذكور.. أليس كذلك؟ لا تتوقّفي عن دعائك الجميل «ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنّك سميع الدعاء»، وسوف يهبُك الله ما تشائين.

التَحفَ صوتُها برجاءٍ أكبر وهي تقول:

- أخشى أنْ يكون هناك مانعٌ بسيطٌ يمكن علاجه، ويتضاعف بمرور الوقت، وحينها سيكون النّدم على التقصير، ائْذَن لي فقط بالذهاب للفحص حتى يطمئنّ قلبي، وأعدُك بألّا أثْقلَ عليك بعدها مهْما كانت النّتيجة.

أخذ «ماجد» في المضغْ ببطء ليمنَحَ عقله فرصةَ التفكير في الردّ المناسب، لم تطلبْ منه الذهابَ معها، ولكنّ ذهابها وحدها سيكشِفُ كلّ شيء، لو كانت سليمةً سيكون موضعَ اتّهام، ولو كان بها ما بها ستبدأ الرحلة الطويلة للعلاج، والتي ستتكلّف الكثيرَ ممّا قد لا يطيقه الآن، ما يُحتسَب لها أنها قد تفعل ذلك بدون إذنه وبمعونة أهلها، ولكنها لم تُقدِم على ذلك، الأفضل له الآنَ أن يحفظَ ذلك ولا يخسره معها بالرّفض الصّريح الدّافع لها لاستحلال ما تريد، فنظر نحوها وقال:

– سنفترض الأسوأ، أحدُنا أو كلانا مَعيب، ألَا يستلزم ذلك أموالًا طائلة للعلاج؟ هل تظنّين أنّ رغبتي في الإنجاب أقلّ منك؟ فقط فلتصبري عليَّ حتى أصلَ إلى مُبْتغاي، وأعدك وقتها أن نبدأ في هذا الأمر.

قامت مُسرعة، وبفرحةٍ طفوليّة قبَّلت خدّه الأيمن، وقالت:

– لا تدري كمْ أسعدت قلبي بذلك يا حبيبي الغالي، إذًا الوعدُ الآن بعد أنْ تتحسّن أحوالنا الاقتصادية سنبدأ هذه الرحلة؟

أضيئت الأنوارُ على إثر عودةِ التيار الكهربي، فرسم بسمةً مُصْطنعة على وجهه، وقال لها:

– أعدُك بذلك.

فعادت لتقبّله مرةً أخرى، وهي تكادُ أن تحلق بجناحَيْن من الفرحة.

***

كان «ماجد» متكئًا على ساعديْه أمام حاسوبه، وهو يستعرضُ الصّور القديمة التي يختزنُها عليه، والتي تحمل

أغلبَها رموزًا فرعونيّة يتخلّلها ذلك الرمزُ الغامض محلّ حديثه مع «سارة» قُبيلَ حادث فقدِه للجوّال الذي يحمل الصورَ الجديدة.

انتهى مِن ذلك الاستعراض، وعادَ بظهره إلى الخلف، وهزّ رأسه بحيرة، ماذا سيفعلُ الآن وقد فقدَ الصّورَ الجديدة؟ هل سيأذنُ له خال «معتز» بالذّهاب ثانيةً لتصويرِ تلْك الرّموز؟ ولكنْ ما حاجتُه إليها؟ لقد قامت «سارة» بترجمتِها، وإنْ كان لا يذكر نصّ الجُملة بالتّفصيل، لقد كانت تتحدّث عن السيْر في الحرّ عدة خطوات لا يذكر مقدارَها، حتى لو تذكّر لا بدّ وأنْ يكون لديه النصّ بلا زيادة أو انْتقاص حتى تكتملَ لديه الخريطة، فقد يعوقُ تغيير كلمة واحدة بها كلّ شيء، لذا الأفضلُ الآنَ أن يتّصل بـ»سارة» ويسألها عن نصّ العبارة التي ترجمتْها. لحُسْن حظّه كان قد كتبَ رقم جوّالها بوريْقةٍ معه ليمكنه التواصل مع «معتز» من خلالها حتى حصولهما على جوّالات جديدة، نادى على «هدير» التي جاءت إليه مسرعةً والماءُ يتقطر مِن يديها وبقايا الصابون المستخدَم في تنظيف الآنية عالقةٌ بها لتسأله عمّا يريد، طلب منها جوّالها، شردَت ببصَرها محاولةً تذكّر أين تركته وقالت:

– لست أدري أينَ وضعتُه منذ عصر اليوم.

نظر لها باستهجان، وقال:

- عصر اليوم أيتها التائهة! لقد كان ينير لنا الصالةَ قُبيل عودة التيار الكهربي.

ضحكت بقوة وقالت:

- لقد نسيتُ بالفعل، سأجلبُه لك مِن هناك.

وبعد دقيقتَيْن، كان ينتظر ردّ «سارة» على الطرف الآخر، والتي أجابته بصوتٍ ناعس دغدغَ مشاعره، نظر نحو «هدير» بتردّد، والتي تقف أَمامه برداءِ المطبخ الأمامي، والذي يحمل بقايا سوادِ آنيتِها، وشعرِها المتناثر في تقاتلٍ وخِصام، وشذرات من رائحة الطعام، حاول أن يردّ بصوتٍ جامد قائلًا:

- معذرة يا «سارة»، هل تتذكّرين الجملة التي قمتِ بترجمتها؟ أريدها بدقّة لا تنتقص حرفًا.

قالت «سارة» بصوتٍ ناقم:

- ألا تدري كيف انْتزعتني من لذّة النوم الآن لأجْل هذا الطلب السخيف!

نظر «ماجد» نحو «هدير» ليتيقّن بأنّ اللّفظ الأخير لم يتسرّب إلى أذنيها، وقال بتردّد:

- أنا آسف، أردت فقط الحصولَ عليه بسرعة قبل نسيانك إيّاه، كما فعلت أنا.

بنفس النّقمة قالت:

- أيّها التائه، الصور كلها عندي ويمكن ترجمتُها مرة أخرى، هل نسيتَ أني حصلتُ عليها منك قبل الحادث.

تنهّد «ماجد» بفرحة، واطمأنّ جنانه، وقال لها:

- شكرًا يا أجمل «سارة» في الوجود، وآسف جدًّا على إزعاجي لك، بعد نيْلك للرّاحة الكافية أنتظرُها منك عبْر برنامج «الواتس آب» على هذا الرقم.

أغلقت «سارة» الخطّ دون أن تردّ عليه، فنظر نحو «هدير» ليجدها مرفوعةَ الحاجبين، ويديها تمسكان بوسطها، فقال في تردّد:

- إنها «سارة» مخطوبة «معتز» صديقي.

فقالت باستنكار:

- أجمل «سارة» في الوجود؟! لقد كانت خطبتنا عامًا وبعدها زواج ثلاث سنوات ولم أسمعْ منك أجمل «هدير» في الوجود.

فقال مازحًا:

- وهل ينتظر القمرُ أن نقول له يا قمر؟!

هزّت رأسها وتنهّدت، وذهبت إلى المطبخ لتستكملَ ما كانت تنشغل به.

***

- هل يصحّ ما فعلت يا عبدَ العاطي؟!

هتف بها خالُ «معتز» مستنكرًا ناقمًا وهو يحدّث ذلك الغليظ الذي أخذَ من «ماجد» الصورَ عند المقبرة، فردّ عليه «عبد العاطي» قائلًا: بصرامة:

- وهل آذيتهما؟ قلت لك من البداية وجودُ هؤلاء الصغار خطأ كبيرٌ يهدّدنا جميعًا، وكان يجب عليَّ التأمين بعد انصرافهما.

ردّ خال «معتز» بغضب قائلًا:

- لو طلبتَ مني تلك الجوّالات لآتيتك بها بلا داعٍ لتلك الأعمال الصبيانيّة التي فعلتَها معهم على الطريق.

مدّ «عبد العاطي» يده بجوّالي «معتز» وماجد، وهو يقول:

- تفضّل ها هي الجوّالات بعد تنظيفها، ثقْ أنّ هذا في صالحك كذلك.

تناولهما خال «معتز» بقوة، ونظر إليه شذرًا، وانطلق خارجًا.

***

بأحدِ المقاهي الراقية في حيّ المهندسين بالجيزة، انسابت أصداءُ أغنية إسبانيّة، وتصاعدت أدخنة الشيشة لتتعانق بالأعلى، تناولتْ «سارة» رشفةً من كوبها وأعقبتْه بكركرةِ شيشتها وهي تنفثُ الدّخان بعيدًا عن «ماجد» الذي أخذَ يستعرض محتوى جوّاله غير مصدّق بأنه قد عادَ إليه، ونظر بامتنانٍ نحو «معتز» قائلًا:

- كيف أعادهما خالُك بهذه السرعة؟!

ردّ «معتز» مبتهجًا وقائلًا:

- عندما أخبرته بأنّ اللّصّين اسمهما صميدة وراضي؛ انطلق غاضبًا وأحضرهما بعد ساعة واحدة.

هزّ «ماجد» رأسه، وقال:

- لقد تمّ حذف كلّ المحتوى بضبط الجوّال على تهيئة المصنع، الحمد لله أنّ صوري الغالية كلها لدينا منها نسخة احتياطية.

دفعت «سارة» سحابة من الدخان لأعلى، وقد ضيّقت فمَها فتشكّلت السحابة على شكل قمع فوهتُه تبدأ منْ فمها، وتدخلت في الحوار موجّهةً حديثها إلىً «ماجد» قائلة:

– ها نحن بعيدًا عن مخبريك وكلّ المتلصّصين، أريد معرفة القصة كاملة.

ورغمَ بعدهم عن أيّ مستمع بالركن القصي الذي يجلسون فيه، تلفّت «ماجد» وخفتَ صوته وقال:

– بداية هذا الأمرُ لا يعلم به إلّا «معتز» وخاله، فأريد منكِ وعدًا بعدم التفوّه بما ستسمعين الآن؟

بمنتهى البساطة قالت:

– أعدّك بذلك، تفضّل.

اعتدل «ماجد» في مجلسه، وقد تقدّم للأمام، وقال بلهجةٍ توحي بخطورة الأمر:

– الأمرُ باختصار أنني أقتربُ من العثورِ على كنز قارون.

ارتفع حاجباها دهشةً، ولم تستطع مقاومةَ قهقتِها القصيرة التي تخلبُ لبَّه وقالت:

– كنز قارون دفعة واحدة؟

ردّ عليها بسخط قائلًا:

- لو بدأت في تسْفيه الأمر لنْ أستكملَ الحوار.

بذلت جهدًا محاولة محْو البسمة التي تتلاعبُ بكلّ ملامحها، ووضعت مَبْسم الشيشة جانبها، واعتدلَت في جلستها بما يشابِه جلستَه المترقّبة، وقالت:

- أخبرني التفاصيل أولًا، وبعدها نحكُم على الأمر.

نالَه الرّضا بردّة فعلها تلك، فقال بنفس الاهتمام:

- الأمرُ بدأ منذ عام، جاءني بريدٌ عجيب يقول لي المرسِل فيه: «رجاء لا تحذف هذه الرسالة، وأعد إرسالها لي بعد شهر». اتجهت بمؤشر الفأرة نحوها مباشرة للحذْف، لقد ملَلْنا جميعًا من الرسائل القائلة لا تجعلها تتوقّف عندك، والتي حتمًا ودائمًا تتوقّف عندي! ولكن شدّ انتباهي أنه لا يوجد محتوًى آخر بالرسالة سوى جملته هذه، ومعها مرفَق عبارة من ملفّ بصيغة «بي دي إف» اسمه الخريطة، وبفضولٍ بسيط دعَّمَه الفراغ ووفْرة الوقت؛ قرّرت فتحَ ذلك المرفَق، وبدأت بعدَه القصّة.

أسعدَه ذلك الشّغف الظّاهر على محيّاها، وأنه نجحَ بالفعل في شحذِ اهْتمامها بما لديه، فارتشفَ بعضًا من الماء، وأكمل قائلًا:

- الملف كان به صورةٌ لوثيقة قديمة عليها أختامٌ كثيرة وتوقيعُ اللورد كرومر.

لم تقاوم «سارة» الواااو الكبيرة التي خرجت منها، والتي جعلته يتراقص فرحًا، في حين ضحك «معتز» قائلًا:

- وماذا تعرفين عن اللورد كرومر لتندهشي هكذا؟!

ضحكت ضحكتها القصيرة المميزة وقالت:

- فخامة الاسم وشهرتُه توحي بأهمية الحدث رغم جهلي بتاريخه.

شعر «ماجد» بالغيظ لردّها الحاملِ لسخرية مبطّنة فقال:

- اللورد كرومر كان المندوب السامي البريطاني لمصر بعد الاحتلال الإنجليزي، ظلّ في منصبه هذا ربعَ قرن منذ عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٠٦، وقد كان أحدَ أهمّ المؤسّسين الفعليّين للفكر التغريبي بمصر، هو أول من قال بأنّ مصر للمصريين، ويجب فصلُها عن أي ارتباط عربي أو إسلامي، وأنّ اللغة العامية المصرية يجبُ التمسّك بها ونبذ الفصحى، وأنّ التعليم يجب أن يكون للفئة الثرية فقط، وغيرها الكثير ممّا ورد بكتابه الشهير «مصر الحديثة»، ولم يتوقّف عن طرح أفكاره وفقط؛ فقد سعى بجهدٍ كبير لترسيخ تلك الأفكار

بأقدام ثابتة على أرض المحروسة، والتي أيْنعت وأثمرت وأصبحَتْ من المسلّمات لدى طائفة كبيرة الآن، وعقب عزلِه نعَاه بقوة سعد زغلول قائلًا في مذكراته أنّه عندما سمع بالخبر كان «كمن تقع ضربة شديدة على رأسه.. فلم يستشعر بألمها لشدة هولها».

قالت «سارة» بملَل:

– حسنًا. هو رجل تاريخي لا مثيلَ له، أكمل ماذا حوَتْ تلك الوثيقة؟

شحذَ «ماجد» كلّ تركيزه محاولًا استعادة شغفها السابق فقال:

– هل تعلمين أنّ منزل اللورد كرومر ما زال باقيًا حتى الآن، ومزارٌ سياحيّ عندنا بالفيوم؟

فقالت بفراغ صبْر:

– علمت الآن سببَ اهتمامك بالوثيقة فوْرَ قراءة اسم اللورد كرومر، أخبرني ماذا كان بها؟

شعر بإحباطٍ، ولكن استمرّ بنفس الحماس قائلًا:

– اللورد كرومر صاحبُ منزل بالفيوم، وكان يهتم بالحضارة المصرية القديمة بشكلٍ خاص، وكما تعلمين أنّ

الاحتلال الإنجليزي كان مولعًا باستخراج ونهبِ الآثار المصرية، فهل تظنّين أنهم سيغفلون عن كنز قارون؟

الوثيقة كانت تتحدّث عن أنّ كنز قارون يمكن الوصول إليه لو قمنا بجلبِ كلّ المكتوب بها وربطِه ببعضه البعض، وفكّ الشفرة التي توصلوا إليها بأحد المقابر المرتبطة بعصر قارون قبل الخسف به وبداره.

– وما يدريك بأنّ هذه الوثيقة سليمة؟ يمكنني بالفوتوشوب تصميم وثيقةٍ أخرى بأنّ ذهب كليوباترا أسفل ساقية الصاوي!

بمنتهى الحماس واللّهفة قال لها:

– هذا ما جالَ بخاطري بالفعل وقتها، لذا انتظرتُ الرسالة التالية من ذلك المُرسِل، والتي سيطلبُ مشاركتي في الملايين فوْر تعاوني معه، مثله مثل تلك الرسائل الشهيرة التي تأتيك مِن مُدَراء بنوك أفريقيا أو أقارب المشاهير الراحلين يطلبون مساعدتَك لنقل الملايين إليك وتسلّمها منك بعد ذلك مقابل منحِك عدّة ملايين منها، والتي تنتهي غالبًا بطلب دفع مائة دولار ثمنَ تسجيل اسمك على النّظام المحاسبي لذلك البنك، أو أيّ سبب آخر يقنعك بالدّفع عنْ طيب خاطر، فما

قيمة المائة دولار مقابل الملايين القادمة، في حين يقنع المرسل تمامًا بتلك المائة التي وهبتها له بكاملِ رضاك.

قالت «سارة» بجديّة:

- «ماجد».. هل تتحمّل زوجتك كلّ استطراداتك الفرعيّة السّخيفة تلك؟

- إنّها تستجدي الحديث معي.

- رائع، اشرح لها كلّ ذلك مُستعرضًا ثقافتك وبراعتك وذهنك فائق الحضور، وأرجوك أخبرني بالخلاصة وفقط، واخْتصر الأمرَ قدر إمكانك.

تمكّن الإحباط منه على إثر جملتها تلك، فقال بمضَض:

- طوال شهر لم يأتني منه شيء، وبعد شهر تالٍ من المفترض أن تعود إليه الرسالة على حسب طلبه، لم يأتني منه أي مطالبة بها كذلك، بحثتُ عن وثائق أخرى بها توقيع اللورد كرومر، وكان هو نفس التوقيع بالفعل، ولكن كما قلت أنتِ كلّ ذلك يمكن صنعه بسهولة عبر «الفوتوشوب»، فتركت كلّ شيء، حتى قرأت خبرَ مقتل خبير بردِيّات يعمل بالمُتحف المصري أثناء عملية سرقة لبعض الوثائق النادرة، والتي ترتبط بفترةِ وجود اللورد كرومر بمصر، قرأت اسمَ الرجل وفتحتُ

بريدي لأجدَ أنّ الرسالة كانت باسْمه بالفعل، وهنا أيقنتُ جدّيّة الأمر، وكذلك مدى خطورته بعد مَقْتل الرجل.

أشرق وجهُها ببسمة سلبتْه كلّ إحباطه وزرعت به السعادة مجددًا وقالت:

– هكذا نلتَ اهتمامي وأقنعتني بالفعل، والآن أريدُ مطالعة تلك الوثيقة، فقد اكتسبتني بفريقِك.

***

– «ماجد»، لقد ألقى القبض على خالي!

هتف بها «معتز» عبْر جوّاله ليرتعد «ماجد» على إثرها قائلًا:

– كيف؟ ولماذا؟

– لا أدري. اتصلت زوجةُ خالي منذ قليل لتخبرني بالخبر، وتقول بأنّ «عبد العاطي» شريكَه هاربٌ الآن، وأنه قد أقسم على النّيل مني ومنك!

– ماذا يمكنه أن يفعل؟

– يمكنه قتلنا.

صمتَ «ماجد» هنيهَة يحاول هضمَ الخبر وفهْمَ أبعاده، «معتز» صديقه منذ الدراسة بكلية التجارة في جامعة القاهرة، علم منه بأن خالَه مِن أكبر الباحثين وتجّار الآثار، ويعلم كذلك

بأنه مدْعوم ببعض ضبّاط الشرطة الذين يشاطرونه الأرباح، وهذا هو السببُ الكبير في طلبِ المساعدة منه واشراكه في هذا الأمر، «عبد العاطي» هذا بنَظرته الناريّة لم يكن مريحًا، ويتقطّر الشرّ منها بالفعل، ولكن ما هي قوته وسطوته حتى يتمكّن منه الآن ظنًّا بأنه سببٌ في هذه المداهمة التي يتعجّب كيف حدثت رغمَ معارف خال «معتز» الشرطيّة، لذا تساءل «ماجد» مباشرة قائلًا:

– وهل يمكنه ذلك بالفعل؟

بمنتهى الخوف وشدة الارْتعاد قال له:

– أنت لا تعرف هذا اللّوبي، لقد قتل أحدُهم ولدَه من قبل بسبب أمرٍ كهذا!

انتقل ارْتعاده إلى «ماجد» بقوة، وقد أدرك خطورةَ الأمر، سأل نفسه: هل يمكنُ لعبد العاطي هذا أن يصلَ إليه؟ ولمَ لا!؟ معه المال، وبالتالي في مصر يمكنك الحصول على كلّ شيء بهذا المال، الحلّ الآن أن يهجر شقّته إلى حين، وحتى تتبيّن له الرؤية ومعرفة أسباب إلقاء القبض على خال «معتز» وزوال خطر «عبد العاطي» هذا، فقال لـ«معتز»:

– حسنًا يا «معتز». سأحاول الاخْتفاء، وشكرًا لتحذيري.

أغلق «ماجد» جوّاله واعتدل في جلسته على فراشه وهو يحكّ رأسه محاولًا تدبّر أمره. «هدير»- كما اعتادَت- في زيارةٍ لأهلها لمدة يومين بقرية بعيدة تتبعُ مركز سنورس، هل سيمكنه الذهاب إليها؟ الظهور بالطرقات الآن خطرٌ عليه؛ فلا يدري مِن أين قد تأتيه الطلقة، هل ينطلق إلى القاهرة مباشرة، الفارق ساعة واحدة ويختفي تمامًا في زحامِها، ولكن قدْ يكون هناك متربّصٌ ينتظره عند موقف السّيارات، الحلّ الوحيد الآن أن يذهب ليختفي بمكانٍ قريب يتجنّب فيه السيرَ أو الظهور بالطرقات وقتًا كبيرًا، اعتصرَ مخّه باحثًا عن سبيلٍ يمكّنه من ذلك، ولم يجدْ إلّا إيّاها، تمعّر وجهُه ألمًا وهو يسائلُ نفسه قائلًا:

- لماذا تدفعني الأقدار دومًا لمواجهة كلّ ما سعيت لتجنّبه؟

ظنّ أن حياته بحثًا عن المال ومحاولة الاستمتاع بها وفقط بلا ضرر ولا ضرار؛ ستجنّبه المطاردات والتضْييق اللّذين عاشهما حينما حاول صحبة المتديّنين، فها هو يعيشها الآن ولكنْ بشكلٍ أخطر عن ذي قبل، حاول تجنّب رؤية منزل «مصطفى» وكلّ ذكرياته، وها هو لا يجدُ ملجأً إلّا عنده، أعدّ حقيبته بما يكفيه عدّة أيام، وحملها على كتفه واندفع مغادرًا

شقته التي أحكمَ غلْقَها، واتّصل بـ«هدير» ليخبرها أنْ تمتد زيارتها لأهلها أسبوعًا بسبب سفره إلى القاهرة الذي قدْ يطول، وطلبَ منها عدمَ العودة إلّا بعد مجيئه لصحبتها بنفسه، وأخبرَ بوّاب العمارة بنفس الكلام أنه مُسافر إلى القاهرة، وأنّ الشقة خالية ربما لشهْرٍ فلينْتَبه لها، فقد تصِلُ الرّسالة لمن سيأتي باحثًا عنه.

وبعد قليل، كان يرتمي بأحضان أمّ «مصطفى» التي لم تصدّق بأنه يطلب المكْثَ عندها عدّة أيام، فتحت له فوَّهةَ الجحيم بالنسبة له، ودَعَته لأنْ يقيم بحجرة «مصطفى»، وأن يعيد بها الحياة، لم يكنْ لديه فرصة التهرّب هذه المرّة فدخلها دون أن يضيء مصباحَها فهو يحفظ كلَّ ركن وقشّة بها، بعد قليل، اعتادت عيناه على الإضاءة الخافتة المتسلّلة عبر خصاص النافذة، وضع حقيبته جانبًا وارتمى على السرير، وأغمض عينيه محاولًا انْتزاع نفسه من أي ذكرى تحملها هذه الغرفة، فهو يحاول جديًّا الانسلاخ من أي حياة أو ذكرى كان «مصطفى» سببًا فيها، ولكن رغمًا عنه تدفّق نهرُ الذكريات إلى مخيّلته.

كانت نتيجته بالسنة النهائية بكلية التجارة قدْ ظهرت، والسيارة التي استقلّها من القاهرة إلى الفيوم تتهادى وتتمايل

وقتَ الهجير، والعرقُ يتصبّب على جباه الجميع، وبالخلف سيدةٌ تحاول هدهدةَ طفلها الذي لا يكفّ عن البكاء، وأبخرةُ السيارة يقاتل بعضُها للدخول إلى السيارة ولكن يصرعُها أبخرةُ السيارات الأخرى، وخلف «ماجد» يتهامس عشيقان بكلماتٍ التقط بعضها عن أنّ عينيْها ومحبتها وقلبَها لا مثيل لهم، وأنه رغم إيجار الشقق الخيالي والذي وصلَ إلى رقم خمسمائة جنيهًا، إلا أنه سيحصل على إحداها لتكون عشَّ حبهما في القريب العاجل!! وهذان التّاجران ذوو الصوت العالي يتجادلان حول سعر الدّولار الذي يرتفع بجنونٍ يعطّل الكثيرَ من تجارتهم، حتى أنه قد وصل إلى خمسة جنيهات ونصف، والسائق يقصّ على مجاوِرِه كلَّ آلامه ومعاناته في الحياة، وانْساب برفق إلى أذن «ماجد» ذلك الصوت الهادئ جدًّا، والذي يتحدّث في جوّاله قائلًا:

- سيكونُ هذا التوريث على جثّتي، مصرُ كبيرة عليه.

ارتفع حاجبا «ماجد» دهشة وهو ينظر نحْوه، متسائلًا عن هذا الخارق المانع لتوريث ابن الرئيس مُلْك مصر، قابلته بسمة «مصطفى» الرائقة والحالمة، والتي تنافي قوة ما يتحدّث به، فاصطنع ابتسامة وهزَّ رأسَه مُرحبًا به، وذهب بوجهه بعيدًا

محاولًا الإفلات منه، ولكن بعد انتهاء المكالمة حدّثه «مصطفى» قائلًا:

- ترى الأمر كبيرٌ عليَّ أنا وليس عليه!؟

لم يهتم «ماجد» يومًا بالسياسة وتجنّبها بنجاح طوالَ دراسته التي مرّت سريعًا بعيدًا عن أي مُنغصات، ولكن ما المانع من حديثٍ سريع يقتل معاناة الانتظار داخل تلك العلبة الصفيحيّة التي يتلظّى داخلها الآن، فردّ عليه قائلًا:

- هل تظنّ حقًّا أن تلك المقالات ورسائل الإنترنت وبعض الكتابات على الحوائط كافيةٌ لمنع ما يريده الرئيس، والذي يحيط نفسه بكلّ وسائل القوة الحسيّة والمعنويّة؟!

قال «مصطفى» بهدوء:

- لو لم يكن ظالمًا لقلتُ بأن حديثك صوابٌ، ولكن الظالم هزيمتُه تأتي من داخله دومًا، فانعدام الأمان بداخله، وترقّبه الدائم للضربة من حيث لا يدري؛ تفقده اتزانَه وتدفعه لكلّ القرارات الخاطئة التي تُودي به في النهاية، دورك هو أنْ ترسّخ هذا الإحساس بداخله مهما كان هَوان ما تفعله، فهم يحسبون أنّ كلّ صيحة عليهم.

- كلام فلسفي لا واقع ملموس له.

– سآتيك من التاريخ بدلائل وعِبَر كثيرة تؤيّد كل ذلك.

ضحك «ماجد» قائلًا:

– لا عليك أصدّقك.

ربتَ «مصطفى» على كتفه بحنُوّ وقال:

– رزقك الله السّعادة في الدّارين.

وأخرج مصحفه ليقرأ فيه بصوتٍ رخيم خافت بلا إلحاح أو إصرار على إثبات صحة آرائه.

وبعدها بأسبوع واحد، وبمفاجأة مدهشة، وجد نفسَه برفقة «مصطفى» في شركة الاستيراد والتصدير التي وصل إليها «ماجد» بوساطة عمّه، عانقه «مصطفى» كأنّما هما صديقان حميمان يعرف كلٌّ منهما الآخر منذ أمَد، وبدأت الصحبة والصداقة الحقيقية التي وصلت به إلى النهاية الدامية.

قطع عليه أفكاره طرقاتُ الوالدة التي تخبره بأن الإفطار جاهزٌ، قام إليها متهاديًا وهو يبتسم لها بودٍّ ويكادُ أن يحتضنها راغبًا في عدم مغادرة هذا الحضن أبدًا.

***

عبْرَ الشاشة الخضراء المميّزة لبرنامج «واتس آب» تدافعت الكلمات بين «سارة» و»ماجد»، والتي أخذت تحدّثه عن

الخريطة التي أرسلها لها قبيل إلقاء القبض على خال «معتز»، كانت تقول له:

- هذه الخريطة غيرُ مكتملة، أو هي ورقة ضمْنَ الكثير في ملفّ كبير.

- لماذا؟ الوثيقة بها الأشياء التي لو جمعناها سنصلُ إلى الكنز، وقد وصلنا بالفعل لأوّل شيء فيها، وهو شفرةٌ غامضة على جدران المقابر، تلك التي قمتَ بترجمتها أنتَ من قبل، وذلك الرمزُ الغريب غيرُ قابل للترجمة، ليست هذه أول مرّة يصادفني فيها، لقد وجدتُه في أغلب صور البرديات وجدران المقابر التي جمعتُ صورها عبْر البحث بشبكة الإنترنت.

طالَ صمتها، وكأنها تحاول استيعاب كلامه، ظلّ متربّصًا ردّها الذي طال انتظاره، وأخيرًا بعد ربع الساعة ظهر المؤشرُ الدالّ على بداية كتابتها للردّ الذي جاءه يقول:

- الأمر ليس كذلك.

- هل احتاج هذا الردّ منك كلّ هذه الغيبة!؟

- كنت أعدّ لنفسي كوبًا من الشاي!

كظمَ «ماجد» غيظَه، فهذا هو الطبيعي مع برامجِ التواصل الاجتماعي الجامدة، لا يوجد بها روحٌ وتفاعلٌ وجداني

وروحيّ، ويتمّ تفسير الكثير من التصرفات التلقائية والطبيعية بأكثر ممّا تحتمل، أو على غير الوجه الذي أريدت به، ولكنها أصبحت مِن ضرورات الحياة البديهية، فقال لها:

– حسنًا، ما هو ظنّك؟

– ليس ظنًّا، لقد قمت بدراسة الأمر، هناك أقوالٌ كثيرة تتردّد الآن عن أنّ فكَّ شفرة حجر رشيد لم يكنْ سليمًا بنسبة مائة في المائة، ولهذا قد يكون ذلك الرمزُ الغامض شيئًا تافهًا لا دلالة له، كأنْ يكون مجرد فاصلة بين الكلام، دعكَ من كلّ هذا، لو قلت لك بأني سأعْلِمك بطريقة إعداد طبخةٍ جديدة مدهشة، وأعطيتك المقاديرَ فقط، هل هذا كافٍ!؟

– لا بالطبع. لا بدّ من شرح طريقة الإعداد.

– رائع، هذه الوثيقة تعطينا المقادير وفقط، أخبرتنا عمّا يجب الحصولُ عليه، ولكنْ لم تخبرنا كيف سيساعدنا ذلك في الحصول أو الوصول إلى الكنز.

– أعتقد لو حدث واسْتطعنا تجميعَها؛ سنتمكن من استنتاج أو ربط بعضها ببعض للوصول إلى تلك الطريقة.

– هذا بافتراض أنك أكثرُ عبقرية عن كلّ مَن رأى أو كتب هذه الوثيقة منذ ما يقرب من قرن!

- حسنًا، كيف سنعرف أو نصلُ إلى بقية ذلك الملف؟

- حتمًا ليس بالنقاش على «الواتس آب»، لا بدّ أن تأتي للقاهرة وتمكثَ بها حتى نصل إليه.

- كيف هذا وأنا محاصَرٌ هنا لا يمكنني حتى الخروج من منزل صديقي!؟

سنأتي بسيارة «معتز» لأخذك بعيدًا عن أعين المتلصّصين، فلتعدّ حقيبتك سنكون عندك بعد ساعتين.

***

انسابت سيارة «معتز» برفْق عبْرَ الشوارع الجانبية المتفرّعة من الشارع الذي تقيم فيه والدة «مصطفى»؛ حيث كان يختبئ «ماجد». كان الأخير مستلقيًا على المقعد الخلفي حتى لا يظهر لأي متربّص، وبالأمام «معتز» يرتدي نظارةً سوداء رغم الإضاءة الشاحبة ليلًا، وغطاء رأس تعمّد أن يميله جهة النافذة، وبجواره «سارة» تقود السيارة بدلًا عنه، وقد أنارت مصابيحَ السيارة العالية لكي تغشي بصرَ مَن ينظر إليهم من الأمام، فمَن سينظر لسيارة تقودها فتاة على حسب ظنّهم!؟

ولكن كلّ ما فعلوه كان هو جاذبَ الأنظار الرئيسي إليهم، فكمْ سيارة تسير مُضاءة بالأنوار المبهرة ليلًا مثلهم هكذا؟!

وكمْ فتاة جذابة تقود سيارةً بمدينة الفيوم؟! لذا عند عبورهم مدخل المدينة، رفع أحدُهم جوّاله ونقل مواصفات السيارة لمحدّثه على الطرف الآخر، وبعد عبورهم مدخل مدينة سنورس بطريقهم إلى القاهرة تنهّد الجميع بارتياح؛ ظنًّا بأنّ الخطر قد زال، وكأنما شعرت «هدير» باقتراب «ماجد» منها في هذه اللحظة، فقد ارتفع رنينُ جوّال الأخير مضيئًا باسمها، فردّ عليها محاولًا أن يطمئن لهفتَها وخوفها عليه، ضاجرًا من عبارات الشّوق التي تتلفّظ بها، وعقب إغلاق الخطّ معها كانت أضواءُ إحدى السيارات قد اقتربتْ منهم، وزادت سرعتُها أكثر حتى أصبحت بمحاذاتهم، وإذا بالجالس جوار النافذة المقابلة لـ«سارة» يهتف بها وهو يشير إليها لتتوقّف، صرخ بها «معتز» وماجد بالامتثال لأمره خوفًا من بدء إطلاق النيران، ولكنها لم تستجبْ لهم ومالت بالسيارة نحوهما، حاول قائدُ السيارة تفادي الصدمة معها فإذا به يحتكّ بالجدار القصير الفاصل بينه وبين الطريق المعاكس لهم، وعندما اعتدل في مسيرته التي اختلتْ بسبب ذلك الاحتكاك؛ كانت «سارة» قد سبقته بالكثير، فوصلَ ذلك بجنونه إلى الذّروة، أصبحت معركةَ كرامة الآن بعد أن هزمته فتاة ظنّها ستبكي رعبًا عندما ترى تهديدَهم، فانطلق بأقصى ما لديه، وحتى

لا يفسد سيارته بأكثر ممّا هي تعمّد أن يحاذي السيارة هذه المرّة جهة اليمين، وأصبحت السيارتان تنطلقان بسرعة لا يفعلها عاقلٌ بهذا التوقيت من الليل، وإذا بهما يقتربان مِن سيارة صغيرة تتهادى أمامها، لم ترفع «سارة» يدَها عن بوق السيارة وهي تخفض وتزيد الإضاءة التي انْتبه لها قائدُ تلك السيارة، وعلى حسب المتعارَف من قواعد القيادة بالطرق السريعة اتّخذ الجانبَ الأيمن ليفسح لهم، وبهذا أصبح معوّقًا للمطاردين فقط بمسيرته أمامهم، ولكنّ المطارد لم يهنْ ذلك مِن عزيمته فزاد سرعتَه بأكثر ممّا كانت، وقد قرّر ألا يخسر هذه الجولة مهما حدث، واندفع بسيارته ليصطدم بالجانب الأمامي الأيمن حيث يجلس «معتز»، كانت الصدمة قوية ارتفع على إثرها صرخةُ «معتز» العالية بسبب الألم المنطلق من ساقه، وصرخة «ماجد» من الرّعب الذي احتواه، وصرخة «سارة» التي حاولت التمسّك بمقْود السيارة وعدم فقدان التحكّم به بعد أن مالت بقوة واندفعت نحو الفاصل توشك أن تعبرَ أمام السيارات القادمة بالطريق المقابل، وفي نفس الوقت كانت سيارة المطاردين قد اصطدمت بمؤخرة السيارة الصغيرة صدمةً هشّمت حقيبتها الخلفية بالكامل، ونالتْ من مقدمة سيارتهم التي بدأ الماءُ ينساب منها بكثافة، بينما ارتفع

إطار سيارة «معتز» الأمامي والأيسر فوق الفاصل القصير بالفعل، وكما تذكُر «سارة» جيدًا من قواعد القيادة الآمنة وقتَ حدوث انفجار أو اصطدام الإطار الأمامي؛ يجب ألّا تضغط الفرامل مهما حدث وأن تصبّ كلّ تركيزها في التحكّم بالمِقْود وفقط، لهذا ودون فقدان لذلك التركيز عدّلَت من اتجاه المِقْود ليهبط الإطار مسرعًا إلى مسارها مرة أخرى، كانت معجزة لها أن السيارة ما زالت تنطلق دون أن تنقلب أو ينفجر الإطار، فزادت سرعتها وأنفاسها تتسارع بقوة، ولكن ما جعلها تبدأ في الانتظام أنّ أضواء سيارة المطاردين آخذةٌ في الابتعاد بسرعة، وذلك بسبب توقّفهم عقب تحطم خزان المياه المبرّدة للمحرك، وبعد ساعة من الهروب المغلّف بالترقّب والخوف الشديد كانوا باستقبال إحدى المستشفيات الخاصة والشهيرة للكشف على «معتز» الذي تبيّن إصابة ساقة بكسر مضاعَف يستوجب تجبيرها وبقاءها داخل الجبس ما لا يقلًّ عن ثلاثة أسابيع.

***

مرَّ يومٌ كامل محمّل بكلّ مشاعر الخوف وترقّب الأسوأ، «ماجد» ومعتز يقيمان في شقة الأخير التي يعدّها للزواج

بـ«سارة» بعيدًا عن بيت الأسرة التي أقنعها بصعوبة أنّ الحادث كان بسبب سوء قيادة «سارة» دون أي تهديدات من آخرين، وأنه يفضّل المكث برفقة «ماجد»، الذي جاء معه خصّيصًا من الفيوم، فرغم الكسرِ المضاعف إلّا أنه يمكنه الحركة البسيطة وخدمة نفسه، وزيادة في الاحتراز تخلّص كلٌّ منهما من خط اتصالاته، واشترت لهما «سارة» خطوطًا جديدة.

نظر لها «ماجد» بإعجاب وامتنانٍ بالغَيْن قائلًا:

- لقد أنقذت حياتنا جميعًا بما لا نستطيعه نحن.

ابتسمت قائلة :

- أنا نَفْسي لم يخطر ببالي قدرتي على ذلك.

همّ أن يجاملها، ولكنّها وقفت وأشارت إلى لون الصالة التي يجلسون بها قائلة له:

- بالله عليك يا «ماجد»، هل هذا اللّون القرمزي غيرُ مناسب للصالة.

لأوّل مرة ينتبه «ماجد» إلى لون الحائط والزهور التي تظهر به كعلامة مائية خافتة، كانت ألوانًا حالمة رقيقة، فقال:

- مطلقًا، أراه جذابًا جدًّا.

نظرت نحو «معتز» الذي تمتدّ ساقه اليمني أمامه على أحدِ المقاعد القصيرة، وقالت له:

– ما رأيك الآن؟! لقد كنت أحلمُ بذلك منذ مراهقتي.

قال «معتز» بعتاب:

– هذا اللّون الرومانسي يناسب غرفةَ النوم أكثر، هنا استقبال الضيوف غالبًا، والأفضل لونٌ جادّ مريحٌ للعين.

وضعت يديها بوسطها، وقالت:

– هذه شقتي سأمكثُ بها عمري كله، وهؤلاء الضيوف لن يرَوْ منها حتى بضعًا من ألف ممّا سأراه، فأيهما أحقّ بالراحة والرضا.

زمّ «معتز» شفتيه، وأشاح بوجهه دون ردّ، في حين ذهبت هي إلى مفاتيح الإضاءة وأغلقتها، لتضيء أخرى موزّعة بالأركان أصدرت إضاءة ملونة ومتقلبة بتدرّج مُتسارع، وبعد قليل انطلق صوت الموسيقى المبالغ في الارتفاع من جميع الأرجاء، وجاءت إليهم «سارة» وهي تهزّ كتفيها على أنغام تلك الموسيقى، ورفعت صوتها قائلة:

– صالة الديسكو هذه كما يسمّيها صديقك، أليست أفضلَ مسرحٍ للرقص مع السّماعات التي وزعتها بعناية لتعطيك كلّ هذه المؤثرات؟

كان «ماجد» يتمنّى أن تريه كيف ستتراقص على تلك الأنغام، ولكن أرادَ مجاملة صديقه، فهتف قائلًا:

- الأصوات عالية جدًّا، تكاد أن تصمّ آذاننا!

وبجهاز التحكّم عن بُعدٍ الذي تحمله قامت بتغْيير الأغنية لأخرى هادئة، وخفضت الصوت، وقالت:

- ما رأيك الآنَ في الرقص البطيء الرومانسي؟

نظر «ماجد» إلى صديقه المتبرّم، وهمَّ أن يهتف به قائلًا:.. تصدّق بالله أنت ابن جزمة! ولكن قال بدبلوماسيّة:

- حتمًا.. هناك حلّ وسط يجب أن تتفاهما حوله.

ضحكت «سارة» وقالت:

- أيّ حلّ وسط؟! ألا ترى بأني قد فعلت ما أريد!

وبجهاز التحكّم أغلقت كلَّ شيء، وأعادت الأنوار كما كانت، وفي ثوانٍ انسخلت عن شخصيتها العابثة، وبمنتهى الجديّة قالت:

- بالطبعْ معك حاسوبك المحمول، سنبدأ الآن العملَ الجدّيّ، أعتقد بأن التهديدات قد زالت عنّا الآن.

منبهرًا بقدرتها على ذلك، أخرج «ماجد» حاسوبه، وبدأ معها استعراض الملفات لترتيب الخطوات التالية.

تناولت «سارة» منه حاسوبَه، ووضعته على حجرها، وفتحت الوثيقة الإنجليزية وقالت:

- الوثيقة تتحدّث عن لجنة تمّ تشكيلها للبحث عن العناصر التالية: جملةٍ متكرّرة على عددٍ من المقابر الفرعونية، تكون هذه الجملة خارجَ السياق بحيث تكون نشازًا وسط الكلام المكتوب، سكينٍ فضيّ يحمل الاسم الخالد، شلالٍ مائي يتشكّل ظلّ الماء المنسكبُ فيه بزاوية مقدارها ٩٠ درجةً في تمام التاسعة صباحًا، فرضِ الحراسة المشدّدة على قدس الأقداس يوم الحادي عشر منَ ديسمبر، بقرةٍ صفراء وجدْيٍ ملتفّ القرون وقطةٍ سوداء، وبعدها يتمُّ اعتماد ميزانية استخراج كنز قارون من المَلِك جورج الثالث مباشرة.

نظرت له رافعةً حاجبيها وقالت :

- والآن أخبرني عن خطّتك، ولمَ بدأتَ بأصعب الأمور؟

تنحنَحَ «ماجد» قائلًا:

- ظننْتُ أنّ هذه العبارات على جدران المقابر بعد تجميعها سيتمّ تشكيلها في جملةٍ مفيدة بها الشرحُ المطلوب لبقية العناصر الغامضة؛ وبهذا تكون كأنها الخريطة المطلوبة.

- ومَن أدراك بأنهم لمْ يفعلوا ذلك ووصلوا إلى الشرح بالفعل؟

– لو تمّ اكتشاف الكنز لضجّت به الصحافة لقرنيْن تاليَين لنا كذلك وليس بعهدهم فقط، وبالتالي عدمُ وصولهم إليه يؤكد فشلَهم في كلّ شيء.

– كلامٌ منطقي، ولكن لمَ لا يتمّ البناء على ما وصلوا إليه؟

– وأنَّى لنا الوصولُ إلى ذلك!؟

– كما أخبرتك سالفًا، بالحصول على بقيّة الوثائق المرتبطة بهذه الوُرَيقة التي لولا ذكْر كلمة كنز قارون بها ما علمت أبدًا عمّا تتحدث.

اعتدل «معتز» وهو يسحب ساقَه بألم قائلًا:

– هل سنبحثُ عن السّمك بالماء؟ لا نعلم ما هي تلك الوثائق، ولا عددها، ولا أين هي الآن، فكيف سنصل إليها؟!

ابتسمت «سارة» ببساطة وقالت:

– الأمرُ أبسط ممّا تتخيل، فليستعدّ «ماجد» للقيام برحلة تحتاجُ إلى الكثير من رباطة الجأش، وسوف آتيك بالإجابة عن كلّ ذلك غدًا.

***

صعدت «سارة» درجَ تلك العمارة العتيقة بحي السيدة زينب بخطوات متمهّلة وهي ترفع بصرَها لأعلى باحثةً عن التفاصيل الدقيقة للأعمال المِعْمارية وزخرفتها اليدوية، والتي يصعب مماثلتُها الآن رغم التقدّم التِّقَني الكبير، وخلفها «ماجد» ينشغلُ بتفاصيلَ أخرى أكثر دقّة وجاذبية، فقد كان يستعرض مفاتنَها التي لم يستطعْ مقاومة التطلع إليها، رغماً عنه اقتحمته الآية الشريفة القائلة {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم} وخَزَه تأنيبُ الضمير وهو يرى نفسه أكبر مخالفٍ لذلك التوجيه الإلهي ويخون أقربَ أصدقائه، كان في السابق يرى أن غضَّ البصر شيءٌ يرفع قدره أمام نفسِه ويمنحه سكينةً وراحة نفسية كبرى، كان يستعين على ذلك بنقطةٍ يذكّر نفسه بها مرارًا؛ ألا وهي أنّ القصاص في هذا الأمر يكون عاجلًا، فلو فعل وتتبّع عورات الآخرين ومفاتنهم؛ فحتماً سيكون هناك مَن يتتبّعه باحثًا عن عوارت ومفاتن زوجته.

ابتسم عندما وصل إلى هذه النقطة، وهو يتذكّر مشهد «هدير» قبل كلّ خروج مِن شقتها، وهي تنثني للأمام مُباعدة ما بين ساقيها لتنظر بينهما من خلال ردائها الثقيل، وتسأله قائلة:

– هلِ الضوءُ النافذ من خلال العباءة يكشف ظلّ ساقي؟

ولو أجابها بنعم؛ ترتدي آخرَ أسفله أو فوقه مهما كانت درجة الحرارة، حتى تتيقّن من انْعدام ذلك، أنَّى لزوجة كهذه أن يطول أحدُهم منها شيئًا؛ لذا مطمئنًّا أطلق العنانَ لبصره قائلًا له: خذْ كلّ ما سمحت لك «سارة» بالحصول عليه، وسوف نستغفرُ بعدها عنْ هذا الذَّنب الصغير.

- هل كان مِن الصعب عليهم إنشاء مصعد إلكتروني؟ فبئرُ السلم كبير، ويسمح بذلك.

أخرجته «سارة» مِن صولاتِه الآثمة عبْر ثنايا جسدها بعبارتها هذه، انتفضَ كأنما قد أمسكتْ به مُتلبسًا بذلك، رغم أنها نطقتْها دون أن تلتفت إليه مستكملةً رحلة الصعود، فهزّ رأسه وقال:

- الطابق الرابع ليس بعيدًا.

- حسنًا، تذكّر دورك جيدًا.

ابتلع «ماجد» ريقه بصعوبة، مطلوبٌ منه الآن الكذب المنَمّق مع ثبات انفعالي لم يجرّبه مِن قبل، هل سينجح في ذلك!؟ فقال لها:

- أخشى أن يفتضحَ أمرُنا بسببي أنا، فلمْ أفعلها مِن قبل!

توقّفت دفعة واحدة وهي تستدير إليه، وكادَ أن يصطدم بها، ولكن ما دفعه للتماسك فقط تأنيبُها له لو فعل، فاكتفى بشذراتِ عطْرها التي نالتها أنفُه، في حين قالت له:

- الزم الصّمتَ وافعلْ ما قلته لك وفقط، هل سأعيدها عليك كثيرًا؟!

هزّ رأسه موافقًا، وتبعها حتى باب الشقة التي ارتفع رنينُ جرسها إثر ضغط «سارة» على زرّه. بعد قليل، فتح البابَ شابٌّ في مقتبل العشرين من عمره، نظر بانبهار لجمال «سارة» وأناقة ملبسها، وارتبك بعد أن طالَ تطلّعه فانتزع نفسه من انبهاره وقال بتردّد:

- نعم، مَنْ حضرتك؟

ابتسمت «سارة» مدركةً أثر هذه الابتسامة عليه، وقالت:

- أنا «سارة محسن» صحفية بجريدة أخبار اليوم.

مرتبكًا مأخوذًا بسحر بسمتها قال لها:

- أهلًا بحضرتك.

هزّت رأسَها بدلالٍ قتلَ كلّ ما تبقّى من تفكير منطقي لديه، وقالت:

- هل يمكنُنا الدخول.

أفسح الطريقَ وهو يقول بسرعة وارتباك:

- طبعًا، تفضلي حضرتك.

دخلت مباشرة وهي تتطلّع إلى كل التفاصيل البسيطة التي تظهر أمامها، والتي توحي بأنّ هذه الأسرة تنتمي للطبقة المتوسطة، وأنّ هذا العقار غالبًا يتبع نظامَ الإيجار القديم؛ والذي لا يتعدّى جنيهات قليلة رغم فخامته وقيمته الكبرى، تبعها الشابّ وهو يقتنصُ منها كلَّ ما سبقه إليه «ماجد» القادم خلفه بعد أن أغلقَ الباب الذي نسيَه الشابّ ونسي الدنيا كلها؛ فقد تاه عن الوجود غارقًا في بحر جاذبية «سارة» التي انتقت أفضلَ كرسيّ مريح ويكشفُ لها الكثيرَ وجلست عليه واضعةً ساقًا فوق الأخرى، وتبعها الشابّ جالسًا على الكرسي المقابل لها وهو يقول:

- بماذا تأمرين حضرتك؟

محافظةً على أكبر قدرٍ مِن سحرها قالت:

- هل أنت وحدك؟

- أمّي بالمطبخ.

أرادت «سارة» الفوزَ بغايتها قبل ظهور الأمّ التي حتمًا ستفسد الكثير، فقرّرت الدخولَ مباشرة إلى عمق المطلوب، فقالت:

- نحن نجري تحقيقًا صحفيًّا عن شقيقك «نجاتي» عليه رحمة الله، فقد كان موظفًا مثاليًّا بالمتحف المصري، وقد بذل حياته ثمنًا لهذه المثالية.

هزّ الشاب رأسَه بأسى قائلًا:

- عليه رحمة الله.

- أخبرني بموجَزٍ سريع عنه.

أخذ الشابّ يتحدث عن تفوّقه في دراسته، وتوظّفه في المتحف المصري بلا وساطة، وحبّه للحضارة الفرعونية الذي فاق الوصفَ لدرجه أنه كان لديه موسوعة خاصّة به، كتبها بنفسه عن بعض الاكتشافات وصل إليها بالبحث والعمل بالمتحف.

هتفت «سارة» قائلة:

- رائع جدًّا، يمكننا نشر هذه الموسوعة باسمه الآن عندنا في إصدارات أخبار اليوم.

بنفس الأسى قال:

- للأسف؛ لقد سرقت حين مقتله.

خبطت «سارة» بقبضتها على مسندِ مقعدها، لقد كانت قابَ قوسين أو أدنى من الوصول لكلّ شيء، فحتماً هذه الموسوعة بها خلاصة بحث الرجل خلف تلك الوثائق المنشودة، ولكن تذكّرت كيف أنّ النسخ الإلكتروني يمكنُ الاحتفاظ به في أكثر مِن مكان وبأكثر من طريقة، فقالت له:

- ولكن قد يكون هناك نسخٌ منها على حاسوبه أو حاسوبك أنت.

- للأسف، اتصف «نجاتي» بعدم منح ثقته لمخلوق، فكان يحمل كلّ شيء بحقيبته ذهابًا وإيابًا، وقد سرقت الحقيبة وبها كل أشيائه الثمينة من حاسوب ووثائق وذاكرة فلاشية، وغيره.

أدركت «سارة» فشلَ المهمة التي جاءت لأجلها، لقد كانت تعتزمُ من البداية الدخولَ على حاسوبه ونسخ كلّ ما هو هامٌّ به، هذه الزيارة كانت دراسة ميدانية لمعرفة طرق الوصول للحاسوب وفقط، وبعد أن تصاعدت آمالها للذورة في بداية حديثها مع كتلة الشَّبق الجالسة أمامها، ماتتْ تلك الآمال وانسحقت تمامًا، همَّتْ أن تسأله سؤالين لا معنى لهما حتى تغطّي جوانب جولتها الصحفية المزعومة، ولكنْ ظهرت الأمّ أمامها وهي تنظر لها بدهشة مُستنكرة وقائلة:

- مَن هذه يا أحمد؟!

انتفض أحمد واقفًا وقائلًا:

- الأستاذة «سارة» صحفيّة في الأخبار.

زاد ارتفاعُ الحاجبين المستنكرين، وقالت لها بتقزّز:

- اعتدلي في جلستك يا بنيتي لا يصحُّ مظهرك هذا.

اعتدلت «سارة» بسرعة، وخفضت ساقها عن الأخرى، في حين التفتت السيدة إلى ولدها قائلة له:

- كيف تجالسها وحدَك هكذا؟!

توقّف «ماجد» عن مطالعة صورة «نجاتي» المعلّقة بحجم كبير يظهر مدى وسامته، وتنحنَحَ بقوة ليظهر وجودَه معهم، فنظرت نحوه وقالت لولدها:

- ومَن جوال البطاطس هذا؟!

رفعَ الشابّ كتفيه دلالةَ عدم معرفته، في حين قال «ماجد» بغيظ:

- أنا المصوّر الصحفي حضرتك.

أشارت السيدة نحو الباب قائلة:

- حسنًا، لا نريد صحفيّين بعد اليوم، يكفى ما حدث لخطيبة المرحوم في آخر مرّة.

وقفت «سارة» وقالت:

– كفى إهانة يا أمي سننصرف، وسبقت «ماجد» إلى الخارج وتبعها الأخير وقد فقدَ تركيزَه وتاهَ بصرُه عنها هذه المرّة بعد وصفه بالجوال لمصاحبته إياها!

***

فتحت «هدير» بابَ شقتها برفق ومدّت يدها لزرّ الإضاءة القريب لها، وما إن انتشر الضوء أمامها كاشفًا لها تفاصيل شقتها التي تحفظها عن ظهر قلب حتى اجتاحها اطمئنانٌ وراحة قلبية، شعرت بأنها قد عادت لموطنها بعد طول غياب، استقرّت ذراتها بموضعها، فرغم أنها كانت في بيت أبيها تنعَمُ بالتجرّع من حنانهم ورعايتهم واهتمامهم بها؛ إلّا أنها كان يداخلها شعورٌ بأن كلّ هذا مؤقت وإلى حين، أمّا الآن بمجرد خطوها إلى شقتها وجدت مُستقرها ومآلها، فهنا حياتها الأبدية حتى يتوفّاها الله.

رغم تنبيه «ماجد» عليها بعدم العودة حتى المجيء لصحبتها، إلّا أنها اكتفت بالأيّام الخمس التي قضتها هناك، وقرّرت العودة قبل أن يتساءل البعض عن سبب طول الزيارة هذه المرّة، فلن تستطع الإجابة عليهم، فـ«ماجد» لم

يمنحها عذرًا واضحًا لهذه الغيبة أو ذلك السفر الذي ذهب إليه بالقاهرة. جلست على المقعد وجفَّفت عرقًا وهميًّا عن جبهتها، وتحسّرت على الأيام السالفة حينما كان يخطّط معها ما سيفعله في الغد، ويعود مثقلًا بلهفة كبرى إليها ليقصّ عليها كلّ شاردة وواردة، هي تلتمسُ له المعذرة في الشّرخ الكبير الذي أصابه منذ عامين، والذي نالَ من قطاع كبير إن لم يكن قدْ نالَ مصر بأكملها، ولكن للأسف آثار هذا الشرخ طالتها وبدأت مشاعرُه تخفت كثيرًا نحوها، تشعر أنه لا يحافظ عليها إلّا لبقايا طُهْر وتديّن عنده، ولكن الاضطراب الذي طاله ودفعه لطلب أجازة طويلة مِن عمله والإنفاق من عائد الوديعة الكبيرة التي يحتفظُ بها لدى أحد البنوك الإسلامية، وخروجه الكثير دون معرفتها بهدفه؛ تزيدها حيرةً في كيفية التعامل معه، ما زالت تثقُ بأن معدنَه الطيب يحتاج فقط لوقت حتى يعودَ لسابق عهده، وحتى تمرّ هذه الأزمة هي في حاجة إلى حدث كبير قد يكون السببَ في نقطة التحوّل الكبيرة له، ولا تجد ًأكبرَ من الإنجاب، وهذا هو هدفها الأسمى الآن لتنتشلَه من السّقم الذي ناله.

قامت ودخلت غرفة نومها ونظرت إلى ملابس نومه المعلّقة على المشجب، شعرت بالحنين والاشتياق الكبيريْن إليه، أخذت تتشمّم قميصه بودٍّ وتضمّه إليها عسى أن يعود

صاحبُه ليطفئ نارَ اشتياقها إليه، حاولت الاتّصال على جوّاله لتردّ عليها تلك الفتاة القميئة مخبرةً إياها بأنه مغلَق أو غيرُ متاح، أين يمكن أن يكون الآن؟! حتماً برفقة «معتز»، رقم جوّال خطيبة الأخير مسجَلٌ عندها ببرنامج «الواتس آب» بعد أن أرسلت إليه الصور التي طلبها منها، ذهبتْ إلى البرنامج لتحصل على الرقم، فتحت الرسالة الحاويةَ للصور لتجد بأنّ صورة «سارة» متألقة بالإطار العلوي، لم تقاوم ذهابَ أصبعها نحو تلك الصورة لتفتحها بشكلٍ كبير وكلّي، وإذا بها أمامَ كتلة من إعجاز الخالق، فقد أحسن خلقها بأفضل ما يكون، تذكّرت مقولة «ماجد» لها بأنّها أجمل «سارة» في الوجود، اكتشفت أنه لم يكنْ مبالغًا، ولكن إذا كانت «سارة» هذه بملبسِها هذا وبمشهدها الذي يظهر فيه الدّلال وتعمّد إظهار فتنتها؛ إذا كانت برفقة «ماجد» فهو في فتنةٍ كبرى حتى وإن كانت هي مخطوبة لصديقه، أكلتِ الغيرةُ قلبها وهي ترى في مخيّلتها ماجدًا يجالسها الآن ويضعُها في مقارنة معها. أرادت الخروجَ مسرعة من مشاعرها السلبية فضغطت زرَّ طلب رقمها، ولكن خابَ ظنّها واشتعلت المعارك بداخلها أكثر ممّا كانت؛ فقد ردّت عليها «سارة» لتخبرها بأنه كان برفقتها وقدْ أوصلته إلى شقّة «معتز» منذُ قليل، وأنها الآن تقود السيارة وسوف ترسل لها رقمَه الجديد فوْرَ وصولها!

لقد كان برفقتها وحده، وله رقمٌ جديد تعرفه «سارة» قبْلها، يبدو أن الأمر يتخطّى الاحتمالاتِ البسيطةَ بكثير!

زادت بداخلها الحيرةُ والشكوك، وتضاعفت الغيرة إلى حدٍّ غير مسبوق معها، كان قميصُه ما زال بيدها، شعرت برائحة عرقِه الكريهة تفوحُ منه فضمّته إلى بقية ملابسه المعلّقة بالمشجب، وألقت بهم في سلة الغسيل.

وإذا بطرقٍ عنيف يرتفع من باب شقتها لترتعد رعبًا على إثره.

***

صعد «ماجد» سلّم العمارة التي يقيم «معتز» بالطابق الثاني منها، كان ينطلق منتشيًا، وعقله لا يشغله سوى شيء وحيد، إنها «سارة».. أخذ يتخيّل كيف سيكون مآلُ الأمر لو ظلّ سعيُه إلى الكنز بدونها، حتمًا كان سيدور في حلقات مفرَغة دون الوصول لشيء، لديها عقلٌ تحليلي رائع، هذا بجوار مواهبها المتعدّدة والمتجدّدة، والتي ينبهر كلّ يوم باكتشافها، أخذ يستعيدُ حوارَه معها أثناء استقلال السيارة عقبَ الفشل الذريع الذي مُنِي به بشقة القتيل صاحب إشارة البداية لكلّ هذا الأمر، عند السيد «نجاتي» مرسل البريد الإلكتروني إليه،

ولكن «سارة» قلبت له الموزاين وأظهرت له ما فاته من فوز بتلك الزيارة، جملة سريعة قالتها الأم المكلومة وعبرتْ أذنيه بسرعةٍ دون اهتمام، في حين التقطت منها «سارة» طرفَ الخيط الجديد الذي يجبُ السعي خلفه، إنها خطيبة «نجاتي»، والتي قالت الأمّ أنها واجهت متاعبَ بشكلٍ أو آخر بعد الحادث، ممّا يعني بأن عندها الكثير، ومن المَنطقي جدًّا أن يكون لديها نسخة احتياطية من ذلك البحث أو الوثائق، لذا يجبُ الوصول إليها ومعرفة ما لديها، وحتماً سيقودهم ذلك إلى الكثير، وعندما تساءل كيف سيكون الوصول إليها، رفعت حاجبيها بتقوّس جميل، وقالت:

- بالانتظار هنا داخل السيارة.

- وما الذي سيحدث؟!

- سترى.

ظلّ بجوارها مترقبًا لخطوتها القادمة بفضول، والتي لم تفصحْ عنها، ولم يتجرأ للسؤال مجددًا عنها. طالَ الانتظار الصامت فنهشَه المللُ فعادَ بظهره للخلف وأغمض عينيه سارحًا بذاكرته وذكرياته التي طارتْ به رغماً عنه إلى ذلك اليوم.

كان جالسًا بالسيارة جواره ثاني أيام عيد الأضحى، و»مصطفى» يحاول ممازحتَه وإلقاء النكات التي تضحكه الواحدة تلو الأخرى، وكلما انطلقت ضحكته رأى السّعادة تشعّ من وجه «مصطفى»، كأنما ضحكاته مصدرٌ لبهجته هو، وعندما طال الانتظار سأله:

– لم تخبرني ماذا ننتظر هنا؟ ولماذا نقف في هذا الركن المظلم؟!

– سترى.

إجابة وافية جعلته يصمتُ منتظرًا عمّا ستسفر الأحداث! كان بمواجهته منزلٌ عبارة عن طابقين فقط، «مصطفى» يُمعنُ النظرَ إليه بين الفيْنة والأخرى، لقد كان يراقب المنزل لهدفٍ لا يعلمه، الطابق العلوي مُضاء الأنوار والأرضي مظلم تمامًا، فترى ماذا به؟! بعد ساعة، أضيئت أنوار الأرضي فانتفض «مصطفى»، وقال له:

– هيّا بنا، لقد حان الموعد.

لم يسأله عن أيّ موعد يتحدّث، وقرر معاينة الحدث معه.

فتح «مصطفى» حقيبة سيارته وتناول كيسًا أسودَ، وانطلق صوب المنزل برفقة «ماجد» الذي أخذت ضرباتُ قلبه تتزايد

مع اقترابه، وبدلًا من أن يتوجّها نحو الباب إذا به يذهبُ نحو نافذة قريبة تتسلّل الأنوار في خطوط قصيرة ومتوازية عبر خصاصها، طرقها بلطفٍ وبتتابع خاص، ووسط ترقّب «ماجد» الشديد فُتحت النافذة لتطلّ منها سيدة تلتحفُ السّواد وقد بلغت من العمر أرذَلَه، كان التجهّم يتشكّل عبر أخاديد وجهها المتجعّدة، ولكن ما إن دقّقت البصر ورأت «مصطفى» حتى علا البشرُ محيّاها ورحّبت به بلهفة وشجَن، سألها «مصطفى» عن حالها ومنحها الكيسَ الأسود مباركًا لها بمناسبة العيد، ودسّ بجوار الكيس مبلغًا لم يستطع «ماجد» معرفة مقداره، وفي رحلة العودة سأل «مصطفى» عن هذا الغموض، فأخبره بأنها سيدةٌ مسكينة تعيش على خدمة ولدها المقيم بالطابق العلوي، ويذيقها هو وزوجته العقوق والعذاب ألوانًا، ولكنها تتحمّل حتى تمرّ بها الأيام تقتات على فضلاته، ولهذا انتظر حتى أنهت أعمالَها عنده بأعلى وهبطت إلى مستقرّها ليمنحها عطيَّته من لحوم الأضحية، ولم يشرْ إلى المال الذي أرفقه بها.

– ها هو.

نطقتها «سارة» بفرحة انتزعتْه من ذكرياته، فنظر إلى بُغيَتها فوجد «أحمد» شقيق «نجاتي»، علمَ الآن ما هي خطتها، والتي

نجحت بقوة، وانصرفا بعد أن حصلت منه على رقم جوّال خطيبة «نجاتي». يا لها مِن «سارة»، كان قد وصل إلى باب شقة «معتز» فقال ناقمًا:

– كمْ أنت محظوظٌ يا «معتز» طوالَ حياتك، تعمل ببنك والآن تفوز بهذا الكنز!

أخرج المفتاح وأولجه بقفل الباب حتى لا يُجبر «معتز» على الحركة بإعاقته المكبّل بها. فتح الباب ببطء، وعندما خطا إلى الداخل، تجمّدت جميعُ عضلاته عن الحركة، فقط ارتفع حاجباه ذهولًا..

فقد كان «عبد العاطي» مع بعض الرجال الغِلاظ يجلسون حول «معتز»، وقد اتّجهت أنظارهم صوْبه بتمعّنٍ كبير، وأخيرًا نطق «عبد العاطي» قائلًا:

– أخيرًا جئت يا وجْهَ المصائب.

***

راقبَ «ماجد» السيارة البيجو الحمراء حتى غادرت الشارع تمامًا وانطلقت تجاه اليمين بعده، وأخيرًا تنهّد بارتياح لا مثيل له غير مصدّق لتلك المفاجأة التي انْغمس فيها منذً قليل، ظنّ بأن «عبد العاطي» سيُخرج سلاحًا من طيّات ثيابه

ويفرِغ خازنته بالكامل فيه، ولكن ما حدث كان النقيض، لقد كان آتيًا بعد بحثٍ مطوّل يتلمس النجاة عنده! فبعد إلقاء القبض على خال «معتز» الذي حاول الاتّصال بمَن يعرف مِن رجال الشرطة ولم ينجح، فقد انقطعت كلّ سبل الاتصال بشكلٍ عجيب، حتى أنّ الحراس لم يفلح معهم أيٌّ من الرشاوي الّتي اعتادَ على أنها تفتحُ له الأبواب المغلقة، وأخيرًا بمنتصف الليل فتحت زنزانته التي ما زال يتعجّب لمَ خصصت له وحده، ودخل إليه رجلٌ يرتدي الثيابَ المدنية، ولكن هيئته لا تدلّ على أنه أحدُ الضباط، وكما اعتاد الخال في المواقف الغامضة؛ فلتشترِ أنت من الآخرين ولا تبِعْ لهم شيئًا، لا تتحرّك أو تتكلم إلا بقدرٍ يَفِي بالمطلوب حسبَ القادم وفقط، وأخيرًا نطق الرجل وقال:

– تنتظرك قضية أمنٍ قومي كبيرة، ومَن تعرف مِن الضباط سيتطوّعون بضبط أركان القضية لتصبحَ على مقاسك وحدك أنت وشريكك «عبد العاطي».

رغم تعليمه المحدود، ولكن بخبرته الفائقة مع أنماط البشر، أيقن الخال أن هذا الرجل لم يأتِ في منتصف الليل ليخبره بذلك؟ هل يريد اعترافًا؟ ولكنْ علمه بصلاته الشرطية توحي بمعرفته كلّ شيء، وبالتالي فلا حاجة لاعترافاته، إذًا هذا الرجل جاءَ للتفاوض، فليمهّد له ذلك، فنطق قائلًا:

– ما المطلوب لتفادي ذلك؟

ضحك الرجل قائلًا:

– أنت بالذكاء الذي توقّعته، حسنًا فقط سنقوم بتغيير التحالفات، ولحسن حظّك ستكون للأفضل بالنسبة لك.

لم يفهم الخال مقصدَه، فصمت راجيًا التوضيح الذي لم يتأخّر حين استطرد الرجلُ قائلًا:

– أيهما أقوى لك، ضباط بالمباحث الجنائية أمْ بجهة سيادية؟

فهمَ الخالُ كلّ شيء الآن، فابتسم وقال:

– الأخيرة بالطبع.

ردّ الرجل له الابتسامة وقال:

– اتفقنا.

واستدار زاعمًا الانصراف، فهتف الخالُ قائلًا:

– كيف سأصل إليك؟

دون أن يلتفت إليه ردَّ عليه قائلًا:

– سلْ «ماجد» عن «عرفة».

وأغلق البابَ خلفه، وفي اليوم التالي أثبت المحامي بطلانَ جميع الإجراءات القانونيّة للضبط، وطالب بإطلاق سراح موكّله، فتمّ ذلك من سرايا النيابة بضمان محلّ إقامة الخال، الذي خرجَ يبحث عن «ماجد» فلم يجِدْه، فحاول الاتصال بـ«معتز» ابن شقيقته، وعلم أنه بشقّته الجديدة، فأرسل إليه «عبد العاطي» ليأتيه بخبر «عرفة» هذا، وبعد حصول الأخير على عنوان المقهى الذي يرتاده «عرفة» كلَّ صباح؛ انطلق برفقة صحبته المرعبة!

فهِمَ «ماجد» الآن تسلسلَ الأحداث، «عرفة» تبعهم بحاسته الاستخبارية يومَ رؤيته مع «معتز» وخطيبته، وتوصّل بطريقة ما إلى سرِّ المقبرة، وبدلًا من صنع قضية لا يتكسّب منها سوى قروش قليلة، قرَّر الثراء السريع بتلك المساومة؛ ليصبح شريكًا في جميع الأرباح العظمى التي ستنهمرُ عليه.

جلس «ماجد» بمقابلة «معتز» وضحك بقوة، وقال:

- هل كان هروبنا الذي أدّى لإصابتك هذه بلا داعٍ؟ المطاردة كانت لهدفٍ مختلف عن ظنّنا وقتها!

ردّ عليه «معتز» بتردّد قائلًا:

- الحادثة وقعت قبلَ التفاوض، وكان الهدف قتلنا وقتها بالفعل!

اضطرب «ماجد» وقال:

- وكيف عرفت ذلك؟

بتردّد كبير قال:

- لقد مكثَ معي ساعة كاملة قبل رجوعك وتحدّثنا فيها عن كلّ شيء.

اعتدل «ماجد» في كرسيّه، وقال باهتمام:

- كل شيء!!

هزّ «معتز» رأسَه أن نعم، فاستطرد «ماجد» قائلًا:

- وبماذا أخبرته عن رحلة كنز قارون!؟

هزّ «معتز» رأسَه بخجل، وقال بخفوت:

- كلّ شيء.

ضرب «ماجد» مسندَ كرسيه بقوة وغيظ، لقد أصبحت المعوقات أكثرَ الآن، لقد صار الشركاءُ أكثر ممّا يحتمل الأمر، بما فيهم «عرفة» كذلك!

لمْ يستطع لوْمَ صديقه، فلا يدري لو كان بموضعه بما سيخبره فوق كلّ ذلك، وبينما هو يحاول التفكيرَ في كيفية التصرّف السليم قبل أن يستفيق «عبد العاطي» مِن التعامل مع

«عرفة»، إذا بهاتفه يرتفع رنينُه برقم غريب، تعجّب وتساءل عن هويّة المتصل وكيف حصلَ على رقمه؟! همّ أن يرفض المكالمة بحرص، ولكن تذكّر بأنّ المخاطر التي كان يحذرها قد زالت، فردّ متسائلًا عن هويّة المتصل، فإذا بها «هدير» يفيض صوتُها بكلّ حنان ولهفة الدّنيا، كان في حاجة كبيرة الآن لمَن يطبطب على ظهره ويحتويه بالفعل، اعتاد قديمًا عند حيرته وعجزه أن يرتمي بأحضان أمّه؛ فينال الاطمئنانَ والراحة التي تؤهّله للتصرف السليم فيما بعد، وهذا ما يتلمّسه مع «هدير» الآن، لم يسائلها كيف حصلت على رقمه الجديد، ولكن ردّ عليها بأنه كذلك يفتقدُها جدًّا، فقالت له بلهفة:

- بالله عليك، لا تجعلني أبيتُ وحدي الليلة، لقد كدتُ أن أموت رعبًا منذ قليل، لمجرد قيام محصّل فواتير الكهرباء بالطرقِ على الباب.

في أحواله العادية، كان سينهمر عليها بكلّ عبارات اللّوم والتأنيب، وبصوتٍ يكاد أن يمزّق أسلاك الهاتف، فكيف خالفت تعاليمَه وعادت وحدها إلى الشقة؟! ولكنْ لأنه كان في حاجةٍ كبيرة إلى استراحة بالفعل، التمس لها العذرَ بأنها تجهل حقيقةَ المخاطر التي حاول تجنّبها، فأخبرها بأنه سيعودُ بعد سويعات لأجلها، فأغلقت «هدير» الخطّ وهي تشعر بسعادة الدّنيا كلها، في حين اتّصل هو بـ«سارة» مطالبًا

إيّاها العودة بالسيارة لصحبة «معتز» إلى بيت أهله بعد انقضاء سببِ عزلته ولسفره المرتقب، وأخيرًا جمع «ماجد» كلَّ أشيائه إلى حقيبته، وقال لـ«معتز»:

- هل تعلم أني أغبطك بقوّة على «سارة» هذه، لم أرَ فتاة بقوتها العجيبة تلك!

ابتسم «معتز» قائلًا:

- لو رأيتها قبلَ الحادثة ما كان ليخطر ببالك أبدًا أنها نفسها الآن.

منتبهًا باهتمام تساءل «ماجد» قائلًا:

- أي حادثة؟!

ارتبك «معتز» وكأنّما قد أدرك أنّ «ماجد» يجهل هذا الأمر، فقال بتردّد:

- حادثة سيرٍ تعرَّضت لها منذُ عام.

علم «ماجد» بكذبِ صديقه، وبهذا لنْ يجدي التساؤل عنْ كيفية أو ماهيّة التغيير الحادث لها، فقرّر تمضيةَ الوقت معه في أي حوارٍ آخر حتى مشرق الشمس مجدّدًا بظهور «سارة»!

***

الإضاءة الخافتة المحبّبة له تسود أركانَ شقته، رائحة اللافندر المفضل عنده تتسلّل إلى أنفه أينما ذهبَ فيها، وأخيرًا حضن دافئ محبٌّ له بإخلاص، كلّ ذلك أشعر «ماجد» بانتقاله من صراعات الدنيا كلّها إلى جنة المأوى والمستقرّ الآمن، تناول طعامها الشهي كأنما يتذوّقه لأول مرة، ولم يبخلْ عليها بابتسامة سعادة ورضًا بين اللّقيْمة والأخرى، وأخيرًا وبينما يسترخيان بالفراش وهُما أقرب ما يكونا لبعضهما البعض مِن حبل الوريد، ألقت برأسِها على صدره، وقالت له:

- لا حياة لي دونَك يا ماجد، أنت بالفعل كلُّ أنفاسي التي أختنق دونَها.

قبّل رأسها ولم يردّ، رفعت رأسها واستطردت قائلة:

- أريد مشاركتك في مشروعِك الجديد الذي تركتَ عملك لأجله.

تنهّد وابتسم بسخرية، وقال لها:

- وما الذي يمكنك تقديمه؟

اعتدلت جالسة وقالت:

- أخبرني عن المشروع وسوف أدْهشك، حتى الآن لا أعلمُ عنه سوى أنه سيجلبُ لك مالًا وفيرًا وفقط.

احتار كيف يفاتحُها، لقد تجنّب هذه المواجهة حتى لا تفسد تلك اللّحظة الهادئة والحالمة التي يعيشها معها، هل حقًّا ستتفهّم وتعينه كما تزعم؟

قرّر خوض الأمر فقد تدهشه بالفعل، فقال لها:

- أبحث عن كنز قارون!

اتساع عينيها وابتلاعُ ريقها بِصعوبةِ أجاباه بمدى صدمتِها وعدم تصديقها، شعر بها تبذلُ جهدًا خرافيًّا لتنطق بهدوء قائلة:

- هل كنتَ تؤجل البحثَ عنٍ سببٍ تأخر إنجابنا حتى تجدَ كنز قارون الذي طاله الخسفُ به وَبصاحبه منذ آلاف السنين!؟

أشار بأصبعه نحوها رافعًا حاجبيه في حركة مسرحية، وقال مازحًا:

- لأجل مشاعرك المضطربة وغيرِ المصدقة هذه؛ كنت أخفيه عنك.

سحبت نفسًا عميقًا، وضغطت على شفتيها وقالت:

- حسنًا، أعلم عنك حسنَ الخلق وثبات العقل واتزانه، وحتما لن تذهب خلفَ هذا الأمر؛ إلّا بعد الثقة المطلقة في إمكان ذلك.

هزّ رأسه موافقًا ومعجبًا بردِّها، وقال:

- ولكن.. أكملي!

ابتسمت رغمًا عنها وقالت:

- لن أقول لكن، فقط ضعْ لنفسك جدولًا زمنيًّا إن لم تتحقّق فيه غايتك، تعود لعملك وحياتك السابقة وعدم الجري وراء أيّ وهْم جديد.

التقط منها حكمَها على الأمر دون أن تدري بقولها عنه أنّه وهم، فهزّ رأسه وأدرك مدى حكمته في عدم مشاركتها سابقًا أو لاحقًا، فقال لها:

- هل علمت الآن أنه لا سبيل لمساعدتك إياي؟

قالت باهتمام:

- أعطني مهمة، وسوف أنجزها لك بلا كلل أو انتقاص.

- فقط، أسألك الدعاء.

- قلبي لا يكفّ عن الدعاء لك ليلَ نهار.

- حسنًا، فلنَنَلْ قسطًا من الراحة؛ فعندي غدًا عملٌ كبير بالقاهرة.

شعرت بالغيرة تحرقُ قلبها مجدّدًا وهي تستشرف المستقبل في مخيّلتها لتراه بصحبة «سارة»، ودّت لو تسأله عن سُبل مساعدة «سارة» له، وما الذي يميّزها عنها غيرَ جمال الخلقة، ولكن لعلمها بمدى تذمّره من اللّوم والإلحاح قرّرت تجنّب ذلك، فتركته ينسابُ إلى سباته برفقٍ حتى غرق في عالم أحلامه التي رأى فيها «عبد العاطي» برفقة «عرفة» يطاردانه بسيارة جيب، ويشهران أسلحتهما خلفه وهو يتمسّك بكرسيه في قوة، و»سارة» تندفع بالسيارة ذات اليمين وذات اليسار محاولة الإفلات منهما، وإذا برصاصة يراها قادمة بوضوح إلى منتصف رأسه، انتفض من نومه فزعًا وهو يشعر بأنفاسه على وشك الانقطاع، حمدَ الله أنه كان مجرّدَ حلم، طرق أذنه الدعاءُ الخالد لـ»هدير» وهي تقول: «ربّ هبْ لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء».

همّ أن يتقلّب في فراشه على جانبه الآخر ليكمل نومَه عسى أن يفوز بحلمٍ آخر جيّد مع «سارة»! نادته «هدير»، فامتعض لمعرفته بمطلبها المستمرّ بالقيام للصلاة، فردّ عليها باقْتضاب:

– نعم.

وكانت دهشته عندما قالت له:

- جروب «أفكار بنات مبدعات» على «الفيس بوك»، كيف يمكنني متابعة منشوراته بحيث لا تفوتني إحداها، بدون الدخول على صفحته خصيصًا؟

اعتدل جالسًا وهو يبتسم قائلًا:

- أليس «الفيس بوك» مقتلةً للوقت؟

جلست بجواره وقالت:

- مثله مثل كلّ شيء، حلالُه حلال وحرامُه حرام، والعاقل مَن يأخذ منه قدر الاستفادة دون خسارة.

ضحك قائلًا:

- رائع جدًّا!

تناول جوّاله، واستعرض أمامها كيف تجعل أي صفحة أو مجموعة صاحبة المنشورات ذات الرؤية قبل أي منشورات أخرى من أصدقاء أو غيره.

قبّلت كتفه شاكرة إيّاه، وعادت لصلاتها، في حين حاولَ هو الانغماس في النّوم مجدّدًا، وعندما فشل لم يجدْ بُدًّا من القيام لمشاركتها تعبّدها.

***

لا يدري كيف تتألّق «سارة» كلَّ يوم بملبس مختلف، لكلّ منهم رونقٌ خاص ويكشف بعدًا جديدًا من جمال جسدها ووجْهها، ولكن اعتاد على الانبهار المتجدّد معها كلّ يوم، لقد ظلّ طوال الطريق من الفيوم إلى القاهرة يتخيّل كيف ستبدو اليوم، وبالطبع كانت تفوق كلّ توقعاته. انطلقت بالسيارة من ميدان الرّماية حيث كانت تنتظره، بعد كلمات التّرحاب المعتادة قالت له:

- رائع أنك لم تتكاسل، فيجب التحرك السريع قبل أنْ يستفيق لنا «عبد العاطي» هذا.

- هل سيكون دوري هو المصوّر الصحفي كذلك؟

ضحكت باستهجان قائلة:

- سمعت بنفسك أنّ «أميرة» خطيبة الراحل «نجاتي» واجهت متاعبَ بشكلٍ أو آخر بسبب الصحفيّين، من الذكاء أن تتجنّب ذلك معها.

تذكّر مقولة السيدة ذلك بالفعل، فهزّ رأسَه موافقًا، وتساءل مجددًا:

- بماذا ستكون تمثيليتنا اليوم؟

رغم أنّ السيارة تنطلق بشارع الهرم المزدحم سعيًا إلى حي الدقي حيث تعمل «أميرة» بوزارة الزراعة؛ إلّا أنها نظرت نحوه مطوّلًا ورفعت حاجبيها وقالت:

- أخبرني أنتَ ما هو الأفضل؟

ارتبك «ماجد» وقد تذكّر طريقتَه المماثلة عندما يريد استحقارَ أفكار «هدير»، ولا إراديًّا أجاب عن «هدير» قائلًا:

- ثقتي بقدرتك على الفعل المناسب محَتْ أي أفكار عندي.

ضحكتْ ضحكتها القصيرة الساحرة المميّزة وقالت:

- أحسنت الردّ.

تفادت سيارةً كانت تميل نحوها يقودُها شابّ أرْعَن، زادت من سرعتها حتى سبقته، ثمّ مالت نحوه بسيارتها، حاول تفاديها فكادَ أن يصطدمِ بأخرى عن يساره، لولا أنها أبطأت سرعتَها لتفسح له المجالَ كي يتفادى ذلك الاصطدام، ثمّ رفعت له أصبعها الأوسط ليراه بمرآته العاكسة لها، والعجيب أنّ الشابّ زاد سرعته ليختفي تمامًا من مجالها، التفتت نحو «ماجد» وقالت له:

– نحن زملاء «نجاتي» في البحث الذي كان يعدّه، وقد كان «نجاتي» محتفظًا بالنّسخة الوحيدة لذلك البحثِ معه لمدى خطورته وخوفِه من تسرّبه، وفي النهاية دفع حياتَه ثمنًا لهذا البحث، وأقلّ وفاءٍ له بعد موته نشرُ هذا البحث باسمه قبل أن يتصرّف فيه السارقون، ونحن على استعدادٍ لمنحها كافة الضمانات لذلك.

– لكنّها خطيبته، وحتماً يحكي لها كلّ شيء، فكيف لم تسمعْ عنّا من قبل؟

– لضمان سريّة البحث الهامّ والخطير.

– فكيف استأمنها في النهاية على نسخة منه؟

– المعرفة على قدر الحاجة، يحتفظ بنسخة عندها دون الإفصاح عن التفاصيل، وكُفّ عن التساؤلات التي ربما لن يخطر ببالها أيٌّ منها، فموافقتها على المقابلة كانت سريعة وتلقائية، ممّا يوحي بأنها ليست بالعقليّة المركبة الصعبة.

وبعد قليل، كانت تجلس «أميرة» أمامهم بكافيتريا الوزارة، شابة في السابعة العشرين مستديرة الوجه، تكتسي بالسواد الذي يجعل بياضَه يزداد نصاعة، ويعلوها كلّ أمارات الحزن، ومع بداية الحوار معها اكتشفا بأنها ما وافقت على المقابلة إلّا

لأن اسم «نجاتي» طرق أذنها في مكالمة «سارة»، تنحنحت «سارة» قائلة:

- أعلم مدى المحبّة التي كانت بينكما، وأدرك عظمَ مُصابك، ولكن..

قاطعتها «أميرة» قائلة:

- وما أدراك بمداها!؟

بكلّ ثبات ردّت «سارة» قائلة:

- نطقه لاسمك بكلّ لهفة، ردّه على مكالماتك بمنتهى السّعادة، حلمه الدائم وترقّبه لليوم الذي يضمّك معه في بيتٍ واحد، وحديثه المستمر عنه وكأنه أقصى آماله في الدّنيا، اسمك الذي صار كلمة السّر لكلّ شيء يخصّه.

سالت دموعها قائلة:

- كأنك تتحدثين عني كذلك، يبدو أنكما كنتما قريبان بالشكل الكافي إليه بالفعل.

ابتسمت «سارة» بانتصار؛ لقد حازت الثقةَ التي تبتغيها، فقرّرت طرقَ الحديد وهو ساخن، فقالت لها:

- هل تعلمين ما الذي سُرق منه وقتَ الحادث؟

وسط نهْنَهتِها قالت:

– كما جاء في الصحف، وثائق هامة خاصّة بالمتحف كان يحافظ عليها من السرقة.

ببطء واهتمام قالت سارة:

– هذه الوثائق يمكن سرقتُها بأكثر من طريقة بعيدًا عن القتل، لم تكنْ هي الغرض الرئيسي، بل بحثُه الهام والكبير والذي كنا نعمل عليه سويًّا.

كفكَفَت دموعها وقالت:

– لقد أخبرني بالفعل عن هذا البحث.

– أخبرك فقط أم احتفظَ بنسخة منه عندك، فلنْ يجد مَن هي أفضل منك ليأتمنها عليه.

– عليه رحمة الله، عندما سألته عن تفاصيل هذا البحث كان ردُّه بأنه يجنبني الكثير بعدم معرفة أي تفاصيل كبيرة عنه، ولم أدرِ بأن هذا الكثير ربّما القتل، فقد كدت أنْ أفقد عمري على يدِ صحفيّين أجنبيّين مزعومين، ظنًّا بأن هناك نسخة من البحث عندي.

عادت «سارة» بظهرها للخلف متبرّمة، وقد أيقنت بأن هدفها ليس لدى «أميرة»، فأنهت الحديث سريعًا، وهي تعدها بأنهما سيظلّان على اتصال بها، وإن أرادت شيئًا فلا تتأخّر في مطالبتهما به.

وفي طريق العودة، وبعد طول صمتٍ نطق «ماجد» قائلًا:

- هل انتهى الأمر هكذا، وسنعود لطريقتي التي بدأت بها البحث؟

بكلّ استهجان قالت:

- كالعادة فاتك الكثيرُ من بين كلامها.

مستنكرًا قال:

- لا تقولي لي إنّها نطقت بكلمةٍ تشير إلى موضع البحث!

- لا يا خفيف، بل قالت ما هو أخطرُ من ذلك بكثير، هناك جهةٌ أجنبية تسعى خلفَ البحث ومستعدّة للقتل مِن أجله، وقد تكون محاولة قتلهم لـ»أميرة» هي الثانية بعد نجاح الأولى.

بُهِت «ماجد» واتسعت عيناه، وقال:

- هل تقصدين بأنهم..

- نعم. هُم مَن قتلوا «نجاتي».

- وما سرُّ محاولتهم قتل «أميرة»، فقد حصلوا على البحث.

نظرت نحوَه مطوّلًا وقالت:

- هذا يعني شيئًا واحدًا، البحث لم يكن بالحقيبة.

ابتهج «ماجد» قائلًا:

- وهذا في صالحنا، فلنْ يصلوا إليه قبلنا.

اعتدلت «سارة» في مقعدها، وأمسكت المِقْود بكلتا يديها وهي تنظر بمرآتها قائلة:

- يبدو أنهم بالقوة والبراعة التي لا حدود لها، فهم يتبعوننا الآن.

التفت «ماجد» للخلف ليجد سيارةً سوداء ذات دفْع رباعي تكادُ أن تلتصق بهم، فقال لها بخوف:

- هل هُم أصحاب تلك السيارة السوداء؟

- نعم.

- أسرعي بالهرب منهم.

- بالعكس سأتوقف لهم بعد الميدان القادم.

دهشَ «ماجد» من ردّها، هل تسعى هكذا ببساطة إلى المخاطر؟! وقبل أن يعترض كانت قد عبرتِ الميدانَ واتجهت نحو اليمين للتوقّف ويدُها تنسل إلى داخل حقيبتها لتلتقط منها شيئًا وتخفيه بقبضتها، وكما توقّع «ماجد» فقد توقفت السيارة السوداء خلفهما، وترجّل منها راكباها بملامحهما الغامضة المختفية خلف نظّارتيهما السوداء والكبيرة، وتختفي نصفُ جبهتهم خلف شعرهم الطويل الناعم وكأنهما يتقاسمانه بنفس الصفات، مال الأوّل على شباك «سارة» ليسدّه تمامًا عن الناظرين في حين أشهرَ الثاني مسدسًا إلى داخل السيارة بجوار رأسِ «ماجد» الذي كاد أن يموت رعبًا، في حين قالت «سارة» بثبات:

- أهلًا بكما.

نطقَ مجاورها بعربيّة متكسّرة قائلًا:

- إذًا، فقد كنتما ضمن فريق «نجاتي».

تعرّجت جبهة «سارة» رافعة حاجبيها، وقالت :

- كيف تنصتّم على جلستنا مع خطيبته؟

نطقَ حامل المسدس بغلظة قائلًا:

– نحن مَن يطرح الأسئلة فقط.

ابتسمت «سارة» وقالت:

– هل ستقلتنا مثل «نجاتي» الذي فقدَ حياته بلا طائل، وتُمْنَى بفشلٍ جديد؟

ابتسم مجاورُها قائلًا:

– حسنًا، فلننهِ هذا الأمرَ بسرعة وبلا خسائر، أين يمكن لـ«نجاتي» أن يحتفظ ببحثه؟

باستهجان قالت:

– هل صدّقت بأننا شركاؤه حقًّا في ذلك البحث؟

ردّ مجاورها قائلًا:

– معرفتك بتفاصيل دقيقة بمثل ما ذكرت تؤكّد ذلك.

فقالت ببساطة:

– نحن صحفيّان نسعى إلى تحقيقٍ مثير، واضطررنا لقول ذلك حتى نحصلَ على البحث من خطيبته، وما علمنا بالبحث إلّا من أخيه.

صمت الرجل مليًّا كأنما يفكّر في كيفية التأكّد من ذلك، وأخرج جوّاله واتصل بأحدهم ليسأله بالإنجليزية التي تجيدها «سارة» عن صفة الصحفيّين اللّذين جاءا لمنزل «نجاتي» أمس، ابتسمت بثقةٍ فقد أصابت ضربتها بقوة؛ وسيتأكّد الآن من صدق روايتها، وبالفعل ظهرَ على وجهه أثرُ ذلك، نادت «سارة» على حامل المسدس قائلة له:

- لو سمحت أريدُ منك شيئًا.

مالَ الرجل برأسه أكثرَ نحوها متسائلًا عمّا تريد، وإذا بها تدفعُ برذاذٍ حارق وقوي إلى وجهه من أداة الدّفاع الشخصي التي سحبتها من حقيبتها قبل مجيئهم، فصرخَ الرجل وهو يحاول تغطيةَ وجهه بكلتا يديه ممّا أسقط مسدسَه، وفي نفس التوقيت وبتوافُقٍ دقيق فتحت بابها بقوة لتصدِمَ به مجاورها الذي لم ينتهِ من مكالمته بعد، فقذفت به الضربة- التي تعجَّبَ «ماجد» من قوتها- ليقع أرضًا، ولم يدرِ أحدُهم بأنها كانت تضعُ السيارة على وضع الانْطلاق، وكانت تُوقِفها بالضغط على المكابح، فأطلقت سراحَها وداست على دافع البنزين لتزيدَ سرعتها، تركت لـ«ماجد» مهمة مراقبتِهِم في المرآة، وانطلقت هي في أول طريق قابلها جهة اليمين، وكما توقّعت تمامًا، لم

يتبعوها وتوقّفت مطاردتهم، فابتسمت بثقة، ولم تتمالَكْ نفسها من إطلاق قهقهة كبيرة وهي تصفّق بيديها بجزلٍ وفرحة طفوليّة متجاهلةً نظرة «ماجد» الذاهلة إليها!

***

اختار «ماجد» الكرسي الأمامي، واحتجز المجاور له ليبقي فارغًا بالسيارة المنطلقة إلى الفيوم، فضَّل أن يدفع مبلغًا أكبر ليمنع الأعينَ التي اعتادت التلصّص ومشاركته كلّ ما يقرأ أو يكتب بجوّاله، لا ينسى كيف تذمّر أحدهم وزفرَ بقوة وضيق حينما أغلق شاشة الجوّال قبل أن ينتهى الرجُل من قراءة الرسالة التي كتبَها لـ»هدير» يخبرُها أنه في الطريق وقد جلبَ لها كلّ ما أرادت، همّ أن يعتذر ويفتح له الشاشة حتى يقرأ ما فاته، ولكن هذه المرّة المحادثة ستكون مع «سارة» عبر برنامج «واتس آب»، وهذه لا يمكن تركها نهبًا للأعين أيًّا كانت، أخبرته أنها فور وصولها لمنزلها ستحدّثه مباشرة، فانتظر التنبيهَ المميّز لذلك البرنامج بلهفة أبٍ يشتاق لصراخ طفله الأوّل، الطريق يُطوى سريعًا وقد تأخّرت، همّ أن يتصل بها، ولكن فضَّل الكتابة حتى لا تنصتَ الآذان إلى كلماته، فكتب لها يسألها أين هي الآن؟ ردّت عليه مباشرة أنها تسترخي قليلًا

في سريرها، شعر بالحنق البالغ، لو قالت بأنها كانت منشغلةً بأي شيء لجعله عذرًا مقبولًا، حتى لو كان تقليم أظافرها، فكتب لها مُستنكرًا:

- ألم تقولي بأنّك ستحادثينني فورَ عودتك للمنزل!

- نسيت.

تصاعد غيظُه للذروة، ولكن ليست «سارة» التي يمكن معاتبتها على شيء، فنفثَ غضبتَه بزفرةٍ حارة من صدره، وكتب يقول:

- ما هي خطوتنا التالية؟

- أن نستريح تمامًا، ونعطي أذهاننا فرصة الصّفاء المطلوب للتفكير المنطقي السليم.

خشي أن تنتهي بذلك محادثتها معه ابتغاءَ الراحة المنشودة التي تتحدث عنها، فكتب يقول:

- لقد كنت اليوم «سوبر وومان».

أتته أيقونة وجْهٍ مبتسم تسيل الدموع من عينيه لشدّة الضحك، فأراد أن يستحثّها للكلام؛ فكتب يقول:

- كيف رسمت هذا السيناريو الذي حدث مع هؤلاء الأجانب؟

ظهر مؤشرُ الكتابة وطالت مدته ممّا يوحي بأنه سيأتيه الشرح الكبير، وأخيرًا ظهرت كلماتها المكتوبة تقول:

- توقّفي كان لمعرفة قوّة العدو وقدراته واستخراج بعض المعلومات منه بشكلٍ غير مباشر، مع العلم بأنه لن يؤذينا في الطريق العام، تأكّدتُ من أنهم لم يصلوا إلى البحث عبرَ الحوار القصير الذي دارَ معهم، فرغبت في الفرار مِن مطاردتهم المستقبلية فمنحتُهم السبب لذلك؛ وهو أننا لم نكن شركاء لـ«نجاتي»، وإنما صحفيّين فضوليّين، وتأكّد لي ذلك بعدم متابعة الجري وراءنا.

- يا لكِ من عبقرية، صدقًا كلّ ما بك يثير الإعجاب والدهشة.

أتاه أيقونة وجْهٍ مبتسم، يعلو خدّيه حمرةُ الخجل، فشجّعته ليقول لها:

- هل يمكنني سؤالك عن شيء مختلف، ولا تؤاخذينني فيه؟

أتته أيقونة وجه بعينَيْن متسعتيْن دلالةَ الترقّب، فكتب يقول:

- كيف تحافظين على ساقيك بهذه الاستدارة المخروطية العجيبة والرشيقة؟

أتته أيقونة وجهٍ يُخرج لسانه، وظهر له مؤشر الكتابة لتأتيه جملتها قائلة:

- لا شأن لك بهما، هيّا سأستريح قليلًا.

وتحوّل مؤشر توقيت ظهورها على برنامج «الواتس» بأنها قد غادرت، فشعر بجسده يشتعل نارًا لا يدري سرَّ مبعثِها، هل هو الشعور بالإثم، أم الحرج لجملتِه الأخيرة تلك؟ لقد كان يسترقُ البصرَ إليها وينتزع السيئات دون مجاهرة، هل وصل به الأمر لهذه الجرأة؟! أيغازل خطيبة صديقه الأقرب والأعزّ!

ضغط على شفته السفلي بأسنانه نادمًا على قوله ذلك، وقامَ بحذف هذه المحادثة التي يراها مُشينة، ورغبة في التَّطهر اتصل برقم «هدير» ليقضي معها ما تبقّى من وقت في حديثٍ نقي، ردّت عليه بصوتٍ مختنق، فسألها عمّا بها، فقالت لا شيء، أخبرها أنه في الطريق إليها وسوف يصل بعد قليل، على نقيض طبيعتها قالت له في ردٍّ موجَز وجافّ:

- تصل بسلامة الله.

لم يجدْ ما يقوله فأغلق معها الخطّ، وأخذ يراقب أعمدة الإنارة التي تأتي إليه مسرعةً واحدًا تلوَ الآخر.

***

دخل شقته لتقابله قتامةٌ لم يرَها من قبل، ليست الإضاءة الخافتة المحبّبة له، ولكن صمت وسكون القبور، روحٌ عجيبة لم يرها من قبل بها، هل الأماكنُ لها مشاعر وأرواح تتفاعل حقًّا مع ساكنيها؟

هناك أماكن تعتادُ فيها على البِشر والسّعادة، وأخرى ترتبط بالنَّصَب والمشقّة، وغيرها فيها الخوفُ والقلق، لقد كانت شقتُه من قبل موطنَ راحته وتخلّصه من كلّ عنتٍ يلاقيه بالخارج، فما الجديد؟! لماذا لا يلاقيه ذلك الإحساس هذه المرّة؟ سمع صوت الأواني بالمطبخ فتعجّب لمَ لمْ تسعَ «هدير» لملاقاته كما اعتادت في كلّ مرة؟ ذهب إليها ليجد وجهَها يحمل كآبةً عجيبة، علمَ منها سرّ الروح التي ترفرف بأرجاء الشقة، فمليكتها هي التي تبثُّ فيها كلّ شيء!

كانت منشغلةً في ترتيب أوانيها، ولم تعِرْه اهتمامًا وكأنه لا يقف أمامها، سألها مجدّدًا:

- ما بك!؟

بوجومٍ قالت:

- لا شيء؟

شعر بدموع تتقاتلُ خلف مقلتيْها، ولكنها تقاوم خروجها بقوة، عقد حاجبيه متسائلًا:

- أنت على غير طبيعتك، هل أتتك الدورة الشهرية اليوم؟

لم تجبه، وانسلّت من المطبخ، وهي تقول له بنفس الوجوم:

- غداؤك مغطًّى وساخنٌ على السفرة بالصالة.

- ألن تتناولي غداءك معي؟

- لست جائعة، سأذهب لصلاة العصر بالمسجد، وبعدها سأقضي بعض أموري، هل تريد شيئًا من الخارج؟

داهمه إحساس بأنّ ما يراه الآن إنّما هو عقابٌ من الله جرّاء ما يفعل مع «سارة».

رغمًا عنه اقتحمته ذكرى مِن زمن الطّهر، كان يستمع إلى درس «مصطفى» بالمسجد، بابتسامته الوضّاءة الرقيقة وبمنتهى اليسر يضعُ «مصطفى» يده على مرض حقيقي يعاني البعض منه، ويمنحهم الحلَّ البسيط، ويبثُّ فيهم روحَ البِشر ورجاءَ رحمة المولى «عزّ وجلّ»، كم غيَّرته تلك الدروس وقوَّمت كلَّ عيبٍ كبير كان يعاني منه، يومها قال «مصطفى»:

- إذا وجدت الكآبة والحزن يسودان بيتَك بلا مبرر، فابحثْ عن ذنب اقترفته وتبْ عنه واعزمْ على عدم العودة إليه؛ فقد قال الحسن البصري: والله إني لأعلم ذنبي في خلقِ زوجتي وفي خلق دابّتي!

كانت هذه قناعة «ماجد» في السّابق التي تمنعه عن الكثير من الخطايا، ولكن.. لكم اقترف ذنوبًا ولم يتغيرْ شيء ببيته فلمَ يحدث هذا التغييرُ اليوم؟!

هل يحتاج الأمرُ إلى عددٍ معيّن من الذنوب؟

تخلخلَتْ عنده هذه القناعة، حتماً هناك ما حدث وضايقها، ولا تريد التحدّث عنه، فليمنحها الفسحةَ التي تريدها ولن يضغطَ عليها، كانت عند الباب تهمُّ بالخروج ملقيةً عليه السلام، فردَّ عليها وأخبرها بأنه سينام قليلًا حتى عودتها، هزَّت رأسها عاجزةً عن رسم البسمة التي لم تكن تغادرُ محيّاها وانطلقت.

***

لم يدر «ماجد» كم استغرقه الوقتُ في النوم الخالي من الأحلام، كان جسدُه بالفعل في حاجةٍ إلى هذه الراحة التي نالها، تقلّب ليريح جانبَه الأيسر مستلقيًا على الأيمن هذه

المرّة، وبينما النعاس يتلاعبُ به ويدغدغ جميعَ أحاسيسه كانت الرؤية مشوشة بسحب من الخدر الجميل، ولكن- وعلى بعد سنتيمترات منه- رأى الساقيْن اللّتين كان يتغنّي بهما ظهرَ اليوم!

حتماً ما زال في عالم الأحلام! ولكن أغمض عينيه وفتحهما بتتابع سريع، وإذا بهما تتّسعان وهُما تعاينان تلكما الساقيْن بنفس البنطال الجينز الضيّق، وتلك الاستدارة المنتظمة المخروطية، هل أتته «سارة» إلى غرفة نومه؟!

ولكن كيف؟!

صعد ببصره إلى أعلى، وقد تطايرَ عنه النّوم بكل آثاره ومؤثراته، كانت تعطيه ظهرَها وهي منشغلة بشيء في خازنة ملابس «هدير»، إنها «سارة» بنفس أناقتها وشعرها المنفوش حول رأسها ليمنحها مزيدًا من السحر بوجْهها الجذاب، ولكن كان جسدُها ممتلئًا قليلًا عمّا سبق، همَّ أن يناديها ولُحسْن حظّه لم يفعل، فقد استدارت إليه كأنّما قد شعرت بطرقات نظره على جسدها، وتصاعدت دهشتُه إلى الذّروة وقفز حاجباه لَأعلى حتى كادا أنْ يغادرا وجهَه، فقد كانت «هدير» التي ابتسمت، وقالت:

- نومًا هنيئًا يا حبيبي.

اعتدل جالسًا غيرَ مصدّق، أضاء الأنوار ليعاين بنفسه السحرَ الجديد الذي لم يره من قبْل على «هدير»، التي خرجت منذ سويعات بوجهٍ وجسدٍ غير الذي عادت به! رغمًا عنه أمعنَ النظرَ إلى ساقيها التي يعلم جيدًا أنهما بهما بعض الانبعاجات الخفيفة، أين ذهبت تلك التعرّجات لتصبح بهذه الجاذبية؟!

وكأنّما سمعت «هدير» تساءله فقالت:

– الملبسُ هو الذي يشكّل ما تراه الآنَ على غير حقيقته، كورسيه داخلي مع البنطال الجينز الضيق بانتظام يمنحُك ما ترى.

هزّ «ماجد» رأسَه لعجبٍ أكبرَ ممّا سبق، لقد حذف محادثته مع «سارة» ولا سبيل لاسترجاعها، هل علمتْ «هدير» بما دار بينهما؟!

مِن المستحيل هذا!! إلّا إذا كانت هي المؤمن الذي يرى بنور الله!

ولكنها ليستْ مِن الأنبياء الذين تحدثُ لهم هاته المعجزات، الأمر بسيط بالعودة إلى القناعات الدينية المباشرة، لقد اطّلع الله على قلبه وعلم ندمَه الحقيقي على ما فعل فكافأه بالحلال، ما زال يذكر الحديثَ النبوي الشريف والذي يقول فيه

الحبيب ﷺ: «إنك لا تدع شيئًا اتّقاء الله تعالى إلّا أعطاك الله، عز وجل، خيرًا منه».

ولكنه لم يتركْه طواعية؛ فكيف تأتَّى ذلك؟!

هزّ رأسه متجاوزًا أفكاره، وقرّر أن يعيش تلك اللحظة السعيدة، وقد أصبحَ ملك يمينه كلّ ما كان يتوقُ إليه مع «سارة» بلا إثم.

ولكن كانت عاقبةُ ذلك ملاحقتَه بأعظم ما كان يهرب منه، فقدْ طرقت «هدير» رأسَه بمفاجأة جديدة لم تكنْ في حسبانه، وقد ظنّ تخلصَه منها سابقًا، فقد أخرجت مبلغًا ماليًّا كبيرًا، ووضعته أمامه قائلة:

- لقد بعت كلّ ذهبي، والآن لم يعد هناك داع لتأجيل البحث في أمر الإنجاب، ولقد قمتُ بحجز دورٍ لناً للكشف مساءَ اليوم بإذن الله.

كثرة المفاجآت تلاعبتْ به وبتفكيره المنطقي، ليست هذه هي «هدير» التي يعيش معها منذ ثلاث سنوات! هل خرجتِ القديمة بكآبتها وضعفها وعادت إليه توأمها التي تخالفها في كلّ شيء! منذ متى تأخذُ «هدير» زمامَ المبادرة بقراراتٍ إيجابية سريعة وحاسمة هكذا؟!

لم يكن أمامَه مجالًا للرفض أو الاستنكار؛ لذا صاحَبَها إلى ذلك المركز الطبّي الشهير والمختصّ بأمور الخصوبة، وفي صالة الانتظار ورغم أن أغلب الجالسين كُنّ من الحوامل، إلّا أنه شعر بالجميع ينظرون إليه متسائلين عنْ سبب عقمه، كان يضربُ على الأرض بقدمِه اليمنى في تتابعِ سريع يكشف مدى قلقِه وتوتره وكرهِه لهذه اللّحظة، وبالداخل لم تنقضِ مشاعره السيئة تلك، ماذا سيفعل الطبيب ليتأكّد من أنه ذكَرٌ مكتمل الذّكورة، شعورٌ مهين لا يرتضيه، وكيف سيفحص زوجته؟ وكيف قبِلت هي بذلك!؟

ولكنّ الطبيب ببسمة دبلوماسية استمعَ لهما بمنتهى التأنّي، وفي النهاية قال بهدوء:

– سنبدأ بأوّل وأبسط خطوة طبية وعلمية، فحص معملي لمعرفة نِسب الهرمونات عندك يا مدام «هدير»، وفحص معملي آخر لعيّنة من السائل المنوي منك يا أ. ماجد، ومهما كانت النتيجة ومع التطوّر الطبي المذهل والسريع، بإذن الله لكلّ مشكلة، قد تظهر، حلٌّ عندنا.

حاول «ماجد» رسم ابتسامة شاحبة وفشَلَ، فتناول منه الورقة التي خطّ عليها التحاليل المطلوبة، وانطلق كأنّما يفرّ

من سجَّانهِ، كان المعمل ملتصقًا بالمركز الطبي ممّا ضيَّع عليه فُرص المناورة والتأجيل، وبدفع مِن «هدير» التي كانت تقاتل لنَيْل ما تريد، خرجا من المعمل وقد منحاه ما أرادَ من عيّنات، وأمسكت «هدير» بإيصال استلام النتائج كأنّها تمسك بشهادة تخرّجها مجددًا من الجامعة، كانت على وشك التقافز فرحًا أثناء سيرها معه، وهو يحاول أنْ يجاري فرحتها ولكنّ وجومَه ومخاوفه كانت تقتلُ ذلك، ترى كيف ستصير علاقتُهما بعد ظهور هذه النتيجة؟!

حاول صرفَ ذهنه عن كلّ الوساوس والمخاوف التي ما فتئت تتلاعبُ به من قبْل، لقد حُسم الأمرُ وانقضى، فليعدّ للآتي عدّته، نظر نحو «هدير» التي عادت طفلةً من جديد، وهي تقول له بشجن:

- أريد تناولَ آيس كريم.

نظر نحوها بودّ، وقد شعر بأنها حقًّا طفلتُه، وسار بها للحصول على مطلبها الجديد.

***

- جملةٌ متكررة على عددٍ من المقابر الفرعونية.

- سكينٌ فضّي يحمل الاسم الخالد.

– شلالٌ مائي يتشكّل ظلّ الماء المنسكب فيه بزاوية مقدارها ٩٠ درجة في تمام التاسعة صباحًا.

– فرضُ الحراسة المشددة على قدس الأقداس يوم الحادي عشر من ديسمبر.

– بقرةٌ صفراءُ وجديٌ ملتفّ القرون وقطةٌ سوداء

خطّ «ماجد» كلّ ما سابق في ورقةٍ كبيرة، وأخذ يتطلّع إليه محاولًا ربط هذه العناصر ببعضها البعض، ولم يجد! انتابته حيرةٌ كبيرة، لقد أُغلقت كلّ الطرق، وما مِن سبيل لحلّ هذا اللّغز، أخذ يعيدُ ويزيد في قراءة ما سبق وهو يحكّ رأسَه ويزمّ شفتيه بمنتهى الضيق، جلست «هدير» ملتصقةً به وقد وضعت أمامه مشروبَه المحبّب تفوح رائحتُه النفّاذة، وتتصاعد منه الأبخرة التي تقاتل للبقاءِ ولكنْ تلقى مصرعَها بعد بضع سنتيمترات من الصعود لأعلى، اقتحم أنفَه كذلك رائحةُ عطرها الجديد، فنظر نحوَها وقد تغيّرت هيئتها تمامًا بما صنعت بالمساحيق الخفيفة وتصفيف شعرها بغير ما اعتادتْ عليه، وكذلك ملبسها الذي لم يتخيّلها يومًا به، همّ أن يعلّق عليه، ولكنها سبقته قائلة:

– ما الذي يقتلُك حيرةً هكذا؟

أشار نحو ورقتِه، وقال لها هل تجدينَ رابطًا بين هذه العناصر؟

تناولتها لتقرأ ما بها ببطء وعناية، وابتسمت قائلة:

- لا يوجد إلّا رابطٌ واحدٌ، السكينُ يمكن به ذبحَ البقرة والجدي وقتل القطة.

هزّ رأسه دلالة حيرته المتزايدة، فحتى لو كان ذلك سليماً فلا جديد، ولم يتكشف أي أمر!

سألته باهتمام قائلة:

- اشرح لي عمّا تبحث، ومن أين حصلت على كلّ ذلك؟

تنهّد بيأس وشرح لها باختصار كيف وصلته هذه الوثيقة التي تعدّ بداية بحثِه عن كنز قارون، وأنهم قد فقدوا الأمل في وجود بقيّة الوثائق التي تشرح كلّ ذلك.

عادت بظهرها إلى الخلف، وقالت:

- ضع نفسَك مكان «نجاتي» هذا، وابحثْ عن سبب إرساله هذه الوثيقة لك دون سابق معرفة، ولِمَ أرسل واحدة فقط لا فائدة منها وحدها.

- كان يطالبني بإعادتها إليه بعد شهر، فحتماً قد أدرك التهديدَ الذي تسبّب في مقتله بعد ذلك، وأراد تأمينَ الوثائق

بطريقة مبتكرة، وهي إرسال وثيقة واحدة لكلّ فرد، وبالتالي لن يستفيد بها أحدُهم لأنه تنقصُه بقية قِطَع البازل، وبما أنهم أفراد مجهولون للمطاردين وليسوا مِن معارفه أو زملائه فلن يصلوا إليهم.

– وهل كان يتوقّع أن تعيدوا إليه الوثائق بعد شهرٍ بالفعل؟ وماذا لو لمْ يفعلها أحدُكم؟ فجميعكم مجهولون كذلك له، ولا يدري مدى أمانتكم!

– يمكنه الحصول عليها من صندوق البريد المرسَل.

قبل خدّها منتشيًا، واستطرد قائلًا:

– يا لكِ مِن عبقرية! هذه هي الطريقة التي قام بها بتأمين الوثائق، لم تكنْ وسيلة التأمين الاحتفاظَ بها لدينا، بل الاحتفاظ بها في بريدِه، في جزءٍ مجهول لا يُتوقع وجودُها به، وحتمًا اختار عناوين بريد عشوائية كان نصيبي أحدهم.

ابتسمت «هدير» بسعادةٍ بالغة لردّ فعله التلقائي، فأراحت رأسَها على كتفه بدلالٍ وقالت برقّة:

– أعظم كنز حصلت عليه أنك أنتَ نصيبي.

ضمّها إليه، وهو يشعر بالامتنان لها، معها تشعرُه بأنّه الملك والقائد وكلُّ شيء، ولكنّ اهتمامه باللغز كان يسيطرُ عليه ممّا انتزعه من هذه اللّحظة الرومانسية سريعًا، تركها واعتدل في مجلسه قائلًا:

- الحلُّ الآن هو اختراق بريدِه بعيدًا عن أي خداع أو مطاردات، وسوف نفوز بإذن الله.

قالت بتساؤل:

- هل يمكنك فعلها؟

نظر إليها بتردّد وقال:

- هل يمكنني مكالمة «سارة»؟

تمعّرت ملامحها، ولكنها تغلّبت عليها سريعًا، وجاهدت ليخرج صوتُها طبيعيًّا ولكن كانت تفوحُ منه كلَّ أمارات الغيظ، وهي تقول:

- تفضّل، ما المانع؟

أخذ رنينُ الجوّال يتكرّر و»ماجد» يكاد أن يسابقَ النّبضات التي تنطلق عبر الأثير إلى «سارة» متعجّلًا إخبارها بما توصّل إليه، مسائلًا إيّاها عن طرق اختراق هذا البريد، هذا إنْ لم تكن هي القادرة على ذلك.

وأخيرًا، ردّت عليه ليقول لها بلا أي مقدمات:

- «سارة» لقد توصلت إلى الحلّ فـــ..

قاطعته بحسم قائلة :

- اكتب ما تريد على «الواتس»، واحذفه بعدها مباشرة.

همّ أن يجادلها لِمَ كلّ ذلك؟! ولكنّ لهفتَه دفعته للامتثال مغلقًا الخطّ ومسرعًا إلى برنامج «الواتس» ليقصّ عليها بسرعة ما توصّل إليه، انتظر منها ردًّا منبهرًا بعقليّته الرائعة، ولكن كان ردُّها محبطًا حين قالت:

- امسح كلّ ذلك بسرعة، ولتقابلني غدًا بشقة «معتز» الجديدة.

اعتدلت «هدير»، وقالت بصوتٍ هادر:

- كيف تقابلها وحدَك بشقة «معتز» هذا؟! لولا معرفتي بأخلاقك ودينك؛ لقلتُ بأنها دعوةٌ مشبوهة.

ربتَ «ماجد» على كتفها قائلًا:

- لا تقلقي يا حبيبتي، «معتز» غالبًا يكون معنا.

بحسمٍ قالت:

- سآتي معك.

هتف قائلًا:

- لا يمكن ذلك، فلا تدرين كمّ المخاطر التي يمكن مواجهتها، لا يمكنني تعريضُك لذلك.

بعنادٍ قالت:

- لن أتركَك وحدك.

تذكّر ما سيقعدها فقال:

- سأوكلُ لك مهمةً أخطر وأكثر أهمية من ذلك آلاف المرّات.

نظرتْ إليه متسائلة فأجاب مبتسمًا:

- ستحصلين على نتائج التحاليل حتى عوْدتي، وأنتظرُ منك البُشْرى.

صمتتْ وهي تعضّ على شفتها، وتفكّرت قليلًا، ثمّ قالت بابتسامة تصارعُ الموت:

- هزمْتَني هذه المرّة، ولكن لنْ تفلت في التالية.

***

لم يكنْ «معتز» هناك كما أخبر زوجته، كانت «سارة» وحدَها التي فتحت له الباب وعادت مُسرعة لتنفث دخانَ

شيشتها، تعجّب كيف تحتفظ بواحدةٍ في الشقة التي ما زالت في طوْر التّجهيز لزواجها بصديقه المحظوظ!

سعلَ سعلةً سريعة؛ فالصالة المحكمة شبه معبّقة كلها بالدخان، لم تعبأ بسُعاله، واستمرّت وهي تقول من بين نفثاتها:

- والآن، أعد علي ما أردت بالتفصيل.

شرح لها كلّ ما دار بينه وبين «هدير»، وكيف أنهم فقط ينقصهم اختراق بريد «نجاتي» وينتهي كلّ شيء.

وضعت مبسمَ شيشتها جانبًا، وأغلقت حجارتها المشتعلة بالغطاء النحاسي واعتدلت في جلستها، وعيناها تحملان جذلًا وبريقًا زاداها حُسنًا فوق حُسن، وقالت:

- لا داعي للاختراق؛ فنحن معنا كلمةُ السرّ بالفعل.

اتسعت عيناه دهشة، رغم أنه وطَّن نفسه من قبل بأنّ الانبهار مع «سارة» مستمرٌّ ومتجدّد، وقال ضاحكًا:

- كيف هذا؟!

- هل تذكر عندما كنّا نحدث «أميرة»، وأردت البرهان أننا نعلم جيدًا مدى محبّة «نجاتي» لها، وقتها عددت لها كل

كلام الروايات الرومانسية السّخيفة، بأنه يشتاق إليها وإلى صوتها وما إلى ذلك من ترّهات، وختمتُ كلامي بأنّ اسمها هو كلمة السرّ لكلّ ما يخصّه، لم تعترض أو تندهش وقتها، ممّا يؤكد بأنه كان أحدَ هؤلاء البُلهاء الذين يجعلون اسمَ محبوبيهم كلمة السرّ بالفعل.

لمْ يتمالكْ «ماجد» نفسَه من القهقهة عاليًا حتى دمعت عيناه، وقال:

- هل يعقل أنّ الحلّ بين أيدينا منذ البداية!

فتح بريدَه عبرَ جوّاله وحصل على البريد الإلكتروني لـ»نجاتي» من الرسالة الوحيدة التي أتته منْه، وقام بتسجيل الخروج ومحاولة الدخول إليه بكلمة السرّ التي تحمل اسم «أميرة»، ولكن فشلت المحاولة، حاول التغيير والتبديلَ في الحروف الإنجليزية، وجعل أحدها كبيرًا والبعض صغيرًا، ولكن بلا نتيجة، فنظر نحو «سارة» بإحباط قائلًا:

- استنتاجك ليس في محلّه.

فقالت بحسْمٍ:

- أنت تكتب اسمَها فقط، في حين أنّ سياسة بريد «ياهوو» أنْ يكون الحرف الأول كبيرًا، وأن تكون كلمة السرّ مكوّنة من حروف وأرقام، فهل وضعت أرقامًا؟

- أي أرقام سأضع؟

ضحكت بتهكّم، وقالت:

- حتمًا سنة مولدها؟

قلّب كفيْه بحيرة، وقال:

- ولكني لا أعرفه؟

- هذه هي المهمة الجديدة، الحصولُ على تاريخ مولدها؟

- هل ستتّصلين بها؟

وضعت أصبعها أمام فمِها محذّرة، وقالت:

- كنْ حذرًا في الاتصالات التليفونية، لقد بحثتُ مطوّلًا عن كيفية علْم هؤلاء الأجانب بتفاصيل حديثنا مع «أميرة»، ولم أجدْ سوى التنصّت عليها بأي جهاز ربّما يكون مزروعًا في جوّالها.

أدرك «ماجد» سرّ حذرها الزائد، فتساءل قائلًا:

- وكيف سنحصل عليه؟

وضعت ساقًا فوق الأخرى مبتسمة، ومالت جانبًا قائلة:

- هذه تحتاج إلى إعداد مختلف ومُبْتكر.

لم يستطع مقاومة التمعّن إليها بجلستها المثيرة، فانطلقَ التساؤل مِن ذهنه إلى لسانه مباشرة، يقول:

- هل تعلمين أنّ الشيطان يجالسنا الآن؟

رفعَتْ حاجبيْها قائلة:

- وما الذي يستطيعه؟

- ألا تخشين أن ينتقصَ عقلي بأي فعل؟

- حاول فعلَها وستندم عليها حياتك كلّها عندما تقضيها معاقًا.

رفع حاجبيه قائلًا:

- لا تغترّي بنفسك لهذه الدرجة.

قامت واقفة بوضع استعدادٍ قتالي، وقالت:

- هيا فلتجرّب، ولن أؤذيك هذه المرّة.

أشار اليها ضاحكًا لتجلس قائلًا:

- لمْ أعلم بأنكِ تجيدين القتالَ كذلك.

هزت رأسها وجلست قائلة:

- معي الحزام البنّي الآن في التايكوندو.

صمت «ماجد» قليلًا، ولم يردْ مصارحتَها هذه المرّة بأن الشيطان لا يلزمه إلّا إغوائها هي فقط، ولكن تذكّر ما حاول «معتز» إخفاءه عنه، فأرادَ أن يستكشفه فسألها وهو يضغط على حروفه:

- هل كلّ ذلك بسبب الحادثة التي تعرّضت لها.

لم يرَ «ماجد» من «سارة» هذه الملامح مِن قبْل؛ فقد تقلّب وجهها بسرعة بين ثلاثةِ انفعالات لم يتوقّع يومًا أن يتمّ تتابعها بهذه السرعة، تمعّر وجهها بألم كأنما يتمّ ذبحها ببطء وبقطعةِ حديد صدئة، أعقبها شررٌ يخرج من عينيها بغضب كَفيلٍ لدفْعها إلى تفجير قارّتين كاملتين بدمٍ بارد، ثمّ نظرة تحدٍّ عملاقٍ يواجهه رضيعٌ، وقالت متسائلة:

- مَن أخبرك بها؟

ارتبكَ وقد استبانَ له أنّ الأمر كبيرٌ وخطير كما توقّع بالفعل، فقال بتردّد:

- لقد قال لي «معتز» ذلك، ولكنْ بسرعة ولا تفاصيل.

قالت باستهجان:

- وكيف سيخبرك بتفاصيل محاولة اغتصاب!

اتّسعت عينا «ماجد» ذهولًا، فلم يتوقّع أن تكون هذه هي الحادثة، وارتجّ جسدُه بقوة كأنّما قد صدمته شاحنة، وقال:

- أنا آسف، لم أعلمْ أنّ هذا ما حدث.

ارتخت «سارة» على كرسيها، وعادت برأسها للخلف، وقالت بصوتٍ خافت:

- وها قد علمت، ولكن لن تشعر أبدًا بمدى الانهيار والموات الذي حدث بعدها.

ظهرت «سارة» الضعيفة المنكسرة التي لم يرَها «ماجد» من قبْل، لولا قناعته بحُرمة ذلك لقام دافنًا رأسها بصدره مربتًا عليها ليواسيها، فلم يجدْ إلّا أن يدفعها للكلام عسى أن تتخلّص من شحنة الغضب والحزن المكبوتة داخلها، فقال لها:

- متى كان ذلك؟ وأين؟

ظلّت على وضعها وهي تقول بنفس المرارة:

- تاريخ ينافس يوم مولدي، فقد ولدتُ بعده بشكلٍ جديد، إنه يوم الثلاثاء الموافق الثالث من يوليو عام ٢٠١٣، كنت عائدة من حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتي مساءً، ظننْت

سيري بالشوارع الكبرى والميادين الواسعة لمدينة نصر كفيلان بحفظ حقوقي، ولكنْ أمام مسجد آل رشدان والذي كم صدحت مئذنتُه بأنّ الله أكبر؛ ظهر لي هؤلاء الوحوش، لأوّل مرة أدركُ ماذا يعني ضعف الأنثى، إنه خوفُها وشعورها الداخلي بالانتقاص، وليس أبدًا وهَنَ عضلاتها، عندما اقتربوا مني تحمل أعينهم نظرةَ الذئاب الشّرهة، كان بإمكاني فعلَ الكثير، الغزالة أكثرُ سرعةً من الأسد، ولو التزمت بخطّة الهروب فقط ما أمسك بها أبدًا، ولكن خوفها الكبير يدفعها للنظر خلفها كلّ حين محاولة معرفة كمّ يبتعد عنها الأسد؛ الذي يزيدها مشهدُه رعبًا فوق رعبها، وبهذا تتعثّر ويناها فريسة هنيئة بين أسنانه، لو كنتُ أعلم بأنّ المجرم أجبنُ من فأرٍ مبتلّ أمام فهدٍ يتساقط اللّعاب بين أنيابه الحادّة والقاتلة، لوٍ علمت ذلك لتغير كلّ شيء، أنت نفسك ارتعدتَ منذ قليل عندما وقفت لك وقفتي القتالية دون يقينٍ منك هل أجيدُ القتال حقًّا أم لا، ما ردعَك ليس قوتي وإنّماً ما أوهمتُكَ به من قوة، علمت كلّ ذلك بتجربة قاسية تركتْ شرخَها في روحي ولم تزلْ، بعد أن سقطت تحتَ أرجلهم ممزّقة الثياب وعيني لا ترى إلّا الهلال بأقصى المئذنة، وبينما لساني يعجَزُ عن الاستنجاد بالله أو بأحدٍ مِن البشر؛ وقد أُغلق فمي بيدٍ

قذرةٍ لأحدِهم، وقبْل أن ينقضي الأمر، إذا بصوتِ إغلاق باب سيارةٍ قريبة يردَعُهم وهُم ينظرون حولهم مُسرعين بالهرب، ولو علموا مصدرَ الصوت لتغيّرت جميع خططهم، لقد كانت فتاة أخرى أشدّ ضعفًا منّي؛ تذكرت أنّ كتابها ما زال بالسيارة، فجاءت لتأخذَه وأغلقت الباب بقوة غيظًا عندما لم تجدْه!

مرّت الحادثة وتركتني عند مفترقِ طرقٍ، إمّا الانزواء واستحقار الذّات والانكسار الأبدي، أو التقوِّي بكلّ ما يعينني على السّير وسط هذه الغابة، ولحُسن طالعي اخترتُ الثانية وسعيت إليها.

سادَ صمتٌ لا يقطعه إلّا طرقاتها المكتومة بحذائها المطاطي على الأرض، احترمَ «ماجد» هذا الصمتَ وهو لا يدري بما يمكنُه مواساتها، ولكنها اعتدلتْ فجأة وهزّت رأسها وكأنها تنفضُ عن نفسها مظاهرَ الضعف التي انتابتها، وقالت بمنتهى الجدّيّة والجمود:

- هل لديك أفكارٌ للحصول على تاريخ مولد «أميرة»؟

- مِن الممكن الاتصالُ بها عبر شريحة الهاتف الجديدة التي معي، ما زلت أحتفظُ بها رغم عودتي لخطّي القديم عقب زوالِ خطر «عبد العاطي».

ردّت بنفس الجمود قائلة:

– فكرة رائعة، أعطنيه.

تناولت منه الخطّ الذي أخرجه مِن حافظة نقوده، ووضعته بجوّالها، واتّصلت بـ»أميرة» التي ردّت عليها متسائلة عن المتّصل، فقالت لها:

– نحن شركة «سيفن ستارز»، ونختار مجموعة عشوائيّة للفوز بإقامة سبعة نجوم لمدة أسبوع بفندق شيراتون، وبأيّ فرع تختارين داخل مصر، حتى لو كان فرع شرم الشيخ.

ظهرت نبرة الفرحةِ غير المصدقة في لهجة «أميرة» وهي تقول:

– حقًّا؟ وما المطلوب مني؟

بصوتٍ آليٍّ ردّت عليها قائلة:

– ستجيبين عن ثلاثة أسئلة سهلة، الأول.. هل يمكنك ترشيح شركتنا لِمَن تعرفين مِن راغبي السفر والسياحة الداخلية والخارجية؟

بمنتهى الابتهاج ردّت «أميرة» قائلة:

– نعم، بالطبع.

- السؤال الثاني.. متى كانت آخرُ رحلة سياحة داخلية لك؟ وأين كانت؟ ومَن تحمّل تكلفتها؟

- كانت زيارة لمدينتي الأقصر وأسوان قبل تخرّجي، كانت مدعّمة من الجامعة دفعت فقط مائة جنيه.

- السؤال الثالث والأخير.. ما هو تاريخ مولدك؟

طال الصمت، وجاء ردّها منكسرًا لتقول:

- للأسف لن يمكنَني إجابته؟

- لماذا؟!!

- ليس من السهل الحصول على تاريخ ميلاد أنثى، وأظنّك تدركين ذلك مثلي.

بمنتهى الغيظ ردّت «سارة» قائلة:

- هل ستضيعين الجائزة لأجل هذا السبب التافه؟

- وأكثر من ذلك.

ضغطت «سارة» على أسنانها، وقالت:

- فلتحتفظي برأسك الفارغ وقناعاتك المهترئة، ولتموتي بضعفك تحت أقدام الذكور الذين لا يراعون كلّ ما تبذلين لأجلهم.

وأغلقت الخطّ، وبؤبؤ عينيها يتأرجح يمينًا ويسارًا، مدّت يدها المرتعشة لتشعل نرجيلتَها ونفثتْ دخانها بسرعة وقوّة، و»ماجد» صامتٌ أمامها لا يستطيع سؤالها عن تفاصيل ما دار، تكفي غضبتها الظّاهرة التي أشعلت جمرَ الشيشة وتكادُ أن تشعل الشقة بأكملها.

وقف قائلًا:

- أعتقد أنه يجبُ تأجيل التصرّف مع «أميرة» حتى تتمالكين أعصابك أكثرَ من هذا!

اكتشف مدى حكمة صمتِه السابق عندما اندفع الإعصار على إثْر جملته هذه، فقد ألقت «سارة» مبسمَ الشيشة، واندفعت إليه لتجذبه من قميصه، والشررُ المتطاير من عينيها يكادُ أن يصعقه، وقالت بصوتٍ متهدّج:

- هل ترى حقًّا أني فقدت أعصابي؟

ارتبك «ماجد» وقال برجاء:

- أبدًا والله، أنتِ قلتِ من قبل أنّ الاستراحة تمنحنا فرصةَ التفكير السليم، أنا نفسي متعَبٌ وأريد هذه الراحة، ونحن على اتصال بعد الوصول إلى الفكرة المناسبة.

بحاجبين معقودين أشارت نحو الباب قائلة:

- تفضّل.

انطلق «ماجد» مسرعًا، وقد نسي أنْ يأخذ شريحة الجوّال التي تحدثت «سارة» عبرها منذُ قليل، وما إن أغلق الباب خلفه حتى ارتمت «سارة» على الأرض بوضع السّجود، وجسدُها يرتجّ بقوة وهي تبكي بحرارة، وتكاد دموعها أن تغرق الصالة.

***

طوالَ رحلة العودة إلى الفيوم والوجومُ والأسى يعتليان أكتافَ «ماجد»، لأول مرة تكن المقارنة التي يعقدها في خياله منذ معرفته بـ»سارة»، لأول مرة تفوز بها «هدير»، ذلك الملاكُ الطيب البسيط الرقيق الهادئ، حتى صورة «سارة» الجذّابة في مخيّلته اهتزت وتشوّهت بشكل عجيب بعد معرفته بمحاولة اغتصابها، بل لقد داهمَه شبهُ يقًين بأنها حتمًا قد تمّ اغتصابها، فهذا السببُ التافه لا يمكن أن يردع تلك الوحوش الذين تحدّثت عنهم، لا يدري ما السرّ في أن صورتها اهترأت هكذا مع أفكاره تلك، حتى لو كانت مغتصبة.. ما ذنبُها؟ فهي ليست بعاهرة رغم تحرّرها وعدم تديّنها، تعجّب كيف يتحمّل «معتز» ذلك!

فجأة، تحوّلت مشاعر الحسد أو الغبطة التي كان يشعرُ بها نحو «معتز» إلى الأسى لحاله، لا يتخيّل كيف ستكون معيشتُه معها وقد شاركه آخرون فيها! بل مَن الذي لا يشاركه فيها وهي تنطلقُ متباهية بمفاتنها بقصدِ التحدّي هذه المرة. كيف سيتعامل معها بشخصيّتها المعوَجّة والمشوّهة هذه، والتي كان يظنّها تفيض بالمزايا وعوامل الإبهار المتجدّدة، لقد كان كلّ ذلك غلافًا هشًّا يخفي خلفَه كلّ نقيض لما هو ظاهر!

عادَ له الاشتياق والشّغف لملاقاة «هدير» التي تهيئ له مملكتَه بأفضل ما يكون، حتى ينعَمَ بكل وسائل الراحة فيها، لأول مرة تعود إليه مشاعر البراءة من الإثم، فبعد اليوم لا حيرةَ ولا شعورَ بالانتقاص لأيّ شيء، فهو يرفُلُ في كثير من النّعم لم يكنْ يشعر بها مِن قبل، شمس «سارة» كانت تبهرُ عينيه وتغشيها عمّا لديه، الآن اتّضح أنها لم تكن سوى مصباح قوي انقطعت عنه الطاقة فجأة فأظلم، فأدركت عيناه الرؤيةَ الحقيقية للأمور، لأول مرة منذ أمدٍ يطرق الباب متجنّبًا فتحه بمفتاحه، استمرّت طرقته القديمة المميّزة والتي تشبه إيقاعًا اعتادَ عليه من قبل دلالة فرحته بالعودة إلى البيت، عقد حاجبيه عندما طال الطرقُ ولم تفتح له «هدير»، التي توقّع أن تسرع إليه فرحةً بعودة نغمة طرقاته المحبّبة لها، والتي سألته

عنها من قبْل ولِمَ توقّف عن فعلها؟ اضطر أنْ يفتح بمفتاحه ظنًّا بأنها حتمًا ليست بالداخل، للمرة الثانية تعانقُه تلك الروح الكئيبة التي ظنّها قد غادرت الشقة للأبد، وطرق أذنَه السكونُ التام، تيقّن بأنها حتمًا بالخارج، ولكن فوجئ بها راقدةً على الفراش بصمتٍ وسكون كأنّما قد غادرتها الرّوح، ظنّها نائمة ولكن بالنظر إلى وجهها إذا بها ترمشُ بعينيها، نادى عليها فردّت بصوتٍ كسيح أنْ نعم، سألها لِمَ لْمْ تردّ على ندائه، اعتدلت جالسة متجاهلةً الَردّ وقالت:

- هل أعدّ لك الغداء؟

- ماذا بك؟

- لا شيء؟

تذكّر التحاليل الطبية؛ فسألها بحرص:

- هل أتيت بنتائج فحوصاتنا الطبية؟

بصوت ينازع البكاء قامتْ ذاهبة إلى المطبخ وقد أوْلته ظهرَها، ممًّا فوّت عليه معرفة هل بدأت في البكاء حقًّا أم لا، قالت:

- نعم، وكلّها سليمة، ولا توجد مشكلة عند كليْنا الحمد لله.

عقد حاجبيه متعجبًا، لو كان الأمر كما تقول لتقافزتْ فرحًا، صوتها وحالُها يؤكّدان نقيضَ ما تفوّهت به، بل من الجليّ بلا شكّ الآن أنّ لديها هي عيبًا جمًّا لا يمكن علاجُه، هذاَ هو التفسير المنطقي، قتل ابتسامةً كادت أن تتسرّب إلى وجهِه، فلا شيء يعيبُه، لن تعيّره بنقص ذكورته، لن تنظرَ إليه بشفقة، لن تضغطَ عليه كلّ يوم وتذيقه المذلّة سعيًا إلى العلاج، هذا أفضلُ ما يكون، ولكن هذا يحرمُه من فرصة الإنجاب! لا يهمّ في هذه المرحلة، أكثرُ ما يشغله الآن هو الوصول إلى الكنز الذي سينقله إلى عالم آخر يمَكِّنه من جميع أحلامه، ولكي لا يكون تحتَ وطأة الأوهام؛ سألها:

- أينَ هي تلك النتائج؟

أكملت سيرها، وقد تهدّج صوتها قائلة:

- لقد نسيتها عند الطبيب، فقد عرضتُها عليه وأخبرني بما فيها، وأننا لا مانع للإنجاب لدينا.

همّ أن يقومَ متراقصًا، هكذا قد تيقّن ممّا انطلق إليه ظنّه، الآن هو مَن سيرفق بها ويشفقُ عليها، ومعيشتُه معها ستكون كرمًا منه وفضلًا يجب أن توفّيه حقّه طالما صارَ بها نفس يتردّد،

ألقى بنفسه على سريره عاقدًا ذراعيه خلفَ رأسه وهو يشعر بالرّضا التام والسطوة والقوة بشكلٍ غير مسبوق!

***

– عندي لك خبر سيء.

نطق بها «ماجد» في مكالمتِه التي بدأها مع «سارة» التي ردّت بجمود قائلة:

– ما هو؟

– بكلّ غباء حاولت استنتاج عامِ ميلاد «أميرة»؛ فحتمًا ستكون كلمة السرّ اسمها متبوعًا بالعام فقط؛ مثلًا «أميرة١٩٨٠» أو «أميرة ٨٠» ، وأخذت في التجربة بدءًا من هذا العام متبوعًا بالأعوام التالية له، ولكن أَتَتْني رسالة بأنّ محاولات دخول البريد الخاطئة تعدّت الحدّ المسموح به، فتمّ إغلاقه حتى يتمّ التيقّن أني صاحبُه الفعلي!

بنفس الجمود ردّت قائلة:

– تلك هي عاقبة التصرّف الفردي، وعدم المشورة.

– ماذا سنفعل الآن؟

- محاولات التيقّن هذه قد تشمل رسالة على الجوّال المسجّل لديهم، فلتَسْعَ لمعرفة جميع وسائل التيقّن تلك، وهل تشمل هذه الرسالة بالفعل، أم لا؟

بمجرد إخبارها بأنه سيفعلها حالًا؛ أغلقت الخطّ بلا كلمة «باي» الرقيقة التي تختمُ بها مكالماتها غالبًا، لم يكترثْ لذلك واندفع إلى حاسوبه، وبعد قليل رفع قبضتَه المضمومة عاليًا مبتهجًا عندما وجدَ أنّ «نجاتي» بالفعل جعل رقم جوّاله وسيلة استرجاع البريد أو التيقّن من صاحبه، نظر نحو «هدير» المتكوّمة على فراشها بصمتٍ، واتصل بـ«سارة» للمرّة الثانية ليخبرها بما وجد، فقالت له:

- لقد تغيّرت الخطط، سنسعى للحصول على جوّاله، ولا حاجة لنا بـ«أميرة» الآن.

- وكيف سنحصل عليه؟

- بسيطة، هل معك ألف جنيه؟

- نعم، ولكن لماذا؟!

- سنشترى الخطّ فقط مِن أخيه بزعم أنه رقمٌ مميّز.

- حسنًا، فلنلتقِ صباحَ الغد لننتهي مِن هذه الخطوة.

- أوك.

وأغلقت الخطّ بلا كلمة «باي»!

***

لم تكنْ بنفس بهائها الذي كان يترقّبه كلّ مرة، حاجباها المزْمومان يحبسان بينهما غضبًا مكبوتًا واضحًا له، هناك شيءٌ انكسرَ بداخلها لمجرد بوحها إليه بمعاناتها؛ كانت من قبْل سعيدة بردود أفعاله المُنْبهرة بها وبكل إنجازاتها، ولكنْ بعد أن تكشّف له كلَّ شيء، أدركت كذلك بأنّ انبهارَه هذا قد ذهب، وأصبحت نظرتُه وتعامله معها نمطيًّا مثلها مثل أي سائرة بالطرقات، تطرق بصرَه لحَيْظات.. وسريعًا ما ينشغل بغيرها؛ فليس بها ما يجذب ناظريه إليها لأبعد مدى!

استقلّ السيارة بجوارها ملقيًا عليها تحية الصباح، فردّتها بخفوتٍ دون أن تلتفت إليه، انطلقت بالسيارة مسرعةً وكأنّها تريد الهروب من مجهول، سألها قائلًا:

- هل سترضى الأم بذلك؟

باستهجان قالت:

- وما لنا بها! قلت لك سنفعلها مع أخيه، والمبلغ سيزيغ بصرَه حتمًا.

ضحك قائلًا:

- ولكنّك أنتِ مَن يغشِي بصرَه أكثر مِن أي شيء آخر.

ضحكتْ متهكّمة قائلة:

- جميعكم هكذا، المحركُ الرئيسي لديكم هو الغريزة.

لعلمِه بنهاية هذا الحديث، قام بتغْيير الدفّة مسرعًا قائلًا:

- ولكنْ أليس هناك رقابة عليهم من هؤلاء الأجانب؟

عقدت حاجبيها تفكيرًا، وقالت:

- لو كنت بموضعهم وأردتُ هذه المراقبة أين سيكون تمركُزَك؟

- لا أدري.

- حتمًا سيكون بأحدِ المتاجر القريبة، أو بمدخل إحدى العمارات، المهمّ أن يكون قريبًا منهم، وقد يكون داخل العمارة نفسها، لذا سنطوّق الشارع من الجانبين، أنت في بدايتِه من ناحية وأنا بالناحية الأخرى، وننتظر ظهورَ ذلك الصّيد، وبهذا ندركه بعيدًا عن أعينهم.

معجبًا بتفكيرها المنطقي السلس، قال:

- رائع جدًّا، المهم ألّا تقابلنا مفاجآت.

- احرصْ على جعلي معك على الخطّ المفتوح لو كان مِن نصيبك، ودعْ لي التصرّف معه.

- اتّفقنا.

***

بعد خمس ساعات من الانتظار، انطلقت «سارة» برفقتها «ماجد»، والإحباط ثالثهما، لم تعد المهمةُ سهلةً بعد معرفتهم بأنّ الجوّال كان أحد المفقودات مع حقيبة «نجاتي» حين مقتلِه، علق «ماجد» قائلًا:

- لم يعدْ بيدنا سوى اختراق البريد!

بعينيْن شاردتيْن تفكران بعمق قالت:

- هل تعرف مَن يمكنه ذلك، ويكن موضعَ ثقة؟

- إعلانٌ على «الفيس» نطلب مخترقًا للبريد مقابل الألف جنيه، وستجدين الكثير.

باستهجانها المعهود قالت:

- أقول لك موضع ثقة، وليس مجهولًا أوّل ما سيفعله عقب الاختراق هو استكشافه والفوز بأي غنيمة فيه.

- للأسف، لا أدري.

- إذًا، لم يعدْ بيدي سوى تعلّم وسائل اختراق البريد؛ لأفعلها بنفسي.

- هل ستكون عملية الاختراق هذه سهلةً بعد غلق البريد وطلب التيقّن من صاحبه؟

هزّت رأسها أسفًا وقالت:

- لا أعتقد ذلك، الآن يوجد قطْعَتا بازل، كلٌّ منهما تكمل الأخرى، إحداهما معنا والأخرى مع القتلة الأجانب، لدينا ميْزة علمنا بفائدة ما معهم، وهُم لا يعملون بها عندنا.

ضغطت الفرامل، ورفعت قبضتها، وهي تقول بحماس:

- وجدتُها!

ارتفع بوقُ السيارة التي خلفها اعتراضًا على وقفتها المفاجئة التي كادت تدفعه للاصطدام بها، وفوْر مروره بجانبها هتفَ قائلًا:

- تعلّمي القيادة أولًا يا روح مامي.

قهقهتْ «سارة» ولم تُعرْه انتباهًا لحماسها بما توصّلت إليه، ونظرت إلى «ماجد» الذي عاد إليه انْبهارُه مجدّدًا وقالت:

- سنصل إلى جوّال «نجاتي» من خلال «أميرة».

رفع حاجبيه دهشة أسعدتها، وقال:

- كيف ذلك؟!

رفعت أصبعَها أمام وجهه، وقالت بتهدّج:

- سترى.

سارت بسيارتها من وسط الطريق لتمنعَ كافة التعليقات التي انهمرت عليها منذ توقّفت، وارتكنَتْ بها عند جانب قصيّ، واتصلت بـ«أميرة» لتبدأ خطتَها العبقرية للحصول على جوّال «نجاتي»!

***

فتح بابَ شقّته ليجد ظلمة حالكةً تعتريها، مدّ يدَه إلى مفتاح الإضاءة ليشعلَه، ولكنْ بلا استجابة، انعقد حاجباه، لقد وصلَ إلى طابقه السابع عبرَ المصعد الإلكتروني، ممّا يعني بأنّ التيار الكهربي يعمل بكفاءة، هل هناك عطلٌ كهربائي بشقّته فقط؟ نادى على «هدير»، فلم تُجب، ساوره القلقُ عليها، همّ أن يشعل مصباح الإضاءة بجوّاله ليسترشد به سبيلَ الدخول إلى الشقة، ولكن قبل أنْ يفعلها إذا بأزيز وفرقعاتٍ مكتومة تتصاعد مع إضاءة خافتة عند مائدة الطعام بوسْط الصالة، وخلفها «هدير» تكتمُ ضحكاتها بصعوبة، وأشعلت شمعةً

ضخمة لتظهر له الكعكة الكبيرة المزيّنة بشكل أخّاذ، والتي تقذف تلك الشرارات الملوّنة ، تقدّم نحوها مأخوذًا بالمفاجأة التي لم يعتدْها من «هدير»، ولم يتخيّل يومًا أن تفعلها، اقتربتْ منه وهي تتألّق في ثوبٍ تفوّقت به كثيرًا على «سارة»، أمسكتْ بيديه ونظرتْ إلى وجهه بعينين حالمتين، وقالت:

- كلّ عام أنتَ بخير، اليوم أتممتَ عامَك الواحد والثلاثين، أسألُ الله، عزّ وجلّ، أن يرزقك العمرَ المديد السعيد في طاعته.

كان وجِلًا وقد أخذته المفاجأة، وهزّته بسعادة حقيقية، هو نفسه كان قد نسي ذلك، كانت عنده قناعة مُسْبقة بأنه يومٌ لا يستحق الاحتفالَ، وربما «هدير» كذلك، فقال لها مباشرة:

- أليس ذلك من البِدع؟

- أنا أتحسّس أي مناسبة لصنع حدثٍ سعيد، وهذه ذكرى مولدِ سعادتي وبهجتي في الحياة، أَلا تستحقّ الاحتفال؟!

مبتسمًا راضيًا غاصَ معها في جَرْعة كبيرة من السّعادة الطّاهرة، وبعد انقضاء الأمر مالت على كتفِه بدلالٍ قائلة:

- أريدُ تناول آيس كريم.

رغم إرهاقه بعد يوم صعبٍ مع «سارة»، لم يستطع رفضَ طلبها، فقال لها:

- استعدّي سنذهب سويًّا إلى أفضل صانعيه بأقصى مكانٍ في الفيوم.

وبينما يجلسان على مائدةٍ صغيرة يتناولان الكوبَ الكبير متعدّد الألوان والنّكهات منه، تجنّبت النظرَ إليه وهي تقول له بصوتٍ خافت:

- ماذا فعلت اليومَ مع «سارة»؟

سرحَ ببصره غيرَ شاعرٍ ببسمته التي ارتسمتْ على وجهه بلا إرادةٍ منه، وتذكّر ما فعلته تلك الخارقة، والتي لا تنتهي معها المعجزات، فقد اتصلت بـ»أميرة» وهو ينتظر بشغفٍ لمعرفة خطّتها المزعومة تلك، ردّت عليها «أميرة» كالعادة لتتساءل عن المتّصل، فقالت لها بهدوء:

- معذرة يا «أميرة» انتظري حتى أنتهي من جملتي التالية..

وبإنجليزية سريعة تحدّثت إلى القَتَلة الأجانب الذين تظنّهم يتنصّتون عليها قائلة:

– عندي وثيقة تهمّكم من وثائق «نجاتي»، حدّثوني على الرقم التالي للتّفاوض.

وذكرت رقم جوّالها ببطء، ثمّ أغلقت الخطّ، نظر «ماجد» نحوها متسائلًا عمّا فعلت، فقالت وعيناها تلمعان ببريقٍ ظافِر:

– الوثيقة التي معك لا قيمة لها وحدَها، والجوّال عندهم لا يفيدهم بشيء، هُم لا يعرفون كيفيةَ وصول الوثيقة إليك، وبالتالي يجهلون قيمةَ بريد «نجاتي» وكلّ ما يتعلّق به، سنتفاوض معهم بإعطائهم نسخةً من الوثيقة مقابلَ الحصول على الجوّال، ستكون صفقة رابحة جدًّا لهم.

وضحكتْ ضحكتها القصيرة الساحرة التي عادت معها الحياة مستطردة:

– ورابحة لنا كذلك.

– ومَن أدراك بأنهم يتنصّتون حقًّا على «أميرة».

بنظرةِ تحدٍّ رفعت جوّالها وقالت:

– سترى.

وأخذت تعدّ تنازليًّا من رقم عشرة، وعند رقم ثلاثة ارتفع رنينُ جوّالها، فانطلقت ضحكتُها القصيرة وهي تنظر إلى «ماجد» نظرةً علِمَ ما تعني، وأجابت بالإنجليزية وهي على يقين بأنّهم محدّثوها، أخذت تتحدّث كثيرًا بكلام لم يستطع «ماجد» ملاحقتَه، توقّفت وقالت لماجد:

- هل لديك نسخة منها على جوّالك الآن؟

- نعم.

- قمْ باقتصاص الجزء الحامل لتوقيع اللورد كرومر، وأرسله لي بـ»الواتس» حالاً.

واستكملت محادثتها الإنجليزية، وأخيرًا أغلقت الخطّ وقامت بإرسال الجزء المقتَص من الوثيقة إلى الرقم الذي حدّثها عبر برنامج «واتس آب»، بعد دقيقة واحدة جاءتها كلمةٌ واحدة بالإنجليزية تعني «اتفقنا».. فقهقهت عاليًا وقالت:

- لقد نجحنا.

تردّد «ماجد» قائلًا:

– ومَن أدراك بأنهم سيوفون بوعْدهم، وقد يظنّون بأننا كنا شركاء «نجاتي» بالفعل، ويتمّ مطاردتنا بعدها للحصول على البقية!

– لم يفُتْني كلّ ذلك، لقد زرعت بهم قناعة أننا صحفيّان ناجحان وصلنا لهذه الوثيقة بالبحث وقرّرنا اغتنامها، لهذا طالبتهم بمبلغ ماليّ وجوّال «نجاتي» لصنْع سبقٍ صحفي آخرَ بالاتصال بقائمة أصدقائه المختزنة عليه.

– قدْ يحذفون كلّ ما عليه.

ضحكت باستهجان أكبر، وقالت:

– وما حاجتنا بما عليه؟! نحن نريد الخطّ لاستقبال رسالة استعادة البريد من خلالها فقط.

خبطَ رأسه بيده، وابتسم قائلًا:

– لقد نسيت، اندماجي في قصتك المبتكرة أنستني البديهيات.

استفاق على قطعةٍ باردة تدفعها «هدير» إلى فمِه بملعقتها، فانتفضَ كأنما لسعَه عقرب، وضحكَ عندما اكتشف بأنّها مجرد قطعة آيس كريم، فتناولها وأخذ يلوكها بفمِه في حين قالت «هدير» بلهجةٍ تفوح منها رائحةُ الغيرة بشكلٍ نفّاذ:

– لهذه الدرجة سرحتَ معها؟

استمر «ماجد» في لوْكِ ما بفمِه مدة أطول، وهو يستعد للردّ الحاسم، هو يعلم بأَنّ «هدير» تفعل كلّ ذلك لكسبه وعدم خسارته بأيّ شكل، وقد تضاعف ذلك بعدَ ظهور «سارة»، وتضاعف ذلك التّضاعف بعد علْمِها بعدم قدرتها على الإنجاب، ولذا يجبُ عليه استثمار ذلك الآن، المنتصرُ هو مَن يفرض شروطَه فقال لها بلهجةٍ جادّة:

– علاقتي بـ«سارة» علاقة عمل، وقلت لك سابقًا أنها خطيبة صديقي، لذا لن أقبلَ بأي خزعبلات تمسّها بعد الآن، أنا رجل أدري جيدًا ما أفعل، ولست طفلًا يسيلُ اللّعاب من فمه خلف كلّ جميلة يراها، فرجاءً مِن الآن فصاعدًا لا تتحدثي في أيّ شأن يخصّ عملي، ولا تذكري اسمها بلسانك مطلقًا.

توقّفت ملعقتها في منتصف الطريق إلى فمِها، واتسعت عيناها دهشة، وحاولت كظمَ نشيجها ولم تُفْلح، لمعتِ الدموعُ المختنقة بطرفي عينيها، وارتجّ جسدها بقوة، وكأنّ بداخلها بركانًا على وشك الانْفجار، وبصوتٍ متقطّع قالت:

– أنا ذاهبة لأهلي يا «ماجد».

بكلّ جمود قال لها:

– كما تشائين.

حاولت أن تقومَ واقفة، ولكنْ شعرت بساقيها لا تقوَيان على حملها، فجلستْ ذاهلة وهي تمسحُ دموعها المُنسابة بصمت واستمرار، في حين حاول «ماجد» استكمالَ مأكله، لم يستسِغْ طعمها فقام ملوّحًا بيده، وانطلق تاركًا إياها تجاهد كلّ ما يعتمل بها، حاول إيقاف إحدى سيارات الأجرة فلم تتوقّف، فقرّر أن ينطلق سيرًا على قدميْه وهو يشعر بالإثم، لم يرها يومًا بمثل ما هي عليه الآن، الوحيدة التي لم تخطئ في حقّه يومًا، الوحيدة التي أحبّته حبًّا صادقًا طاهرًا نقيًّا، لقد كانت تسعى ككلّ أنثى عاقلة للمحافظة على بيتها؛ فهل أجرمَت؟!

غيرتُها حقّ فطري مشروع، ولم تتعدّ الخطوط الحمراء فيها بعد، بل كانت غيرة عاقلة هادئة، لمَ طعنَها هذه الطعنةَ الهائلة؟!

هل هذا جزاءُ ما فعلت له اليوم؟!

لماذا يقابل إحسانَها بهذه القذارة؟!

ضرب بقدمِه حصاةً أمامه نادمًا على ما فعل، هل يعودُ إليها معتذرًا، وقد وصلتها الرسالة؟

لمْ يعتذر إليها يومًا رغم أنّها لا تكفّ عن الاعتذار له عمّا فعلت وما لم تفعل، هدفُها رضاه بأيّ صورة كانت، حتى لو

كانت تفعلُ كلّ ذلك بسبب عقمها، فهو ليس ذنبها فقد ابتلاها الله بذلك، فلماذا يزيد عذابها؟ المسكينة حاولت الخروجَ مِن بئر الكآبة الذي وقعتْ فيه محاولة إسعادَه فإذا به يئدُها حيّة!

عاد مسرعًا إلى حيث تركها، لن يعتذر، ولكن سيمنع ذهابها لأهلها، ومرورُ الوقت كفيلٌ بعلاج آثار هذه الطّعنة، ولكن كانت المائدة خاليةً وما زالت تحمل الكوبيْن غير المكتمليْن شاهدين على نذالتِه وخسّته مع أكثر مخلوق أحبّه وأخلص له في هذه الدّنيا، لقد سبقته واستقلّت إحدى السيارات التي توقّفت لها!

حاول إيقاف سيارة أخرى ولم تقف، فلعَنَ في سرّه كلّ سيارات الأجرة، لماذا تعاندونني جميعًا أيّها الأوغاد! قرّر العودة مشيًا على قدميه رغم بُعد المسافة إلى شقّته، عسى أن يتخلّص من المرارة التي تعتصر حلقَه، كيف سيدخل شقتها وهي ليست بها؟! ثلاثُ سنوات مرّت لم يخطر بباله أو بالها يومًا حدثٌ كهذا، أن تذهبَ غاضبة لأهلها.. ترى ماذا ستقول لهم؟ وكيف سيردّ عليهم، ترى إلى أيّ مدى ستتطوّر الأمور؟

ظلّت كلّ الشكوك والاحتمالات القريبة والبعيدة تتلاعب برأسِه حتى وصل وقد نالَ منه التعبُ النفسي قبل الجسدي، فرأى ذلك أفضل ما حدث، سينام مباشرة وقد أنهكَه التّعب، فتح البابَ بتمهّل وإذا بالشمس تشرق مجدّدًا قُبالته، فقد كانت «هدير» بالداخل منتظرةً له، تبخّرت كلّ متاعبه وتبدّلت مشاعره للنقيض، اندفعَ نحوها محتضنًا إيّاها وهي تبكي قائلة:

- ثلاث سنوات عشتهم معكَ، كنت أنت روحي التي أتحرّك بها، لقد قلتُها لك من قبْلها وأغْنيها حرفيًّا.. لا يمكنني العيشَ بدونك.

***

قبيل أحدِ أشهر الكمائن الثابتة توقّفت «سارة» بسيارتها، وبجوارها «ماجد» يرتعدُ خوفًا، لقد كان اللقاءُ الماضي معهم قاسيًا، وتاريخهم تسيلُ منه الدماء، فهل حقًّا ستنطلي عليهم خدعُ «سارة» غير المحترفة؟ حتى لو كان ذكاؤها فائقًا، وجرأتها كبيرة، فلا تدري ما هي قوتهم وخبرتهم التي ربما توصّلوا بها إلى كافة التفاصيل الآن، بعد خمس دقائق من التوقّف جاءهم جنديٌّ شاحبٌ نحيفٌ يطالبها بالتحرّك، بابتسامتها السّاحرة التي تعمّدت مضاعفة تألقها قالت له:

– حاضر، سأنهي مكالمتي وأتحرّك حالًا، هل يرضيك التحرّك ومعي مكالمة، قد أتسبب في حادث بسببها؟

نالت جاذبيتها منه كما توقّعت، فابتسم لها وقال:

– لا بالطبع، ولكن لو رآك الضابط سيعاقبنا.

مدّت يدَها إليه بعلبة سجائرها، وهي تحافظ على سحرها قائلة:

– خذْ هذه هديةً مني، ولا تقلق سأتحرّك حالًا.

تناول الشابُّ العلبةَ منها مبتهجًا، وانطلق بعد أن طالبها بسرعة التحرّك، وذهب قائلًا لزميله:

– حتة دين مُزة ياله!

في حين انطلق رنينُ جوّالها، فأجابت ساخرةً على مفاوضيها قائلة لهم:

– ليس كمينًا لكم، لست بهذه السّذاجة، مجرد تأمين لنا.

صمتَتْ قليلًا ثمّ قالت:

– ستتوقّف بجواري وتمنحني المغلّف به ما أردت، وتنطلق مسرعًا.

بعد طول صمتٍ قالت:

– لا يوجد أي ضمانات هذه شروطي، بعد التيقّن من المبلغ وأنّ شريحة الجوّال هي المطلوبة؛ سأرسل لك صورة الوثيقة عبر «الواتس آب».

صمتَتْ وهي تهزّ رأسها يمينًا ويسارًا دلالة أنّ ما تسمعه مجردَ هراء بالنسبة لها، وقالت:

– يمكنك إلغاء الصفقة بسهولة.

ضحكتْ ضحكتها القصيرة وقالت:

– تحرّك بسرعة الآن، لن يطولَ انتظاري.

سألها «ماجد» قائلًا:

– لماذا كلّ هذا التعقيد؟ كان من الممكن تركُ المغلّف بمكان آمن، وبعد نيلِه نرسلُ لهم الصورة، ولا حاجة لنا بالمواجهة المباشرة هذه!

نظرتْ له مطوّلًا وقالت بتحدٍّ:

– يسعدني رؤية وجوههم المغتاظة.

همّ أن يحدّثها، ولكن توقّفت السيارة السّوداء بجوارها، وقبْلَ أن يصلها الجندي مجدّدًا، كانت قد نالتِ المغلّف منهم، وقد تمتّعت بنظرةِ ونبرةِ الغيْظ لديهم عند قولِ أحدهم:

– ثقي بقدرتنا على نيْل حقوقنا والوصول إليك لو كنتِ مُخادعة.

بابتسامتها الساخرة الواثقة قالت:

- ستكملُ طريقك بشكلٍ مباشر، وسوف ألتفّ عائدة إلى الطريق المعاكس الآن، واحذرْ أن تتبعني أنت، وإلّا لن تحصلَ على وثيقتك.

وصلَ الجندي قائلًا (بخوف هذه المرّة):

- لو سمحتم يا أساتذة، يُمنع التوقّف هنا.

تحرّك الرجل بالسيارة دون أن يجيب عليه، في حين منحتْه «سارة» بسمتَها التي تلاعبتْ بوجدانه، وقالت له:

- شكرًا يا دُفعة.

وبدأت التحرّك، و»ماجد» بجوارها يحمدُ الله على انتهاء الأمر هكذا بسلام.

***

في غرفة «معتز» وأمام حاسوبِه جلس «ماجد» ووميضُ الشاشة يلمعُ على وجهه، وعيناه متّسعَتان في اهتمام وترقّب محاولًا استرجاع بريد «نجاتي»، وبعد دقيقتَيْن ظهرتْ له صفحة تقوم بتحميل محتوى البريد الوارد إليه، وأخيرًا فتحت

له ليجدَها بيضاءَ لا شيء فيها، فنظرَ نحو «معتز» و»سارة» اللذيْن يجلسان خلفه مترقّبيْن ردّ فعلِه، فقال لهم بخيبة أمل:

- البريد فارغ تمامًا!

قامت «سارة» تطالعُ الشاشة، زفرتْ بقوة وأمسكت بالفأرة، وضغطت فوق مجلّد البريد المُرسل، وهي تقول له باستنكار:

- ما حاجتنا إلى البريد الوارد أيّها التائه، نحن نريد البريد المُرسَل فقط!

ظهرت أمامَها الصفحة المُرادَة، وبالفعل كان بها خمسُ رسائل، بجوار عنوان كلّ واحدةٍ فيهم علامة احتوائها على ملفّ مُرفق، وبتوافُق عجيب رفعتْ هي و»ماجد» قبضتَهما المضمومة وهُما يقولان كلمة «نعم» بالإنجليزية، كاد «ماجد» أن يقوم ليحتضِنَها من شدّة فرحته، لولا تذكّره بأنه لا حقّ له فيها، وأنّ خطيبها يجلس وراءه! فتح الرسائل، وكانت بالفعل كلّها تحملُ نصًّا مشابهًا لما جاءه، وبكلّ منهم وثيقة تختلف عن الأخرى، وعلى الفور وبلا تأخّر قام بتنزيل تلك الوثائق، وبدأ في استعراضِها، لتتصاعد دهشتُهم جميعًا إلى الذّروة، وعلى الجانب القصيّ من مكتب «معتز» كان جوّال «نجاتي» ملقًى

بإهمال بعد نزع شريحة الخطّ منه، ولكنْ كانت تُبثّ منه إشارة إلكترونية خفيّة، نقلت للطرف الآخر موقعَهم بمنتهى الدّقة!

***

- الآن تغيّرت كلّ الخطط، نحن بحاجةٍ إلى خال «معتز» و«عبد العاطي»، وكذلك سطوة «عرفة».

نطقت بها «سارة» أثناءَ رحلة هبوط المصعد البطيئة من الطابق المقيم به «معتز» عند أهله، فردّ عليها «ماجد» قائلًا:

- بخلاف خُزعبلات الجنّ هذه، الأمر بالفعل لن يتمّ إلّا بمشاركتهم.

فتحت «سارة» بابَ المصعد، وكعادتها استبقت «ماجد» في الخروج منه، وهي تهمّ بالردّ عليه، ولكن بترتْ جملتَها قبل أن تولَد، وإذا بعيني «ماجد» تلتقطان مسدسًا ضخمًا يدسّ بجانبها، ورغمَ رعبِه وهلعِه اللذيْن كادا أن يشلّاه إلّا أنه سارع بغلق بابِ المصعد وأخذ يضغط على زرّ صعوده بشكلٍ عشوائي وسريع، وهو يكادُ أن يخرّ له ساجدًا ليستجيب بالتحرّك قبل النّيْل منه، ساعده مقاومة «سارة» التي حاولت الإفلاتَ بسرعة منحنية ودافعة قدمها بقوّة إلى ما بين ساقي

المهاجم الذي صرخ ألمًا، وكاد أن يطلقَ رصاصته بالفعل نحْوها لولا أنْ علا صوتٌ آخر عند نهاية الممَرّ يحمل مسدسًا مشابهًا لما تهدّدت به قائلًا:

- لا تقتلها.

رأت «سارة» المسدسَ الآخر، وعلمت ألّا فِكاك، فتوقّفت رافعةً يديها، أمسك المجاور لها بخصلةٍ مِن شَعْرها وجذبه بقوّة آلمتها، وهو يقول لها:

- هل تظنّين نفسك بالقوّة والبراعة الكافية للتغلّب علينا! بيني وبينك ثأريْن الآن.

تبيّنت «سارة» أنه ذلك الذي آلمته من قبْل برشّ وجهه عند أول مواجهة، رغمًا عنها نالها الخوفُ هذه المرّة؛ فالمواجهة غير متكافئة، فقالت:

- ماذا تريدون؟

دسّ الرجل المسدس في جانبها مجدّدًا، وأشار نحو السيارة السوداء المتوقّفة قُبالة باب العمارة قائلًا:

- تحرّكي نحو السيارة حتى لا نجذبَ الأنظار، ويزداد الضحايا بسببِك.

تحرّكت وهي لا تدري مصيرَها، في حين راقبَ الآخر مؤشرَ المصعد وقد توقّف عند الطابق العاشر، فقال لها:

- اتّصلي بزميلك ليهبط إلينا طواعية، لن يفلتَ منّا بسهولة، يمكنُنا استخراجه بأكثرَ من طريقة صاخبة.

استقرّت «سارة» داخل السيارة، واتّصلت بـ»ماجد» الذي ردّ عليها بهلعٍ قائلًا:

- «سارة» هل أفلتّ منهم؟

بصوتٍ لم يسمعه منها من قبْل قالت له:

- تعالَ يا «ماجد» لا فائدة ممّا تفعل.

حاولَ «ماجد» الصعودَ إلى سطح العمارة فوجد بابَه مغلقًا بقفلٍ كبير، فكّر هل يهبط إلى شقة «معتز» محتميًا بها؟ ولكن هذا ًأول مكان سيدخلون إليه، ويصيبُ كلّ مَن فيه الضّرّر بسببه، هل يحاول طرق باب إحدى الشقق ليختبئ عندهم؟

ولكن مَن سيصدّق قصته وبعدها يغامرُ بمساعدته، منذ شهر اختطفت شابّة أمامه في أحدِ الميادين الشهيرة بالقاهرة، كانت تصرخ والخاطفون يجرّونها نحو سيارتهم وانطلقوا بها مُسْرعين، والجميع ينظر نحْوها في دهشةٍ إلى حين قصير دونَ

محاولة التدخّل، وبعدها انصرف كلّ منهم لشأنه حامدينَ الله أنّ الأمر لا يخصّهم!

ردّ على «سارة» بأنه قادم إليها، وهو يتحرّك ببطء معتصرًا مخّه للوصول إلى التصرّف السليم، وجاءته الفكرةُ التي يراها أفضلَ الحلول فسارعَ بتنفيذها وهو يسابق الزمنَ بها أثناء رحلة تسليم نفسه إليهم.

***

في شقة كبيرة، وبأطراف حي المعادي، جلست «سارة» ملتصقةً بـ»ماجد» على كنبةٍ قصيرة وهو فاقدُ الشعور بملامستها، همسَ لها قائلًا:

- هل رأيت نتيجة استهتارك ونرجسيّتك؟

ردّت بغيظ قائلة:

- هل تظنّ بأنهم تبعونا؟!

- لا، لقد بحثوا عنّا عبر خرائط جوجل.

- كفّ عن هذه اللّهجة؛ لا أحبّها.

قاطعهم صوتُ الرجل الذي دخل إليهما قائلًا (بحسْم):

- هلّا كفَفْتما عن الصراع الآن؟

اعتدلا في مجلسهما، وهُما يعودان بظهريهما إلى الخلف في وجَل، في حين جذب الرجلُ كرسيًّا وجلس قُبالتهم وهو يضربُ بجانب المسدس بطنَ يدِه الأخرى مُستطردًا:

- أنت لم تذهب بعيدًا عن الحقيقة كثيرًا، لقد وصلنا إليكما عبرَ جهاز تحديد المواقع المزروع داخل جوّال ذلك المدعو «نجاتي».

نظر «ماجد» نحو «سارة» كأنّما يلومها على ذلك، في حين عقدتِ الأخيرة حاجبيْها نادمةً بالفعل على عدم التخلّص منه فور تسلّمه وانتزاع الشريحة منه، فقد كان ذلك مِن البديهيات وقدْ بدأت التفاوض معهم عبرَ آخر مزروع بجهاز «أميرة»، استمر الرجل في الحديث قائلًا:

- الآن نذهب للحديث الهامّ.

هتف «ماجد» قائلًا:

- لعلمك لقد..

قاطعته «سارة» بحسْم قائلة:

- اشترِ فقط أيّها المغفّلُ.

صمت «ماجد» في حين عقدَ الرجل حاجبيه متسائلًا:

- ماذا يعني ذلك؟

بجمودٍ قالت:

- بمعنى ما المطلوب منّا الآن؟

نظر الرجل نحوَها متحدّيًا بصمتٍ مطوّلٍ، ثمّ التفت نحو «ماجد» وهو يشهر المسدسَ في وجهه قائلًا:

- تحدّث بما أردت.

عاد «ماجد» بظهره للخلف رعبًا ليصدّه مسند الكنبة، وقال بفزع:

- لقد محوت كلّ نسخ الوثائق من البريد والجوّال، وكذلك الحاسوب.

عقد الرجل حاجبيه، وكذلك فعلت «سارة» وهي تنظر نحوه في دهشة، فاستطردَ «ماجد» قائلًا (بسرعة):

- لقد فعلتُ كلّ ذلك أثناء رحلة هبوطي إليكم من أعلى العمارة، اتّصلت بـ»معتز» ليحذفَ كلَّ شيء لديه بشكلٍ نهائي لا يمكن استرجاعه، ومحوْتُ من جوّالي كلّ شيء، حتى نصبح ذوي أهمية لديكم، فمحتوى الوثائق داخل رؤوسنا، وبهذا لن تتخلّصون منّا.

لأول مرة تنظر «سارة» نحو «ماجد» بإعجابٍ فابْتسمت قائلة:

- رائع.

هزّ الرجل رأسه، وعاد بظهره للخلف قائلًا:

- لا أصدّقك.

ناوله «ماجد» جوّاله قائلًا:

- تفضّل، البريد ما زال مفتوحًا بمتصفّح الجوّال، ستجده نظيفًا حتى سلّة المهملات به مفرغة كذلك، ولن تجدَ في ملفات الجوّال نفسِه أثرًا لها.

تناول الرجلُ الجوّال منه، وأخذ يتطلّع إلى محتواه، وعقد حاجبيْه بقوة، وقال متسائلًا:

- هذا ليس بريد «نجاتي» الذي نعرفه!

ارتفع حاجبا «سارة» في تفهّم، وقالت:

- بالطبع أنشأ بريدًا جديدًا لهذا الغرض، وبهذا لا يمكنُ اختراقه لجهْل الجميع به.

ألقى الرجلُ الجوّال بطول ذراعه بعيدًا وقال بغيْظ:

- حسنًا، لقد تحقّق مرادك، ولكن هل تظنّ بعجزنا عن استخراج كلّ ما تعرف مع تقطيع أوصالك قطعةً قطعة، وبلا أيّ مقابل.

وضعت «سارة» ساقًا فوق الأخرى، وقالت:

– حتى لو توصّلت للمعلومات التي تريدها، فبدوننا لن تفيدك بشيء؟

– لماذا أيّتها البارعة؟!

بمنتهى الثّقة ردّت قائلة:

– بظنّك لِمَ عجزَ اللورد كرومر رغمَ سطوته عن الوصول إلى الكنز؟ وهل تظنّه الوحيد مَن حاول ذلك منذ ما يقرب من قرن؟

عقدَ الرجل حاجبيه، وقال:

– لا أدري.

ضحكت ضحكتَها القصيرة، وقالت:

– لأنّ السرّ كان محصورًا بينكم فقط، عندنا حكمة عربية تقول «أهل مكة أدرى بشعابها»، لو كان معكم شريكٌ مِن أهل هذه البلدة؛ لتغيّر الحال وزال ذلك العجز عنكم.

صمتَ الرجل مطوّلًا مفكّرًا، ثمّ قال:

– بمعنى؟

أنزلت ساقَها عن الأخرى، ومالت للأمام قائلة بصوتٍ عميق:

- فلنوقف الصراع، وننتقل من خانة العداء إلى الشّراكة، وبهذا تجتمع كافّة القوى بقبضةٍ واحدة قادرة على الوصول إلى الكنز الذي حتماً سيغرق الجميع ويفيض.

ضحك الرجل وهو يهزّ رأسه، وقال:

- حديثك مُقنعٌ ورائع، ولكن هل يمكن الوثوق بك؟

هزّت كتفها قائلة:

- ونحن أيضًا نتساءل.. هل يمكن الوثوق بك؟

بعد تفكيرٍ نطقَ الرجل قائلًا:

- حسنًا، فلتكن هناك ضمانات للطرفيْن، نبدأ بعدها العملَ مباشرة.

***

- العهد المصري القديم كانت له إنجازات معمارية ما زالت تذهلُ العالم أجمع، أبرز شاهدٍ عليها حتى الآن هو أهراماتُ الجيزة، والتي يشيد الجميع بمدى عبقرية إنشائها، وطُرحت الكثيرُ من النّظريات والافتراضات حول كيفية رفع صخرةٍ وزنُها يزيد عن خمسين طنًّا بدون روافع إلكترونية عملاقة!

البعضُ طرحَ نظريّة المنحدر الرملي الصاعد بارتفاع متزايدٍ مع كلّ ارتفاع في بناء الهرم، وجذب الصخور فوق جذوع الأشجار المتدَحْرجة، ولكن أيّ قوة تلك مهما كان العددُ كبيرًا يمكنها أن تجرّ حجرًا هكذا، حتى لو كان الارتفاعُ بانحدار بطيء؟!

والبعض طرح نظرياتِ إنشاءِ موجات كهرومغناطيسية وموجات صوتية تتسبّب في انعدام الجاذبية، وبالتالي يمكن رفعُ هذه الأثقال بسهولة، وآخرون تحدثوا عن مساعدات من كائنات فضائية!

ولكنْ ظهرت نظرية بسيطة جدًّا، وفيها التفسير المنطقي لكلّ ذلك، كيف يمكنك رفعُ ماءٍ إلى الطابق العاشر بدون روافع إلكترونية؟! بكل بساطة تعتمدُ على قوة اندفاع الماء.. وهذه هي النظرية، فيضانُ النيل وقوةُ الماء هي الثروةُ الكبيرة لذلك العهد، وقد تمّ استخدام الماء لرفع كلّ تلك الصخور عبرَ قنوات تمّ التحكّم فيها جيدًا، سواء بالتوزيع الهندسي الدقيق أو باتساع قُطرها بما يتناسب مع السرعة المطلوبة وحجم الصخرة المُرادُ رفعُها، وأيّد هذه النّظرة ما ذكره السيد «سليم حسن» بموسوعته «مصر القديمة» بالجزء الثاني؛ حيث قال بعدّة مواقع منها:

- «ومن المدهش أنّ الحفائر التي عملت في منطقة الأهرام حديثًا كشفت لنا عن ظاهرة جديدة، فقد وُجد بجوار البئر التي تؤدي إلى حجرة الدّفن بئرٌ أخرى لا تؤدي إلى حجرة دفن.. ولا يُعرَف السببُ الذي مِن أجله حُفرت.. وتكرّرت هذه الظاهرة أكثرَ من مائة وخمسين مرة».

- «وعندما كان يفيضُ النّيل على البلاد لا تظهر إلّا المدن فقط من وسطِ الماء ويكونُ مثلها كمثلِ الجُزر الصغيرة في بحر إيجة، ويصير باقي مصر بحرًا، وعندما يحدث ذلك فإنّ القوارب لا تسير في مجرى النهر فقط، بل تسيرُ في طول السّهل وعرضه، والمسافرُ من نقراش مُتجهًا نحو منْف يمرّ بالضبط بالقرب من الأهرام».

- «وخلف هذا الباب الوهمي كان يوجد البئر.. وكان يصل عمقُه أحيانًا إلى ٤٠ مترًا! وهذه الآبار كان الجزءُ العلوي منها مبْنيًّا بالأحجار إلى أنْ يصل إلى الصّخر، فيَنْحت فيه إلى العمق المطلوب!».

- «غيْر أنّنا لم نعثر على ألقابٍ تدلّ على وجود هذه المصلحة، اللّهم إلا لقب «رئيس بيت الماءٍ» الذي كان يحمله (رع ور)».

- «وعلى أيّة حال، فهناك حقيقة لا مِراء فيها، وهي أنّ المصريين منذ فجر تاريخهم، بل منذ عصرِ ما قبل التّاريخ كانوا يسبحون في البحر».

بعد تيقّننا الآن من عبقرية استخدام الماء في ذلك العهد القديم، لو بحثنا جيدًا في قصّة قارون التي ذكرها القرآنُ الكريم سنجدُ وصفَ مفاتيح خزائنه الحاوية لكنوزه الكبرى، بقول الله، عزّ وجلّ» عنها: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}، كان الوصفُ الوحيد لهذه المفاتيح هو مدى ثقلِها، وليسَ هيئتها أو نوعها!

فهلْ كان قارون يستعينُ بها لا يقلّ عن عشرةٍ من الرجال أولي القوة الذين تنوءُ بهم ثقلُ المفاتيح كلَّ مرةٍ يريد فيها دخولَ خزائنه؟! وكم مرةٍ كان يفعلها؟!

الحلُّ بسيطٌ جدًّا، لم يكنْ في حاجةٍ إلى أيّ عُصبة من الرّجال، لقد استخدم قوّة الماء في دفع الصّخرة العظمى التي تسدّ بابَ الدخول، وغلقها بها بعد انتهائه.

وهذا هو السرّ الذي نحن بصدَدِه الآن بعد كشْفنا لسرْداب قارون، فذلك السرْداب سيؤدي إلى البابِ المنغلق بصخرته

العظمى، والتي حتمًا لن نستطيع زحزحتَها عن موضعها، ولكنّ قوة الماء هي التي ستفعل، فعندَ الشّلال الذي تهبط منه المياه باندفاعٍ شديد سيتمّ إعادة توجيه هذا الماء ليدخلَ الفوّهة الموجودة خلفه بزاوية تسعين درجة، ويجري الماءُ في القناة المخصصة لذلك، ويقوم بتحريكِ عدّة صخور كقِطَع البازل إحداها يمينًا والأخرى يسارًا، فتهبط واحدةٌ وتنزاح أخرى حتى نجدَ الصّخرة المُرادة قدْ تحرّكت كاشفة لنا كنوزًا لمْ يتناقل التاريخ أخبارًا شبيهةً لها!

توقّف «ماجد» وهو ينظرُ إلى الجمع المترقّب في صمت، منتظرًا تعليقَ أحدهم أو حتّى إشادة ببراعته في الشّرح، ولكنْ كانت الأعين مشدوهةً بغرابة ما ذكر، وإن كان تجمُّعُهم سويًّا يعدّ أكثرَ غرابةً ممّا قال، فلمْ يخطر بباله من قبْل- ولو لوهْلة- أن يضمّه مجلس تعاوني مع كلّ هذه الأطياف المتضادة، على اليمين «سارة» واضعة ساقًا فوق أخرى، بجوارها خال «معتز» و»عبد العاطي» الرّافض لشراكة كبيرة تضمّ كلّ هذا العدد، ويجاورهم «عرفة» بنظرتِه الحادّة الماكرة التي تتنقلُ بين «ماجد» تارة ووجوهِ الآخرين تارة أخرى؛ ليستكشف مِن خلالها مدى جديّة الأمر وصدقِه، وعلى أقصى اليسار يجلس

الرجلان الإنجليزيّان أحدُهما عاقدٌ حاجبيْه في رفض كذلك وعدمِ تصديق بأنّ ذلك سيؤدي إلى نتيجة، في حين كان زميلُه يستمع بمنتهى الانْتباه والاهتمام، أخيرًا نطق هذا الإنجليزي المهتمّ قائلًا:

- حسنًا، الآن فهمْنا بعضَ أجزاء اللّغز بالوثيقة التي أرسلت لي منها نسخة، هل من المُمكن كشف البقيّة؟

تنهّد «ماجد» ونظر نحو «سارة» نظرةً خاطفة، وقال:

- الجملة المتكرّرة على المقابر الفرعونية ما هي إلّا اسم أحدِ زعماء الجنّ، وهو المُراد به الاسم الخالد على حسبِ زعْم الوثيقة والمنقوش على سكينٍ فضي، ولكي يمكنُنا دخول السرْداب لا بدّ من استئذان هذا الزعيم الجنّي، وهذا الإذنُ لن يكون إلّا بخلطِ دماء تلك الحيوانات المذكورة «البقرة الصفراء، والجدي ملتَفّ القرون، والقطة السوداء».. وهذا ما أراه شعوذةً ولا أساس له مِن الصّحة، فهل سيظلّ هذا الزعيم ماكثًا عند فوّهة السّرْداب كلَّ هذه القرون حاميًا لها خدمة لِمَن هو أقلّ منه قوة وبأسًا! هل كان يتقاسم الكنز مع قارون؟!

أعقب جملتَه الأخيرة بضحكةٍ ساخرة متهكّمة، فهتف به «عبد العاطي» قائلًا:

– لا تسخرْ يا فتى، فلا تدري ما قدْ يُصيبك ويُصيبنا الآن باستهتارك هذا!

نظرَ نحو «عبد العاطي» باستخفافٍ واستطرد بلا تعليق على جُملته:

– تبقَّى لنا الرمزُ الأخير في اللّغز.. فرض الحراسة المشدّدة على قدْس الأقداس يومَ الحادي عشر من ديسمبر، أظنّ بأنّ هذا كان اليوم المزعوم لدخول السّرداب وقتَ قيادة اللورد كرومر لهذه الحَملة، ولا تدلّ على شيء خاص، كان يريدُ فرضَ الحراسة حول قصْره الذي بناه فوق فوّهة السّرداب حتى لا يكتشّف العامةُ السرَّ الكبير، وينتشر الخبر.

نطق الإنجليزي المهتمّ قائلًا:

– خطأ، قد يكون يومًا تتحرّك فيه الصخور بانْسيابية مرتبطة بمدٍّ أو جذْر، أو حتى تزيد فيه شدّة اندفاع الماء؛ لذا يجبُ الالتزام بهذا التّاريخ.

أيّد خال «معتز» هذا الكلام قائلًا:

– وقد يكون هذا هو اليومُ الذي يسمحُ فيه ملكُ الجنّ بقبول الهديّة التي تصرّح لنا بالعبور.

قلّب «ماجد» كفّيه قائلًا:

- لا عليكم، فلْتَلْتزموا بما أردتُم، السؤالُ الآن.. لمَ لمْ يصل اللورد كرومر إلى الكنز رغم توفّر كلّ المفاتيح لديْه؟

هتف «عبد العاطي» قائلًا:

- حتمًا لم يصلْ إلى السّكين الفضي الحامل لاسْم ملك الجنّ، فهل نستطيع نحنُ الوصول إليه؟

تنحنَحَ الإنجليزي المهتمّ قائلًا:

- في الحقيقة، رحلتُنا هذه بدأت بعثورنا على ذلك السّكين في لندن، ومعرفة أسطورته؛ لذا فهو معنا الآن، وبالتالي هناك سببٌ آخرُ كبير.

أشار «ماجد» نحوه بيدِه قائلًا:

- هذا ما أشرْنا إليه مِن قبْل، كان ينقصُه تعاون المصريّين لأنّهم هُم الأدْرى بأرْضهم، فهو لم يتمكّن من الوصول إلى السّيْل أو الشّلال المُراد، والذي سيتمّ تحويل مسارِه ليقوم برفعِ الحجارة.

فقال الإنجليزي النّاقمُ:

- وها أنتم معنا، كيف ستفيدوننا؟

أشار «ماجد» نحْو خال «معتز» و«عبد العاطي» قائلًا:

- معنا رجلان أدْرَى بكلّ شبر في الفيوم، ليس على سطحها فقط، وإنما بباطنِها أيضًا، وأثقُ بقدرتهم على الوصول إلى الشّلال المُراد.

همَّ خالُ «معتز» أن ينطقَ، ولكن ضربَه «عبد العاطي» بكوعِه ضربةً ظنّها خُفْية، ولكنْ لمحها «ماجد» فنطقَ قائلًا:

- لدى كلِّ منّا ما يحتاجه الآخرون، ولنْ يتمكّن طرفٌ مُنفرد الوصولَ بلا تعاون مُشترك، لا تكتمْ شيئًا ظنًّا بقدرتك على الوصول وحدَك.

أشار «عبد العاطي» نحو «عرفة» قائلًا:

- وبماذا سيفيدنا هذا الرجل؟!

همّ «عرفة» أن يهدّد ويتوعّد، ولكن قاطعتْه «سارة» قائلة:

- هل تظنّ أنه من السهل الدّخول إلى قصر اللورد كرومر الأثري، والعمل بداخله؟! هذا الرجل بسطوته سيمهّد لنا ذلك.

اتّسعت عينا «عرفة» دهشة، وقد تفاجأ بدوْره، كان يظنّ سطوته هي المؤهل الوحيدُ لهذه الشّراكة مهددًا إيّاهم بالقبض عليهم إنْ لم يحدث، ولكنّ «سارة» أشارت بيدها فوقَ عنقها دلالة الذبح وهي تغمزُ له قائلة:

- مِن السّهل التخلّص منك لو انعدمتْ فائدتُك، أنتَ هنا تتحدّث عن كنز أسطوري.

أدركَ «عرفة» ما فاته فهزّ رأسه قليلًا في خوفٍ وصمتٍ، ثمّ قال:

- نعم، سوف أقوم بدوري هذا.

نظرتْ «سارة» نحو خال «معتز» قائلة باهتمام:

- تفضّل يا خال، تحدّث بمنتهى الحريّة.

تردّد الرجلُ قليلًا، ثمّ قال:

- في عملنا السابق كنّا نبحث دومًا عن أماكنَ بعيدة وصعبة لإخفاء ما نجدُ بها، حتى يتيسّر تحريكها وبيْعها أو خروجها من مصر، وقد اكتشفنا بالفعل كهفَيْن كبيريْن، بهما ظاهرة عجيبة، يوجَد بالأعلى فتحةٌ جانبية يهبط منها الماءُ كشلّال هادِر إلى حفرة بقاعِ الكهف لتختفي فيه، ولا يتوقّف هذا الماء أبدًا، ولا نعلم مِن أين يأتي، أو إلى أين يذهب؟!

هتفت «سارة» قائلة «واااو»، في حين كادَ «ماجد» أن يتراقص وهو يقول:

- لقد وصلنا إلى ما عجزَ عنه اللورد كرومر، مِن المنطقي بالفعل أنْ يكون مفتاح خزائن قارون في موضعٍ خفيّ كهذا،

الآن يكفينا الذهابُ ورؤية أيّهما يخفي خلفه فوّهة قناة، حتماً بمنتصف المسافة بين مصدَرِ هبوط الماء إلى بداية المَصَبّ، وستجدها مقابلةً لباب الكهف الذي تدخلُ منه الشمس متعامِدةً على ذلك الشّلال.

نظر «ماجد» نحو الإنجليزي المهتمّ قائلًا:

- هل وصلنا الآن إلى حلّ اللّغز الكبير؟

هزّ الرجل رأسَه راضيًا، في حين قال زميلُه بغلظة:

- لا أعتقد بأنّ الأمر قد انتهى بهذه السّهولة، فقد لا يحتوي هذان الكهفان على ما تقول، ويلزمُنا وقتَها البحث عن كهفٍ ثالث لا ندري متى سنصلُ إليه!

هزّت «سارة» كتفيْها ببساطة قائلة:

- ما الذي يشغلنا؟ سنبحث عنه مهما استغرق الأمر، ألَا يستحقّ كنز قارون منّا ذلك الجهد؟!

سادَ صمتٌ دلالةَ الموافقة على ما فات، وقفت «سارة» قائلة:

- الآن سيتمّ توزيع الأدوار، السيد «عرفة» مهمتُه تيْسير دخولنا إلى قصر اللورد كرومر بما نريدُ مِن أجهزة، والتي حتماً

سنكون في حاجةٍ إلى بعضها مثل أجهزة التردّد الصوتي التي ستكشف لنا موضعَ السّرداب بغرفة نوم اللورد، فنبدأ بالحفر عندها حتى نصلَ إلى بداية السّرداب، السيدان الإنجليزيّان مهمتهما إحضار هذه الأجهزة، سنذهبُ نحن مع السيد «عبد العاطي» والخال لمعاينة الكهوف والوصول إلى المستهدَف منها، ومعرفة المطلوب حتى يمكننا تغيير مسار الماء، وبعدها مَن يؤمن بخرافة ملكِ الجنّ هذه فليأت هو بالحيوانات المطلوبة، وليَقُم بذبحها فوقَ النّقطة المُرادة، وموعدنا هو الحادي عشر من ديسمبر، أي بعدَ أسبوعٍ واحد.

انفضَّ الجمع، وظاهرُ الأمر هو الاتّفاق على ما فات، في حين كان برأسِ كلِّ مجموعة منهم خططًا مُستقلّة ومختلفة تمامًا.

❋❋❋

انتفض «ماجد» من نومِه وهو يشعر باختناقٍ كأنّما هناك غصّة بحلقه، قاوم قليلًا حتى زالت واسْتعادَ أنفاسه المسلوبة، كانت «هدير» ساجدةً وكعادتها تطيلُ فيه، ولكنِ اختفى دعاؤها الخالد، فلمْ يعدْ يطرقُ سمعه كالسابق، سحبَ نفسًا عميقًا والتّوتر يشملُه؛ فقد استيقظ من كابوسٍ آخر رأى فيه

الإنجليزيّين يطوّقانه ويكبّلانه بقوّة، ويقف بالخلف «عرفة» مشيرًا بيدِه طالبًا تنفيذ الأمر، و«عبد العاطي» يتوجّه إليه بالسّكين الفضي نحو رقبته، وهو يقول له:

– ملك الجنّ لا يرضى إلّا بدم بشري، وسيُرْضيه تقديمُك قربانًا إليه بعد سخْريَتك منه.

وما إنْ لامسَ حدّ السّكين البارد عنقَه حتى استيقظ مُنتفضًا غيرَ مصدّق بأنّ ما فات كان في عالم الأحْلام وليس حقيقةً كما كان يعيشها بجميع تفاصيلها!

قام مغتسلًا، وهمّ أن يبدأ الصلاة بجوار «هدير» التي رفعتْ صوتَها وهي في التّشهد، فعلم رغبتها في اللّحاق به، فانتظرَ حتى وقفت بجواره فانطلقَ في صلاته بصوتِه النديّ تلفّه الخشية الحقيقية والخشوعُ الكبير الذي أسال مدامعَه، ارتعدَ جسدُه بشعور جميل افتقدَه منذ أمَد، لكَمْ كانت روحانيتُه ألذّ مذاقًا عنده من كلّ مُتع الدّنيا! انتهى مِن صلاته فقبّلت «هدير» كتفَه قائلة:

– حفظكَ الله لي يا حبيبي.

كان بالفعل في حاجة شديدة إلى هذا الدّعاء، فاليوم هو الحدثُ المشهود، فيه ذروةُ الأحداث، مطلوبٌ منه أن يمدّ يدَه

بحذر وسط كومةٍ من الأفاعي الشرسة والسّامة، وأنْ يجذب بُغيَتَه مِن بينهم دون شعورهم به!

ضمّها إليه قائلًا:

- سامحيني يا «هدير» على كلّ تقصيرٍ أو أذى منّي نحوك.

سالت دموعُها قائلة:

- قلبي لم يحملْ منكَ سوءًا أبدًا.

وعند العاشرة صباحًا، احتضنها بقوّة قُبيل خروجه من باب الشقة، وهي تبكي بصمتٍ كأنّها تدرك بأنّ وداعه هذا قد يكونُ الأخيرَ بالفعل، وأخيرًا انطلق تصحبُه دعواتُها الغزيرة بأنْ يحفظه اللهُ ويردّه إليها ردًّا جميلًا.

وفي نفس التوقيت، كانت تنطلقُ السيّارة السّوداء يقودها الإنجليزي المتجهّم بجواره زميله، وبالمقعد الخلفي «سارة» و»عرفة»، تتبعُهُما سيارة ربْع نقلٍ ذات دفع رباعي أيضًا يقودها «عبد العاطي»، ولديه بالخلف خزانٌ صغيرٌ يحوي الدّماء التي تمّ تصفيتها من الحيوانات المطلوبة، وخلطهم بحذرٍ وعناية وإضافة بعض الموادّ المانعة للتجلّط بها.

وعند قصر اللورد كرومر، لم تكنْ هناك حركة، وقد مُنعت عنه الزيارة في هذا اليوم؛ بناءً على الخطاب الذي أتى

به «عرفة» بالأمس؛ مخبرًا إيّاهم بأنّ هناك لجنة أثرية إنجليزية ستقوم ببعضِ الأعمال التي تهتمّ بها جهةٌ سياديّة تطلب سرية الأمر.

ساعدهم الرجالُ في نقل خزّان الدم إلى غرفة نوم اللورد كرومر، وأخيرًا خرجوا إلى موضع تمركُزهم بالخارج؛ لحراسة اللّجنة الهامة جدًّا والتي بدأت عملها، تمّ إزاحة جميع ما يشغل الغرفة، واتّصل «عبد العاطي» برجاله عند الكهف المطلوب مطمئنًا بأنّ مسار الماء قد تغيّر عند تمام التاسعة إلى داخل الفوّهة التي تمّ العثور عليها بصعوبة، وفتح الجزء الذي كان قدِ انغلق بها، وبدأ الإنجليزيّان في استخدام جهازهما لاكتشاف فوّهة السّرداب، ولكن بعد ساعة من العمل الدءوب والدّقيق، وقف المتذمّر قائلًا:

– لا شيء هنا! كنت أعلم بأنّ الأمر كله مجردُ عبث.

نظر زميلُه بحيرة، فقد كان على يقين بصحّة الأمر؛ فكلّ الخيوط قد اجتمعت وفسّر بعضها بعضًا، ولا يوجد ثغرة بها، بل لقد تدارسا سويًّا كلّ شيء، وكل الاحتمالات القادمة، وأعدّوا لها عدّتهم، في حين قال «عرفة»:

– هل هذا الجهاز بالقوّة المطلوبة؟ فقد يكون مَداه غيرُ كافٍ لاكتشاف بداية السّرداب.

قال المتذمّر بعصبية:

– مداه يتعدّى مائتي مترًا، مِن المستحيل أنْ تكون الفوّهة بعيدة هكذا، والمنزل لم تتغيّر معالمه كثيرًا منذ بنائه، فكيف ستنغمر الفوّهة لأبعدَ من عدّة أمتار؟!

تنحنَحتْ «سارة» وقالت بحذر:

– أعتقد بأنّ الأمر يتعلّق بفتح باب غرفة الكنز.

نظر نحوها «عرفة» والإنجليزي باهتمام، في حين قال المتذمّر بعصبية:

– وكيف ذلك أيّتها العبقرية؟

اعتدلت قائلة:

– هل كنت تتخيل بأنّ السيد قارون تاركًا باب الوصول إلى خزائنه سهلًا هكذا؟! حتمًا جعل السّرداب ينفتح كذلك ضمنَ عملية فتح الخزائن، لذا الأفضل أنْ ننتظر حتى يقومَ الماء بوظيفته في فتحِ الباب، وبعدها نقوم بالفحص مرةً أخرى.

لوّح المتذمّر بيده في حين هزّ زميله رأسَه موافقًا، و»عرفة» يبتسم ابتسامة غامضة، ونطق «عبد العاطي» قائلًا:

- وماذا لو كانَ المفترض منّا هو استئذان ملك الجنّ أولًا بغمْرِ هذه الغرفة كلّها بالدّماء التي معنا؟

قالت له باشْمئزاز:

- وماذا لو كان تغلغلُ الدّماء يجب أن يصل إلى مدًى كبير تحت الأرض يتطلّب سكبه في نقطة محدّدة، وليس إهداره بتوزيعه على الغرفة كلها؟!

عقد «عبد العاطي» حاجبيه مقتنعًا برأيها وقال:

- ننتظر المحاولة التالية بالجهاز، وإنْ فشلت نسعى لتجربة غمْرِ الغرفة كلّها بالدّماء.

أشارت بيدِها نحوه قائلة:

- أوافقك جدًّا.

قال «عرفة» بتململ:

- وكم سننتظرُ حتّى ينتهي الماء من فتح الباب؟

قالت «سارة» بسرعة:

- مع الوضع في الاعْتبار بعضِ المعوقات والتغيّرات الجيولوجية التي حتمًا قد حدثت خلالَ كلّ تلك الألوف من السنين، ليس قبل اثنتي عشرة ساعة، وربما أكثر.

هتف الجميع في صوتٍ واحد قائلين:

- ماذا؟!

ضحكتْ ضحكتها القصيرة قائلة:

- هذا توقّعي وليس إعدادي للأمر، يمكنكم المحاولة كلّ ساعة تمرّ، فقد يحدث قبْل ذلك، المهمّ لا نبدأ في سكب الدّماء قبل منح الماء وقتَه الكافي، مع ضرورة التّواصل مع الرّجال عند الكهف، فقد يكون ارتدادُ الماء وعدمُ سريانه إلى الدّاخل هو المؤشرَ لذلك.

ببسمتِه التي يفوحُ منها كلُّ مكرِ الدّنيا قال لها «عرفة»:

- يبدو أنّك قد درست الأمر جيدًا.

نظرت إليه بتحدٍّ قائلة:

- ألَا يتطلّب الأمرُ ذلك؟

نظر نحو الرجال المترقّبين، وعاد للخلف محتفظًا بصمته قائلًا (بخفوت):

- نعم، يتطلّب ذلك.

وأخذت الساعات تمرّ ببطء، وقد نال التعبُ من الجميع، وكلٌّ منهم تدور بذهنِه سيناريوهات عديدة قد تفسدُ له خطتَه الجانبية، الإنجليزيّان يخْشَيان مللَ الرّجال المدجّجين بأسلحتهم وانْصرافَهم عن نقطة المراقبة المعَدّة لاصطياد الجميع وتصفيَتِهم، «عبد العاطي» كذلك لا يدري كيف يتّصل بـ»صميدة» و»راضي» لكي لا يأتيان بتصرّف غبي يفسد

ما أعدّه، و»عرفة» ينظر إلى ساعته ولا يجدُ سبيلًا للاتصال بشريكه الجديد والخفيّ، وحدها «سارة» عند السابعة مساءً نظرت إلى جوّالها وابتسمت ابتسامةً سريعة لم يلمحْها سوى «عرفة»، وقد أسرعت عيناه لمراقبة أصابعها التي تضغطُ عدّة مفاتيح وهي تمسك بالجوّال خلف ظهرها، فتيقّن مِن جميع شكوكه، وبدأت خطّته في التّعديل داخل رأسه، في حين اندفعَ المتذمّر إليها جاذبًا جوّالها لينظر ما به، وهي تقاوم بعينيْن غاضبتَيْن، ولكن بعد أن رأى ما فعلتْ أعاده إليها وعيناه يتطاير منها الشّرر، فقد كانت تكتبُ على برنامج «الواتس آب» ردًّا على رسالة «معتز» إليها التي يقول لها فيها:

- أقودُ السيارة وحدي الآن.

وردّها عليه قائلة:

- سعيدة بشفائك يا حبيبي.

***

- الآن -

بينما كانت تلك اليد الخفية تمسكُ بساعد «ماجد» وتجذبُه بقوّة في الظلام، وقُبيل انطلاق صرختِه مرّت بذهنه مشاهدُ الإعداد لهذه اللّحظة:

«سارة» منعتْه عن الحديث المباشر أو الهاتفي، وأشارت إليه لاسْتخدام برنامج «واتس آب» للتحاور، رسمت له الخطّة كاملة وبعقلِ ثعلبٍ حقيقي، وكأنّما قد تربّت وسط إحدى أعتى العصابات الإجراميّة، قالت له:

– أفضل ما فعلت في حياتك كلّها تخلّصك من كلّ الوثائق والاحتفاظ بما فيها داخل رؤوسنا، هكذا لن يصلوا إلّا لما نمنحهم إيّاه وفقط.

قال لها:

– ألمْ تقولي بأنّ تكاتف جميع الأيدي ستوصّلنا إلى الكنز، وأنه سيغطّي الجميع.

- هل تصدق أيّها الأبله أنّهم سيسمحون لنا بالمشاركة الفعليّة في الغنائم، سيتمّ تصفيتنا فورَ العثور عليه.

- ماذا سنفعل؟!

- سنشارك معهم كلّ شيء للفوز بما عندهم جميعًا، ولكن سنحتفظ بشيء واحد فقط لن يعرفَه سوانا مهما حدث.

- ؟!؟!

- باب السّرداب، لن يعلم مخلوقٌ بأنه موجودٌ داخل قصر قارون، سنقول لهم بأنّه داخل قصر اللورد كرومر، وأنّ بناء القصر كان لهذا الغرض.

- ولكن هذا ليس بقصر قارون الفعلي، فقد تمّ بناؤه في عهد اليونانيّين، وأطلق عليه هذا الاسم فقط لقرْبه من البُحيرة التي تحمل اسْمه، وكلّ ما يقال حوله من أساطيرِ هي خُزعبلات شعبيّة.

- لسنا بصدد هذا النقاش مجددًا أيّها الغبي، أيًّا كانت صفته فقد أثبتَتِ الوثائق بوجود فوّهة السّرداب داخله، وقدْس الأقداس هذا ليس سوى إحدى قاعاته، ويوم الحادي عشر من ديسمبر يوم تعامُدِ الشمس عليه بالفعل، فلا يعنينا مَن بناه هل هو «عبد العاطي»، أم رمسيس الثاني!

- كفّي عن أسلوبك هذا.

– وكفّ عن استفزازي بغبائك.

– ما علينا، سيذهبون إلى قصر اللورد كرومر ولن يجدوا شيئًا، فما التالي؟

– سيدركون فشلَ المهمة، وقتَها سنطرح ألفَ سبب لفشلها، وبعد تيقّننا من يأسهم وانصرافهم عنها، نبدأ نحنُ العمل وقد فزْنا بكلّ شيء وحدنا.

– وما يدريك بأنّ باب السّرداب بالفعل داخل قصر قارون المزعوم هذا؟

– لهذا سيتمّ توزيع الأدوار بمنتهى الدّقة، في اليوم المشهود سأصحبهم أنا كمُمَثل عن فريقنا، وذلك حتى يمكنني التعاملُ مع أيّ جديد، ومنحهم التبريرَ لأي حدث قد يكشف الأمرَ مبكرًا، وستذهب أنتَ برفقة «معتز» الذي تخلّص من الجبس المكبّل لقدمه إلى قصر قارون نهارًا قُبيل انتهاء مواعيد الزيارة بساعة، وعليك الهروبُ من برنامج الزيارة، والمكث بالقصر حتى انصراف الجميع، ينتظرك «معتز» بسيارته فقط لمدّة ساعتين، خلالهما إذا لم تجدْ شيئًا تخرج إليه، وإذا وجدت بابَ السّرداب تنطلق داخله لترى بعينيك هل انكشفتِ الخزائن بالفعل بفضلِ الماء المندَفع بقناته لهذا الغرض، أم لاَ؟ وتعود بعدها إلى القَصر لتمكثَ حتى بدْء برنامج الزيارة لليوم التالي، فتخرج وسط الجموع دون أن يشعرَ بك مخلوق، وبهذا

يكنْ عندنا تقريرٌ بكلّ شيء، وعلى أساسه سنحدّد خطوتنا التالية، المهمّ حتى تترتّب خطواتي؛ إذا حدث ووجدتَ بابَ السّرداب، وقتها سينصرف «معتز» بعد ساعتين ليعود إليك في الصّباح، فقط يرسل لي رسالةً بأنه يقودُ السيارة وحده، فيكنْ عندي علمٌ بأنّك داخل السّرداب حينها.

دارَ كلّ ذلك بذهن «ماجد» في لَمْح البصر، وقد أسقطته تلك الجذبةُ القوية إلى ما يشبه البئر العميق، كان جسدُه يسبح في الهواء وهو يتوقّع الاصطدام السريع بأحدِ الصخور، أو حتى أرض البئر لتتحطّم عظامه، مِن أين أتت تلك اليدُ التي جذبته؟! هل يعقل بأنّ ملكَ الجنّ بالفعل يحرسُ الباب، وقد نالَ منه بسبب سخريته السابقة وعدم إتيانه بالتصريح المطلوب؟!

الجنّ بالفعل مذكورون بالقرآن الكريم، وقدراتُهم مجهولة لنا، ومقاييسهم تختلف عنّا، قد تكون آلاف السنين هذه مجرّدَ أيام في عمرهم، وقد تكون بالفعل تلك الخلطة من الدّماء لها فائدةٌ ما عندهم، ولا يمكنُ الحصول عليها في عالمهم، يبدو أنّ سخريته لم تكنْ في محلّها، لقد صلى ودعا الله بالحفظ من كلّ ضرّ وسوء، ولم يهملْ أذكار الصباح والمساء التي كان قد هجرَها منذ أمَد، هل من المُمكن أن يكون عدمُ حفظه مِن الضرر الآن بسبب ذلك الهجر الطويل؟

ولكنّه أخلص في الدّعاء برجاءٍ شديد وابتهالٍ أسال دموعَه، لِمَ لمْ يحفظه الله؟

طالتْ رحلة هبوطه أكثرَ من اللازم، بل لقد شعرَ بأنّ سرعة سقوطه قد بدأت في التباطؤ، وقد أصبحت كأنّها سِباحة في الهواء، أو بوسط مُنْعدم الجاذبية، وجدَها فرصة أن يدعوَ الله برجاءٍ أكبر أنْ ينجّيه، فهتف قائلًا:

- أعوذ بكلمات الله التّامات من شرّ ما خلق، اللّهم احفظني بحفظك، وردّني إلى «هدير» ردًّا جميلًا.

وما بين طرفة بصرٍ وأخرى تغير كلّ شيء، فجأة تحوّلت الظلمة إلى بياضٍ تامٍّ، بياض يَسودُ كلّ شيء ولا حدودَ له، توقّف هبوط جسده وما زال سابحًا بوضع أفقي، بل لقد شعر بأنّ الاتجاهات قد انْعدمت، لم يعدْ يدرك أين اليسار مِن اليمين، ولا الأعلى من الأسفل، والبياض التام يلفّه بفراغٍ لا نهائي، تساءل إنْ كان قدْ ماتَ وفاضت روحُه، وبين لُحيظة وأخرى سيتكشّف له العالم الآخر بملائكته وشياطينه، أخذ لسانُه في الاستغفار السريع وقد أكلَ قلبَه الوجلُ والترقّب، ترى ما الذي سيتكشّف له الآن، هل سيكون روح وريحان وجنة نعيم، أم نزلٌ من حميم وتصْلية جحيم؟!

لكَمْ تساءل عن هذه اللّحظة وكيف ستكون؟ كانت تجربة الأحْلام بالنسبة له أحدَ وسائل الإقناع بكيفية الانتقال بين

العوالم، فبيْنَ لحظة وأخرى ينتقل من كونٍ إلى آخر يختلف كلٌّ منهما تمامًا رغم المعايشة التامّة داخلهما، هكذا سيكون الانتقالُ من الحياة الدّنيا إلى حياة البرزخ السابقة لقيام السّاعة، تسارع لسانه في الاستغفار مترقّبًا للتالي وهو لا يدري هلْ سينفعه الاستغفار الآن وقد فاضتْ روحُه وانتهت فرصته الأولى؟

ارتعد بقوّة على إثر الصوتِ العميق الذي انطلق بداخله يسأله قائلًا:

- إلى أين تريد الذهاب؟

لقد مات بالفعل! هل ستنفعه إجابة هذا السؤال؟ أين الأسئلة البديهية التي حفظها، مَن ربك، وما دينك، وما تقول في الرجل الذي بُعث فيكم؟!

هل يعقل منحه الخيار الآن؟ فقال مسرعًا بتهدّج:

- إلى جنّة الخلد ونعيمها.

- وأجيبها لك منين دي يا روح أمّك؟!

ما هذا؟ الملائكة تختلف تمامًا عن الصورة النّورانية الطّاهرة التي يعرفها عنهم!! يشعر بأنّ محدثه أحدُ رفاقه بالجامعة، هل هناك خدعة ما في الأمر؟!

فقال بحذر ووجَل:

- ما هي الخيارات المطروحة؟

نطقَ الصوت العميق قائلًا (بصرامة):

– اخترِ اليومَ الذي تريده في تاريخك الماضي كي أوصلك إليه؟

غيرَ مصدّق قال بسرعة:

– ما هذا؟ هل ما زالت روحي بي في الحياة الدّنيا؟

– يبدو أنّك غير مؤهَّل، ولا تستحقّ الفرصة الثانية.

أسرع «ماجد» قائلًا:

– لا.. لا، أنا مؤهّل جدًّا، فقط دعنى أختار بدقّة ما أريده.

صمت الصوتُ العميق، وقال ببطء:

– حسنًا، معك خمس دقائق فقط بتوْقيتِكم.

اتّسعت ابتسامة «ماجد» حتى كادت أن تأكلَ وجهه، فمهمةُ الجنّي هنا تختلف تمامًا عمّا ظن، إنه يقوم بالسّفر عبر الزمن الماضي ليعطي صاحبَ الرحلة فرصة ثانية، يا لهُ مِن كنز، إنها فرصة لم تخطرْ بباله، أخذ يسترجعُ تاريخ حياته بقفزات سريعة ناظرًا ما الذي يبغي تغْييره فيها، وبعد تفكيرٍ عميق لم يستغرقْ منه سوى ثلاثِ دقائق هتفَ قائلًا:

– أريد العودة إلى يوم تخرّجي من الجامعة.

قال الصوتُ بنفاذ صبر:

- حسنًا، أغمض عينيك.

سارع «ماجد» بإغماضهما، وسمع صوتَ طرقعة عالية أعقبها ارتجاجُ جسده القوي، وفجأة تغير كلّ شيء وقد اقتحمت أنفَه رائحةُ أبخرة عوادم السيارات، وقد شعر بنفسه جالسًا ملتصقًا بأجسادٍ بشرية تفوح منها رائحةُ العرق، وعلى نغمة بكاءِ رضيع مِن خلفه صوتٌ يقول:

- لقد وصلت أسعار إيجار الشقق إلى رقمٍ خيالي حتى أنّها تقارب الخمسمائة جنيهًا الآن.

وصوتٌ غليظ آخر يقول:

- لقد وصل سعر الدولار إلى خمسة جنيهات ونصف.

فتح عينيه ببطء، ليجد «مصطفى» بجواره يقول بهاتفه:

- سيكون هذا التّوريث على جثّتي، مصر كبيرة عليه!

***

الفصل الثاني

الفرصة الثالثة

كانت المفاجأة مدهشةً بحقّ، لكَمْ تساءل «ماجد» من قبْل لو أنّ نظرية أينشتين صادقةٌ في أمر السّفر عبر الزمن، وأنه البعدُ الخامس بالفعل، ويمكن التحرك فيه، كيف سيتواجد شخصان في نفس الوقت لهما نفسُ الرّوح؟! سيكون هذا عبثًا كبيرًا، ولكن اتّضح له الآن أنّ الأمر أبسط من ذلك، إنه فقط أشبه بإعادة تشغيل أحدِ الأفلام عند نقطةٍ سابقة ومحدّدة، وربما لشخص أو أشخاص محدّدين تتوافر لهم عواملُ هذا السّفر والانتقال، سيعود بذاكرته ونفس خبراته المكتسبة ومشاعره وروحِه التي نفخت به، لن يكون له بديلٌ أو شخصٌ آخر يفترض ألّا يقابله كي لا يفسد خطّ الزمن وما إلى ذلك الهُراء الذي غصّت به الرّوايات، سيكون فقط لديه حرية التحرّك في الأحداث بعكس أبطال الفيلم، ولكن هل سيمكنه ذلك حقًّا؟! وما قدرته على تغيير الأحداث؟ ترى مَن استطاع فعلها مِن قبْل؟ وهل كانت تلك مهمة ملكِ الجان حارس باب السّرداب؟ وكيف أمكنه ذلك؟ هل تكوينه الناري سببًا في قدرته على اختراق الزمن؟ وهل يمكنه السّير فيه للأمام

والخلف، أم للماضي فقط؟ أسئلة كثيرة لا يعلم لها جوابًا، انتزعه منها مساءلة «مصطفى» له، وقد ظنّ البسمة الشاردة المرتَسِمة على وجهه هي ردّ فعل على ما استمعَ من مكالمته، فقال موجّهًا حديثه لـ»ماجد»:

- ترى الأمر كبيرًا عليَّ أنا وليس عليه.

نظر «ماجد» نحوه بودٍّ كبير وقلبُه يختلج بمشاعر عجيبة، الآن علمَ ما هي المشاعر التي قد تحدثُ لو عاد عزيزٌ عليك من الموت! دقّات قلبه المتسارعة كانت تهتف به أنْ يحتضنه معبّرًا له عن شوقه الكبير وفرحتِه المَشُوبة بعدم التّصديق، ولكن..

عندما اختار «ماجد» العودةَ إلى هذه النقطة تحديدًا من عمره، كانت لهدفٍ كبير يراه هو الصّواب، هذا الهدف يتطلّب منه مفارقة «مصطَفى» وصنع أولَ تغيير في التاريخ، سيكون تاريخه ومسيرته الشخصية فقط، فقد جرّب السعي لتغيير تاريخ البلد برفقة مَن عرف مِن شبابٍ طاهر شريف وهبَ حياتَه وكلَّ ما يملك في سبيل ذلك، فكًيف كان مآلُ الأمور؟ لن يسعى لتلك الأهداف الحالمة النبيلة السامية الخياليّة مجددًا، سيكون واقعيًّا لأبعد مدًى، نعمْ سيقول نفسي نفسي وفقط، إنه الآنَ يقف عند أكبر نقطةِ تحوّل حدثت في حياته سابقًا، وقد كانت هي معرفته وصِلَته بـ»مصطفى»؛ لهذا سيتجنّبها

الآن وسيرى كيف سيتغير التاريخ، ومدى إمكانية ذلك، ابتسمَ وهو يهزّ رأسه قائلًا:

- لا أدري، ولا يعنيني الأمر في شيء.

قال «مصطفى» بصوته الهادئ:

- قيمة المرء في هذه الحياة ترتبطُ بمدى الهمّ الذي يحمله، والمسئولية المَنُوطة به.

هتفَ وجدان «ماجد» قائلًا:

- تبًّا، إنها نفس جملتِه التي قالها لي يومًا، هل سيمكنني التغْيير، أم لا؟

ولكي يتناساه «مصطفى»، هزّ «ماجد» رأسَه مبتسمًا دون ردّ، واتّجه بوجهه نحو النافذة ليتطلّع عبرها إلى أيّ شيء يشغله عن «مصطفى»، ويقطع حوارَ واهتمام «مصطفى» به، وقد نجحَ في ذلك بالفعل، فابتسم عندما سمع صوت «مصطفى» يترنّم بآيات القرآن الكريم بصوتٍ خافت، لقد نجحت الخطوةُ الأولى والهامّة، وسوف يقوم بترتيب الخطواتِ التالية باهتمام وعناية كبيرة فوْر وصوله إلى منزله.

***

اتّسعت عيناه دهشة، وهو يتطلّع إليها غير مصدّق بأنها هي نفسها!

وجهُها مشرقٌ كالعادة، جمالها ساحرٌ يجذب إليها الأنظار أيْنما توجّهت، ولكن..

عيناها خجولتان، وجْنَتاها مشوبتان بحمرةٍ طبيعية زادتها بهاءً فوق بهائها بشكلٍ لم يرَه من قبْل، ترتدي حجابًا بألوانٍ زاهية برّاقة تتناسب مع ثوبها الواسع الأنيق منحَتْه هي بعضًا من حُسنها، عندما تبتسمُ تُخْفي فمَها بيدِها بخجل كأنّما تشفق على مَن يراها مِن انفجارٍ قد يطوله بوصول جمالها إلى حدٍّ لا يطيقه!

إنّها «سارة»..

أيّ حظّ سعيد هذا؟ إنه يراها الآنَ قبل تحوّلها بعد حادثة اغتصابها، أو محاولة اغتصابها، لم يتوقّع أن تكون هكذا أبدًا! إنها الآن تفوق كلّ أحلامه.. وبالطبع ستكونُ هي هدفَه الأعظم، تذكر «هدير» مشفقًا عليها وقد كانت أخلصَ الناس في حبّه، ولكنه لا يخونها أو يظلمها الآن، إنها حتى لم تسمعْ عنه بعد، سيختفي تمامًا من الفيوم في اليوم الذي ستأتي فيه لزيارة أخْته، وبالتالي لن يراها ولن يسائل أختَه عنها فتظلّ

تمدح وترشّحها له، وتقول بأنّها لا مثيلَ لها، وبهذا ستسيرُ هي في خطٍّ آخر خاصّ بها، قد يكون الأفضل لها، أمّا الآن فهو حتمًا سيتوجّه إلى أعظم ما يمكنه في حياته، وهو الفوز بـ«سارة»، انتهت «سارة» من الكلام مع صويْحباتها وقد انصرفنَ كلٌّ إلى شأنه، فعدلت مِن وضع حقيبتها على كتفها وهمّت بأن تتحرّك، فتوجّه نحوها ببطء، نظرتْ له نظرةً سريعة صرفت بصرَها بعدها لأبعدِ نقطةٍ عنه، ولكنه ناداها قائلًا:

– آنسة «سارة»؟

ما أوقفها إلّا علمُه باسْمها، فقالت بصوتٍ حالم هادئ رخيم خالٍ تمامًا من السّخرية والصرامة التي لم يخرج يومًا بدونهما:

– مَنْ حضرتك؟

كادَ أن يصاب بلوثةٍ مِن الجنون، وأن يسارع باحتضانها وليحدث ما يحدث، ولكنْ تمالك نفسه بصعوبة لم تفلح مع صوته الذي خرج متهدّجًا قائلًا:

– أريدُ خطبتك؟

طرقتْ ضحكتُها القصيرة الشجيّة مسامعَه بأفضلَ مِن كلّ سيمفونيات الدّنيا، وقد أعادت له كلّ ذكرياتها معه، ونظرت

نحوه شذرًا كأنّما تنظر نحو مُشَعوذ، وتركته مسرعةً الخطواتِ بعيدًا عنه.

***

هي نفسُ الجلسة التي تتقاسمُها جميعُ الأسر في تلك المناسبة التي قدْ تتكرّر كثيرًا مع الفردِ الواحد منها، غرفة الصالون اللامعة والتي أخذت جهدًا مُضاعفًا عن جهدِ ليلة العيد، الأب يرتدي بدلتَه على مضض بعد مطالبة زوجتِه له بوجوب الظّهور بالمظهر اللّائق، الأخ يمازح أخته التي تضطربُ مشاعرها مترقبًا ظهور العريس القادم ليكيل له ما يستطيعُ مِن سخريةٍ أمامها فقط على سبيل المُشاكسة، ولكنْ كانت «سارة» هي السّاخطة ولا تدري كيف وافقَ والدُها على مقابلة ذلك المَعْتوه المسمّى ماجدًا!

رأى «ماجد» أماراتِ كلّ ذلك على وجْهها الذي لم يكنْ في حاجةٍ إلى مساحيق يدرك مِن توزيعها العشوائي أنها أرغمت عليها، تنحنَحَ والدها قائلًا:

– أهلًا بك يا أستاذ علي، رغم أنّنا لم نفتح هذا الباب مطلقًا وكنا ننتظر تخرّجها نهايةَ العام القادم، ولكنّك جئت بوساطة لا يمكن ردّ كلمة لها.

همّ والد «ماجد» أنْ يهتف قائلًا: بأنه لا علم له بهذه الوساطة، ولكن تجاوزها قائلًا:

– بإذن الله لن تندَم.

مالَ «ماجد» على أذن أمّه قائلًا:

– ما رأيك بالعروس؟

قالت بخُفوتٍ ناقم:

– جيدة، ولكن لا يشفعُ لها أن تتكبّر علينا هكذا، لم أرَ منها سلامًا حارًّا ولا ودًّا باديًا عليها.

قال بتردّد:

– إنها ترانا للمرة الأولى، مِن أين سيأتي كلّ ذلك الودّ أصلًا؟

– على سبيل الذّوق أيها المغفّل.

قاطعه صوتُ والده قائلًا:

– ثمرةُ عملي بالخليج مدرسًا قبل الوصول إلى سنّ المعاش أمَّنْت له ولأخته المستقبل، لكلّ منهما وديعة كبيرة بالبنك يمكنهم الإنفاقُ من عائدها الشهري في حالةِ لا قدّر الله لم يجدا الوظيفة اللّائقة، و»ماجد» شقته بعمارةٍ كبرى بأحدِ أفضل أحياء مدينة الفيوم.

هتفت «سارة» قائلة بسخط:

- الفيـ.. إيه؟!!

فقالت والدة «ماجد» بسخطٍ أكبر:

- الفيوم يا حبيبتي، ألَمْ تسمعي عنها مِن قبل!.

شعر «ماجد» باقتراب الكارثة التي يخشاها، فتنحْنحَ قائلًا:

- يمكنُني شراء شقّة كبيرة في المهندسين، أو جاردن سيتي إن أردت.

نظر أبواه نحْوه متّسعي الأعين هاتفين بنفَسٍ واحد:

- نعم!!؟

اضطرب «ماجد» وقال بخُفوت:

- ولكنّ ذلك سيكون بعد عامٍ واحد.

نطقتْ والدة «سارة» باهتمامٍ قائلة:

- وكيف سيمكنك ذلك، هل وقَعتَ على كنز؟

ابتسم بثقةٍ قائلًا:

- لم تذهبي بعيدًا، يمكنك قولُ ذلك.

أدرك الأبُ هزليّة الموقف فقال بحسْم:

– حسنًا، ننتظرك بعد عام.

همّت أمّها أن تعترض، ولكنّ «سارة» هي التي حسمَتِ الأمرَ قائلة:

– أرى أنّكم تبيعون وتشترون دونَ استشارة صاحبة الرأي الأول.

عقدت أمّ «ماجد» حاجبَيْها قائلة:

– وترى ما هو رأيُك يا جميلةَ الجميلات.

أدركتْ «سارة» السّخرية المبطّنة في لهجتها، فتضاعف سخطها بأكثرَ ممّا كان، وهمّت أن تصرخ طاردةً لهم، ولكنْ أوقفها «ماجد» قائلًا:

– آنسة «سارة»، هل يمكنُني محادثتك لمدّة دقيقة واحدة على انْفراد؟

كادتْ أن تهتفَ رافضة، ولكنْ أشارت أمّها لها قائلة:

– تفضّلي بالشرفة يا «سارة»، لا مانع يا ولدي.

ولكي تتفادى العاصفة الهوْجاء التي ستنطلقُ بعد خروجهم، قامت واقفةً بعصبيّة وانطلقت بخطواتٍ حادّة

واسعة وسريعة نحو الشّرفة التي يتوسّط بابُها الصالة القريبة، وقفت عاقدةً ساعديها أمام صدْرها، وقد ازداد انعقادُ حاجبيها، وقالت له بعد أن لحقَ بها:

- نعم، ما هو السرّ الكبير الذي لديك؟

لم يستطعْ مقاومة البسمة الكبيرة التي نالت منه، وقد ظهرت «سارة» التي يعرفها، يبدو أنّها كانت صفاتٍ كامنةً داخلها، وجدتْ فقط المحفّز الذي أظهرها بتضاعف كبير، همَّ أنْ يقول لها بأنّه كان يفتقدُها جدًّا في الايام القليلة الماضية بعد أن اعتادَ على صحبتها بشكلٍ يومي، ولكن وجدَ ذلك عبثًا فذهب مباشرة إلى ما أراد قائلاً:

- هل تصدّقين أن هناك بعضَ البشر لديهم القدرة الخارقة في أمورٍ خفيّة؟

ارتفع حاجباها، وضحكت ضحكتَها القصيرة السّاحرة قائلة:

- نعمْ يا سوبر مان؟! هل ستظهر لي قدرتَك الخارقة كي أقتنعَ بالارتباط بك!؟

ضحك قائلًا:

- هل تعدينَني لو حدث أنْ توافقي؟

قالت بعناد:

- أعدُك، هيّا أرني.. هل ستحرّك العقلة الأخيرة من أصبُعك الأوسط، أم ستتلاعب بأذنيك؟!

اقترب مِن أذنها قائلًا (بخفوت):

- تخيّلك لشقة زواجك في المستقبل، أن تكون بدهانٍ قرمزي مع صورةِ زهور بها تظهرُ كعلامة مائيّة، وتودّين لو تكون الصالة مخصّصة للرقص وموزّع فيها سماعات عملاقة بجميع الأركان؛ ممّا يعطي صوتًا عميقًا يحتويها؛ فيزداد استمتاعُك بالأغاني التي ستردّد فيها.

كانت عينا «سارة» متّسعتان بذهول، وخفتَ صوتُها وهي تقول بتردّد:

- ما هذا العبث!؟

ضحك قائلًا:

- هيئتُك تدلّ على صدق قولي.

تردّدت أكثر قائلة:

– هذه كانت مجردَ أفكار تجول بخاطري فقط، ولم أبُح بها لمخلوقٍ مِن قبل، ولا حتى كتابة، كيف علمت ذلك؟!

ابتسمَ «ماجد» بثقة، وقد أدركَ ثمرة صحبته السّابقة لـ«سارة» في المستقبل، وقال:

– لقد وعدْتني، فهل نجعلُ ذلك فقط سببًا لذهاب الرّفض وبداية التعارف بيننا؟

اضطربت «سارة» ولم تدرِ ما تقول، فهي لا تصدّق بأنه قادرٌ على قراءة أفكارها، ولكنَّها لم تفكّر في ذلك أمامَه، يبدو أنّ «ماجد» ليس بالبساطة البادية عليه، زادَ فضولُها لسبْر أغوارِه، وقد استهْوَتها فكرةُ القدرات الخارقة والأسرار التي تشابهَ الأفلام الأمريكية التي تعشقها، قرّرت خوضَ التجربة ومنحَه الفرصة التي يريدها، وسوف ترى إنْ كان يستحقّ ذلك بالفعل، أم لا؟

***

أكتوبر ٢٠١٠

«ماجد» يضمّ ياقة معطفِه لشدّة البرد، والسيارة تنطلق به إلى القاهرة، ولا يعْنيه النّقاش السياسي المحتدِم بين الركاب،

حديث الساعة وقتَها عن انتخابات مجلس الشعب المُرتقبة، فلا فارقَ عنده بين مَن قاطعها ومَن سيشارك، رغم أنّ لديه نتيجتَها ويعلم مصيرَ كلّ ذلك، إلّا أنّها لم تعدْ تعنيه، لقد اختار مسارَه بعناية، ويعلم خطواتِه التي درسها بدقّة، أتته رسالة نصيّة على جوّاله، فلم تكنْ تطبيقات الجوّالات للتواصل الاجتماعي قد انْتشرت بعد، نظر للرسالة وشعر بروحِه تحلّق إلى عنان السماء، كانت كلمة واحدة من «سارة»، ولكنها أثمنُ عنده مِن كنز قارون نفسه، كلمة «أحبك».. ابتسم برضا تامّ، وقد تحقّق له الحلم الأول والكبير بفوزه بها، لم يستغرقِ الأمرُ سوى شهرين، فقط أظهر لها محبّته وتفضيله لنفس مشاريبها ومطربيها وألوانها وكلّ اختياراتها الخاصّة المفضّلة، والتي علمها جيدًا أثناء رفقتها السابقة!

كمْ هنّ ساذجات هؤلاء الفتيات، يمكنُ التّلاعب بمشاعرهنّ بسهولة، فليس معنى المشاركة في عشق المانجو أنّ اللّوح المحفوظ قد خُطّ به اسمنا سويًّا، الأمر بكلّ بساطة هو أنّ المانجو رائعةُ الطعم وفقط!

بل على النقيض أحيانًا يكون الاختلاف نعمةً كبيرة بها التكاملُ المطلوب، ارتسمت ابتسامتُه وهو يتذكّر القصة التي نشرتها طبيبة شهيرة تفترض فيها شابًّا رائعًا يتقدّم لخطبة فتاة

أروع، سألته سؤالًا بسيطًا ولكن كان القاصمة، قالت له: ما الذي تحبّ تناوله من لحم الدجاج، وعندما أخبرها أنه الفخذُ قالت بأنها كذلك تعشَقه، وقبل أن يسعدَ بهذا التّوافق سألته قائلة:

- لو لم يكن هناك سوى فخذٍ واحد مَن سيأكله؟

ردّ بمنتهى البديهية قائلًا: أنا بالطبع فحتمًا ستؤثريني على نفسك، وأنا زوجك الحبيب.

- قالت: ولم لا تؤثرني على نفسك، وأنا زوجتك الحبيبة؟!

وحدث الخلافُ الذي فضّ الأمر بلا رجعة!

ترك فضول «سارة» بلا شفاء في كيفية معرفته بكثيرٍ مِن أسرارها، لم يردْ إحباطها الذي قد يصرفها عنه، فالوعدُ الآن هو أن تتمّ الخطبة فور شرائه لشقة بالزمالك، بالطبع رفضَ قبول الوظيفة التي تعبَ والده في جلْبها له بمساعدة عمّه في شركة الاستيراد والتصدير، والتي يعلم جيدًا أنّ «مصطفى» أحدُ أهمّ العاملين بها الآن، فلم تعدْ تعنيه وهو على وشْك الوصول إلى كنز قارون، فقط ينتظر أيام الانْفلات الأمني وهروب الشرطة قابعين في بيوتهم مُرتعدين عقبَ ثورة يناير المرتقبة بعد ثلاثة أشهر، الآن بدون وثائق لديه كلّ الخيوط،

يعلم أين فتحة السّرداب، وبداية قناة الماءِ بالكهف الخفي، وآليّة عملها، فقط سيكون موعدُ الحادي عشر من ديسمبر الذي قدْ يختلّ منه وإن كان لا يرى له أهمية، ولكن.. السّكين الفضية أصبح يرى أهميتها القصوى الآن!

أسطورة إرضاء الجنيّ حقيقية بالفعل، وربما ما منعَه عن الوصول إلى الكنز هو الإخلالُ بهذا الشّرط، يا لها من وسيلة حماية! لم يحرقْه الجني أو يفتك به وإنّما قذفه في زمن آخر، والعجيب أنّه مِن اختياره! لا يدري هل كان هذا عقابًا أم مكافأة؟! المهمّ أنه قرّر الالتزام بكلّ البنود بحذافيرها، ولكن الآن ينقصه عاملٌ هامّ جدًّا وهو الأخطر، إنّه السّكين الفضّي والذي لا يدري أين يكون بلندن الآن، لذا قرّر البدء عند صاحب الشّرارة التي انطلقَ منها كلّ شيء، إنه «نجاتي».

طرق الباب بهدوء، فتح له أخوه وقد أصبحت ملامحُه أصغر بكثير عمّا رآه، فارقٌ كبير يقع في تلك المرحلة مِن نموّه، سأله عن «نجاتي» الذي ظهر ببشرته البيضاء اللامعة، وملامحه الهادئة الوسيمة، وشعره النّاعم المصفّف بعناية تجاه اليسار، وجسده الممتلئ قليلًا، أجلسه على نفْس الكرسي الذي احْتلّته «سارة» مِن قبل، وسأله باهتمام عنْ أي خدمة يستطيع تقديمَها له، تنحنَحَ «ماجد» ببطء وقال باهتمام:

- أريدُ مشاركتك في فرصةٍ عمرك التي لنْ تتكرّر أبدًا، وهذا هو العرضُ الوحيد الذي لن يتكرّر كذلك منّي مرة أخرى، وبعدها سأبحثُ عن آخر قد يقبلُ بالمساعدة فيه.

اتّسعت عينا «نجاتي» باهتمام قائلًا:

- عن أي فرصة تتحدّث؟

مال «ماجد» للأمام، وقال بخُفوت:

- عندي علمٌ عن وثائق تفتح البابَ للوصول إلى كنز قارون، بل لقد علمت الأماكنَ السريّة الواردة بها.

لاحتْ كلّ ملامح الشكّ على وجه «نجاتي»، فاستطرد «ماجد» قائلًا:

- اللورد كرومر هو صاحبُ تلك الوثائق، وذكر فيها خمسة مفاتيح للوصول إلى الكنز، سكينٌ فضي عليه اسم أحدِ ملوك الجان، هذا الاسم منقوشٌ على كثير من المقابر الفرعونية، فتحةُ السّرداب تقع بإحدى الغرف بقصر قارون في الفيوم، يوجد قناةٌ مائية يتمّ دخول الماء اليها في موعدٍ محدّد يفتح باب الكنز، يجب إرضاء ملكِ الجان هذا بخلط دماء بقرة وجَدْي وقطة.

اتّسعت عينا «نجاتي» دهشة، وقام واقفًا وهو يقول هاتفًا:

- كيف علمت بكلّ ذلك؟

خرجت والدة «نجاتي» منادية:

- ماذا هناك يا «نجاتي»؟!

نظر «ماجد» إليها بدهشةٍ كبيرة، فقد كان وجهُها يفيض بحيويّة وإشراق كبيريْن، لا يوجد تجعيدةٌ واحدة مِن التجاعيد التي كانت تغزو كلّ ركن فيه، عيناها متألّقتان وتقف مُنتصبة القامة، ترتدي ثوبًا ملوّنًا يجعلها تبدو في الثلاثينيات، كانت كأنّما قد صغرتْ أربعين عامًا عمّا رآها منذ شهر، لا يمكن أن يكون كلّ ذلك بعامل الزّمن أبدًا!

ارتبكَ «نجاتي» وقال:

- لا شيء يا أمّي، نريد فقط كوبيْن من الشاي.

نظرتْ نحو «ماجد» مرحّبة به، ومُبتسمة ابتسامة أخّاذة، وقالت له:

- أهلًا بك يا ولدي، كم ملعقةَ سكرٍ تريد؟

لا يدري «ماجد» حتّى الآن كم ملعقةً يريد! ففي المرّات التي تناوله فيها لمْ يرضِه الطعمُ أبدًا، فقال لها:

- مضبوط إن شاء الله.

هزّت رأسها الحاملةَ لبسمتِها المشرقة وانْصرفت، في حين أشارَ لـ«نجاتي» ليجلس قائلًا:

- هل يبدو عليّ أيّ ملمح من ملامح الشرّ، تفضّل بطاقتي لقد تخرّجت من كلية التجارة منذ أشهر فقط!

نظر «نجاتي» بحذر إلى البطاقة، وقال باستنكار:

- أنت تتحدّث عن وثائق سريّة كانت في أحدِ المخازن المهمَلة بالمتحف المصري، وحْدي مَن اكتشفها وعلِمَ أهميّتها، وأحفظها بشكلٍ خاصّ حتى ينتهي بحثي المتعلّق بها، فمتى رأيتَها؟!

تفتّق ذهن «ماجد» عن كذبةٍ تناسب الموقف؛ فقال:

- هل تظنّ بأنّ اللورد كرومر كان يحتفظُ بنسخة واحدة مِن تلك الوثائق؟

بدا على وجْه «نجاتي» الاقتناعَ؛ فتساءل مجدّدًا:

- ومَن أدارك بأنّ لديّ نسخة منها؟

- هذا ما جئتُ إليك بسببه، كما أسلفت لديّ كلّ المفاتيح، ولكن ينقصُني أهمُّها، إنّه السّكين الفضي الحامل لاسْم

ملك الجان، ظننتُ بأنّ هناك وثيقة أخرى قد تُخبرنا عنه ولم ترسلها؟

- أرسلها أين؟

هزّ «ماجد» رأسه، وقد أفلتتْ منه الجملة، يبدو أنّ العمل دون «سارة» سيكون مرهقًا جدًّا، فهي البارعة جدًّا في هذا الشأن! ولكي يلحق ببعضٍ منها قال:

- سأخبرك أولًا كيف وصلت إليك، لقد دفعت مَن يبحث عن وثائق قديمة تخصّ اللورد كرومر بمخازن المتحف المصري، فوصلني خبرٌ أنّك الوحيد المختصّ بذلك، وأنك تمنعُ فرصة اقتراب أيّ فردٍ منها، وتفرض عليها سريّة عجيبة، فظَنَنْت أنك حتمًا لديك نسخة من هذه الوثائق، والتي قد تكون إحداها تستفيضُ عن السّكين.

نسي «نجاتي» سؤالَه السابق وقال:

- ولكنّي لا أفرض أيّ سريّة، ولست وحدي المسئول عن المخازن!

ارتبك «ماجد» وهو لا يدري كيفَ يجيبه، فقال بتردّد:

- إذًا، فقد كذب عليّ!

- مَن هو؟

- هل سنضيّع الوقت في هذا التحقيق؟ بالطبع لنْ أخبرك، الآن هل ستتعاون معي، أم لا؟

- وكيف سيكون تعاوننا؟ فليس عندي أكثر ممّا ذكرت.

شعر «ماجد» بخيبة الأمل، فقال:

- أنْ تبحث بالمخازن مجدّدًا، قد تجدُ هذا السكين أو أي وثيقة أخرى تتحدّث عنه.

- وعندها؟

- ستبدأ شراكتنا، أنتَ معك السّكين، وأنا عندي فتحة قناة الماء فيكمّل كلٌّ منّا الآخر، ونصل إلى الكنز.

هزّ «نجاتي» رأسه راضيًا، وقال:

- اتفقنا.

تبادلا أرقام الجوّالات، وبينما يهمّ «ماجد» بالخروج، رفضت الأمّ ذلك إلّا بعد شرب الشاي وبعض المأكولات الخفيفة!

***

العاشر من يناير ٢٠١١

قبيل انتصاف اللّيل كانت ضحكةُ «سارة» القصيرة ترتعدُ لها ذرّات الأثير التي تنقلها عبر جوّالها إلى أذن «ماجد» الذي قال لها:

– الموعدُ يقترب، ستكون لك الشقة التي تريدينها وسوف أسجّلها باسمك مباشرة، وبعدها نبدأ إجراءات خطبتِك التي لنْ تدوم أكثرَ مِن خمسة أشهر حتى تخرّجك.

– إذا كان بإمكانك ذلك؛ ما سبب التأخّر؟

– أنتظر نيْلَ الجائزة الكبرى؟

– نعم! لا تقل لي أنّك ستحلّ ضيفًا ببرنامج «مَن سيربح المليون» وأنّ هذا ما تنتظره.

بمنتهى السرعة ردّ قائلًا:

– لا مطلقًا.

– ماجد، أشتَّم رائحةً غير جيدة تنبعث مِن أمرك هذا، إمّا أن تصرّح لي بحقيقة الأمر، وإلّا فلتنسَ كلّ شيء!

احتار «ماجد» هل تعني حقًّا ما تقول، أمْ هي مجرد وسيلةٍ للضغط عليه، ما زالت شخصيّتها تحيّره جدًّا، ليست بالقوّة

المفرطة التي تعامل معها في المستقبل، لكنّها لديها كلّ بواعثها، ولهذا لا يريدُ أن يستخرج منها ما لا يطيقه، ويطلق شيطانَها من قُمْقمِه، فقال ببطء:

- لقد أخبرتُك مِن قبل أنّ لدي أمورًا كثيرة غير طبيعية، ولو ذكرت لك ماذا أنتظر لن تصدقين أبدًا، وستجدين أمرَ جائزة المليون هذه أكثرَ منطقيّة ممّا عندي.

- لقد أثَرْت فضولي بأكثرَ ممّا كان، وقد زاد إصْراري بالفعل.

أتتْ جملته بنتيجة عكسيّة، ولا يدري كيف يعالجها، ووسط تردّده وفشله في وجود مخرَج قرّر أن يصارحها وليحْدث ما يحْدث بعدها؛ فقال:

- هل تسمعين عنْ كنز قارون؟

- بالتأكيد.

- عندي مفاتيحه؟

طالَ صمتُها فظنّ بأنّ الخطّ قد تعطّل، ناداها لتردّ عليه بصوتٍ شاحب أنْ: نعم. تألّقت عيناه وهو يقول لها:

- وجدتها، سأقنِعُك كما أقنعْتُك في المرّة السابقة.

- لن تفلح طريقة إخباري بالحلْم الذي رأيتَه هذه المرّة، هل تظنّ معرفتك بألواني المفضّلة ورغباتي الدّفينة قد تتشابه بما تقول مِن خُزعبلات الآن؟

ضحك «ماجد» وقد أدركَ بأنّها فهمت الجملة بغير ما أراد، ما زالت تتفلّت منه العباراتُ التي يخرج مِن آثارها بصعوبة، فقال بسرعة:

- لا أقصد ذلك، غدًا سأريك رأيَ العين ما لدي، والذي سيقنِعُك.

وفي اليوم التالي، وبينما الناس حوله يتجادلون حول ثلاثة مواضيع، طرقت أذنه «خلّيهم يتسلّوا- تفجير كنيسة القديسين- سيد بلال»، وأخيرًا أشرقت شمسُه لتجلس أمامَه، والأعينُ كلُّها تأكلها بنَهَم، بالطبع لن يذكر لها المشقّة التي واجهَها مع «نجاتي» لكي يأخذَ منه هذه النّسخة من الوثائق ليعرضها عليها، تناولتْها لتفحَصَها بسرعة وعناية بإنجليزيّتها الجيدة، ونظرت نحوه بانْبهار أسعَدَه وقالت:

- واو.. الأمرُ حقيقيّ بالفعل.

عاد بظهره للخلف، وقال بثقةٍ مُفْرطة:

- ألم أقلْ لك؟

لم تنتبهْ له «سارة»، وقد استغرقتها الوثائق تمامًا، فأخذت تعيد قراءتها مرةً تلو أخرى، وأخيرًا رفعت رأسها قائلة:

– كيف سيمكنُنا الوصول لفتحة هذه القناة المائيّة؟ هل سنطوفُ الفيوم شبرًا شبرًا بحثًا عنها؟!

ضحك قائلًا:

– أعلم الموضعَ بالفعل، المشكلة عندي في أمرٍ آخر، السّكين الفضّي.

نظرت نحوه شذرًا، وقالت:

– هل تصدّق هذه الخُزعبلات؟!

قال بضيق:

– قلنا ذلك في السّابق، وها هي النتيجة.

رفعت حاجبيْها الجميلَيْن بدهشة قائلة:

– قلنا ماذا؟ وأين؟ وعن أيّ نتيجة تتحدّث؟!

ضرب جبهتَه بكفّه، لن يجاري «سارة» السابقة في براعتها أبدًا، فقال بسرعة:

– ليس أنت، أقصد بعضَ الأصدقاء غير المصدّقين لأمرِ الجنّ، وقد تأذّى بعضهم فيما بعد، ثمّ إذا لم يكنْ للأمر أهميةَ

فلمَ ذكَره اللورد كرومر؟ مع العلم بأنّ ثقافته الإنجليزية لا تقبل أمرَ الدّجل!

صمتتْ قليلًا وعدم الاقتناع ظاهرٌ على محيّاها، فقالت باهتمام:

- إذا كان هذا ما يوقفك، ما هي طريقةُ الحلّ من وجهة نظرك؟

بمنتهى الحماس قال لها:

- لديّ معلومات بأنّ هذا السكين لدى رجليْن في لندن، ولكنْ للأسف لم أعلمْ اسميْهما، فلم ينطقاه أبدًا أمامي.

- هل تعاملت معهما؟!

- تبًّا. أقصد مَن حصلت منهما على تلك المعلومات، وبالتالي أرى عملية الحصول عليه شبهَ مستحيلة الآن، ليس قبل أربعة سنوات!

- ولِمَ أربعة سنوات تحديدًا؟!

همّ أن يخبرها بأنهما سيأتيان مصرَ في هذا التّوقيت، ولكن تمالك زمامَ لسانه هذه المرّة، وقال:

- قد نعرف عنهما معلومات إضافية وقتَها.

ضحكت ضحكتَها القصيرة، وقالت بعجب:

– ولِمَ هذا الانتظار الطويل؟! فلتبحث عن السّكين الآخر، قد يكون أقربَ إلينا ممّا تتخيّل.

قال «ماجد» بدهشة:

– أيّ سكين آخر؟

– أنت لم ترَ ما وراء الكلمات، ما معنى أنْ يتكرّر الاسم الخالد بحسب زعْمِهم على المقابر؟! يعني أن هناك أكثرَ مِن سكين وقد يكون موجودًا بأكثر مِن مقبرة فرعونيّة.

اتسعت عينا «ماجد» فرحةً ودهشة، حتى برزت من إحداهما دمعةٌ لشدّة ضغطه على الغدّة الدّمعية الخاصة بها، وقال بحُبور شديد:

– أهلًا بك في الفريق مجدّدًا، لكَم افتقدتُك بحقّ، الآن عادت الأمورُ كلها لنصابها ومعها أنفاسي.

ضحكتْ ضحكةً طويلة هذه المرّة، وقالت:

– أقدّر حالة التّخريف التي انتابتْكَ لشدّة الفرحة، ولكنْ يجب البحثُ عن كيفية الوصول إلى المقابر الفرعونيّة الجديدة بحثًا عنْ هذا السّكين بها.

عادَ بظهره للخلف، والثقةُ تحتويه قائلًا:

– عندي الفريق المتخصّص في ذلك، بل وعندي موقعُ مقبرة ثريّة جدًّا بكنوزها.

***

٢٠ يناير ٢٠١١

في ذلك الميدان الشهير بالفيوم، وعلى نفس المقهى التي انْتظره بها سابقًا في المستقبل! جلس على الكرسي الخارجي بها مُستمتعًا بدفء الشّمس الجميل في هذا التّوقيت، وبدأ يراقب المكانَ لتمضية الوقت حتى ظهوره، نفسُ الضجيج ونفسُ الوجوه التي لا تملّ صنع أجوائه الدائمة، فقط الجدالُ بدأ في التزايدِ حول هروب «بن علي»، وأنّ مصر ليست تونس، والأولاد التّافهين الدّاعين لثورة على «الفيس بوك»، أتاه «سمير» ليسأله عمّا يشرب، فاحتار ماذا يطلبُ وقد فشل في التأقْلُم مع الشاي، فقال:

– كوبًا من الينسون.

فسمعَ ضحكة عالية آتية مِن جواره، فنظر نحو صاحبها، ولدهشتهِ كان «عرفة»، نظر نحوَه مُتسائلًا عن سبب تطلّع «عرفة» إليه هكذا؟! في ذلك التوقيت لم يكن «عرفة» يسمع عنه حتّى.. كانت بداية المعرفة بعد يوليو ٢٠١٣، حتمًا هي

صدفة، أتاه مشروبُه ولكن ارتعشتْ يدُه رغمًا عنه وهو يتناوله بسبب التوتّر الذي شمله بنظرات «عرفة» التي لا تفارقه، وحدث ما كان يخْشاه، فقد جذبَ «عرفة» كرسيّه جالسًا معه على نفس مائدتِه الصغيرة، فتصنّع الدهشة بفشلٍ وهو يقول:

- أهلًا بحضرتك، مَن أنت؟

ضحك «عرفة» بقوّة وقال:

- هكذا أقنعتني أكثر، لا تمثّل هذا الدور عليّ فقد أتيتُ خلفك.

ابتلعَ «ماجد» ريقَه بصعوبة وقال:

- لا أفهم ما تقصد، ولِمَ أتيتَ خلفي هنا؟

ارتسمت الجديّة على ملامح «عرفة» وقال:

- دعْكَ من هذا التّمثيل الفاشل، لقد أتيت خلفَك عبْر فتحة السّرداب، ولكن وصلتُ أمسْ فقط، منذ متى وأنت هنا؟

شمله الإحْباط المعانق للدهشة، كيف وصل إليه هذا الثعلب؟ ومتى علمَ بأمْر فتحةِ السّرداب؟! همّ أنْ يسأله عنْ ذلك، ولكن قاطعه «عرفة» قائلًا:

- لا تظنّ أنّ أمنَ الدولة ستقع مع وقوع الشّرطة بعد أسبوع، باقٍ لي في سلطتي ثلاثة أشهر، ويمكنُني محْوك مِن على

وجه الأرض بأكثرَ مِن طريقة، لذا كي لا يحدث ما لا يُحمد عقباه، أحذّرك من الاقتراب لكنز قارون، فهو يخصّني وحدي الآن.

فقدت الدّنيا كلَّ بريقها، لقد وقع أسوأ ما يمكنُه تخيّله، لا يدري كيف سيتصرّف الآن مع «عرفة» وهو بالفعل في موضع قوّة لا يمكن بلوغها، بل هو كرمٌ مِن «عرفة» أن يتركَه بلاَ تصفية، لذا يجبُ عليه طمأنَته تمامًا، ممّا لا يدفعه لارتكاب هذه الحماقة!

فقال بخوفٍ حقيقي:

- اطْمئنّ لن أسعى خلفَ الكنز.

وربّما لعادته القديمة في جمع المعلومات، قال له «عرفة» بفضول:

- ما سببُ جلوسك هنا؟ ومنذ متى بدأت رحلتك؟ وأي أحداث تغيّرت بسببك؟

- لقد جئت منذُ أشهر قليلة، ولا يوجد أيّ تغيير، كنت أنتظر وقوعَ الثورة لاستثمار حالة الانْفلات الأمني، والآن أنتظرُ صديقي «معتز» وخطيبتَه.

ضحك «عرفة» قائلًا:

- يبدو أنّ هوجة يناير هذه سيربحُ منها الجميع، إلّا القائمين بها.

لم يعلّق «ماجد» خوفًا أنْ يؤاخذه «عرفة» إن نطقَ بما لا يرضيه، ولكن استطردَ «عرفة» قائلًا:

- إلى أيّ مقبرة ستذهبون اليوم؟

لمعت عينا «ماجد»، وقد توصّل لبعض المغْنَم فقال:

- سأترك لكَ كنز قارون كاملًا، ولكن هل مِن المُمكن أن تتركَ لي هذه المقبرة بكنوزها التي ضبطّتهم بسببها؟ الفوز بما فيه سيُغْنيني عن أيّ شيء آخر، وستكفيني تمامًا.

لمعت عينا «عرفة» الماكرتان، وقد ظهر بهما أنّه يعدّ الكثيرَ من الخطط مغتنمًا كذلك حالة الانْفلات الأمني، وقال ببساطة:

- لكَ هذه.

همّ أن يشكره «ماجد» ولكن اتّسعت عينا «عرفة» دهشة، وهو ينظر لنقطة بعيدة قائلًا:

- وتقول لي إنّك لم تتلاعب بالأحداث؟! أيّ عبثٍ فعلت؟

لم يفهمْ «ماجد» مقصدَه فسابقه ببصره إلى النقطة التي ينظرُ نحوها، وكاد أن يسقط مغشيًّا عليه مِن الذهول لهوْل ما يراه، فقد كان «معتز» قادمًا برفقة خطيبتِه التي تتهامسُ إليه بحياء، إنّها «هدير»!

***

نبراتُ صوتها تسكن روحَه لا عقله ولا أذنَه، مهما خفضت صوتَها بالهمْس يمكنه فكّ شفراتها والْتقاط حروفها بمنتهى النّقاء، فرغم جلوس «ماجد» بجوار سائق سيارة الأجرة المتّجهة إلى منزل خال «معتز»، و«هدير» بالكرسي الواقع خلفَه مباشرة برِفْقة الأخير، ورغم همْسِها الخافت بشدّة، إلّا أنه استطاع فلتَرَته من بيْن جميع الضوضاء التي تعمّ أرضَ مصر كلّها، بما فيها بوق السيارة التي يستقلّها، والذي يطلقُه السائق كلّ حينٍ قصير بمنتهى العصبيّة وهو يسبّ غباءَ البشر الذين لا يجيدون القيادة أو السّير في الطريق!

أكلتِ الغيرةُ قلبَه عندما سمعها تقول لـ«معتز» بحروف تتقطّر ودًّا:

- والله لولا أنّنا عقدنا، ما جئت معك أبدًا، أمّا الآن أنت زوجي حبيبي، ويحلّ لي صحبتك.

قصفتْه كلمة «زوجي حبيبي» بدانَةِ مدفعٍ قويّة بإصابة مباشرة في منتصف جبهتِه فقسمَتْها نصفين، اشتعلَ على إثْرها بقية جسدِه منتفضًا، وهمّ أن يلتفت إليها صارخًا بها أنْ تلزم الاحترامَ ومراعاة مشاعره!

لعلمه بأنّ التالي سيكون أشدّ وقعًا وألمًا، هتف بعصبيّة قائلًا:

- هؤلاء الأغبياء لستُ أدري مَن تركهم يخرجون مِن بيوتهم، فهُم أسباب الحوادث التي تقع، ويذهب فيها كثيرٌ من الضحايا!

قال السائق بحُبور:

- الله عليك يا أستاذ، لقد جئت بالزّيتونة.

هتف «ماجد» بعصبيّة أكبر قائلًا:

- أنتَ سائق محترم، وملتزمٌ بالقوانين.

ونظر إلى عدّاد سرعة السيارة، وقال بتردّد:

- سرعتك هي ١٤٠ كيلو فقط.

زادت حماسة السائق قائلًا:

- سوف تنبهرُ بسرعتي عندما نخرجُ إلى الطريق الصحراوي بعد قليل.

فضّل «ماجد» الارتعاد رعبًا عند وصوله لنقطة الانْبهار التي وعدَه الرجل بها، فقد كانت أهونَ بكثيرٍ من المشاعر القاتلة التي تتربّص به في الخلف!

***

١٩ مارس ٢٠١١

السيارة تتهادى في طريقها مِن الفيوم إلى القاهرة، والحوارُ بها محتدِم عن غزوة الصّناديق، بينما «ماجد» يسبحُ خياله إلى الملايين التي هو ذاهبٌ إليها، شعور غريب لأوّل مرّة ينتابه، ما بين طرفةِ عينٍ وأخرى وفي لمح البصر سيتغيّر حاله، بعد سويْعات سيسبحُ في الأمْوال كما كان يفعل عمّ دهب في قصص ميكي التي يعشقُها ولا يخجل من قراءتها حتّى الآن!

سيشتري الشقة الفاخرة المؤهّل الكبير لزواجه بـ«سارة» جوهرته الثمينة، ثلاثة أشهر مرّت منذ سعيِه إلى تلك المقبرة التي يعرفُ موضعها بعد أنْ حضر مرحلة اكتشافها في المستقبل، هو الآن قبلَ تلك الأحداث بأربع سنوات، وحتماً لا يعلم مخلوقٌ عنها شيئًا، ذهب أولًا لخال «معتز» ليتّفق معه بأنّ عنده قطعة أرض داخلها مقبرة فرعونية كبيرة، ويريد شراكتَه فيها، «ماجد» بالمكان والمال، والخال وبقيةُ رجاله بالجهد والبيع، ويكون نصيبهم ثلثَ الربح، وافق الرجلُ على مضض والشكُّ يعتريه، ولولا وجودُ «معتز» ابن أخته الذي أكّد له سلامة الموقف ودفعَ بالاطمئنان إلى قلبِه، لولا ذلك ما تمّ الأمر أبدًا، ولهذا طلبَه «ماجد» ليقدّمه إلى خاله.

بالوديعة التي أعدّها والده له بالبنك كتأمين لمستقبله؛ اشترى «ماجد» قطعة الأرض التي تستقرّ المقبرة في باطنها، وتكفّل بكثير من الإنفاق على عمليّة الحفر والوصول إلى بابها، نفسُ الحائط برموزه، ونفسُ المكوّنات والثروات والكنوز بها، ولكن هذا لم يمنعْ «ماجد» من أنْ يعيدَ البحث بدقّة أكبر عن السّكين الفضّي، ولم يجدْه!

وكان هذا كفيلًا بصرفِ ذهْنه تمامًا عن كنز قارون، فلا يوجد سكّين فضّي، و»عرفة» يقف حائلًا بينهما، وأخيرًا بعد ثلاثة أشهر تمّت العملية للنهاية، وبيُسْر كبير بسببِ حالة التخبّط السياسي والأمني التي تضربُ بالبلد، وها هو ذاهبٌ لاستلام نصيبِه.

طرق أذنه صوتٌ يحفظ نبرتَه جيدًا، إنّه صوت «مصطفى» الذي علا صوتُه وسط الجدال المحتدِم قائلًا:

- هذا اليوم ليس نصرًا كما تزعمون لطرفٍ على آخر، بل هو بدايةُ الهزيمة المريرة التي سيتجرّعها الجميع، لقد تركتُم الذّئاب والثعالب وابتلعتم الطعمَ الذي قذفوه إليكم، ليتمّ تفريقكم وتمزيقُ الوحدة التي جمعتْكُم وحقّقت لكم نصركم المُبين.

حاول «ماجد» الانصرافَ عن هذا الأمر تمامًا، ولكن رغمًا عنه أخذ يتطلّع إلى ملامحِ «مصطفى» المهمومة والحالمة وهو يتحدّث ويفيض بمنتهى الحماس، قاوم بعنفٍ رغبتَه في الردّ عليه، ولكي ينجح في الهرب منه؛ أخرج جوّاله ووضع سماعاتِه الصغيرةَ بأذنيه، وبدأ يستمعُ لأغاني عمرو دياب الصادرة في ألبومه الأخير!

***

ديسمبر ٢٠١١

بقاعة أحدِ أكبر فنادق القاهرة، وبشرفة مطعمِه الفاخر المطلّة على النّيل، أخذت «هدير» تتطلّع إلى الألوان المنعكسة على صفحته في تتابع أخّاذ، وعلى نقيض «معتز» الذي يرتجفُ مِن لسعة البرد التي صفعت وجهَه، كانت هي مستمتعةً جدًّا بنَسَمات الهواء السّابحة فوق مياه النّيل والآتية إليها لتمنحَها قبلتَه محبّة وعشقًا متبادليْن.

أخيرًا، ظهر «ماجد» ببدلتِه اللّامعة والمبالَغ في أناقتها، تصحبُه «سارة» التي يتوقّف الزمن بكلّ نقطة تمرّ بها، وقد تجمّدت كلّ الكائنات الحيّة عندما تقعُ في مجال أبصارهم!

جلسا متجاوريْن بمقابلة «هدير» و»معتز»، وبالطبع توقّف بصر الاثنيْن عند «سارة» وفقط، وقد كان هذا مبعثَ سعادة «ماجد» فهو يريَهُم بضاعتَه ويفخرُ بزهْوها وتفرّدها، وأنه الفائز بكلّ هذا وحدَه!

طرق سمعَهم الحوارُ المحتدِم عن أحداث «محمد محمود» وجولات انتخابات مجلس الشعب، فلم يلقِ لها «ماجد» بالًا، وقبل أن تغمسَه «هدير» في هذا المُستنقع بادرَ قائلًا:

– «معتز» أخلص وأفضل أصدقائي، قضينا سويًّا أجملَ أيام عمرنا بالجامعة، و»هدير» زوجته.

رغم أنّ «هدير» أومأت لـ»سارة» مُبْتسمة إلّا أنّ الأخيرة ردّت مازحة:

– هل تقصد أنّ أيامي معك لم تكنِ الأجمل؟

ضحك «معتز» بقوّة في حين عقدت «هدير» حاجبيْها، وقال «ماجد» بتردّد:

– الأيام الأجمل ستكون بعد زواجنا الذي تأخّر كثيرًا عمّا أعددت له.

نظرت «سارة» نحو «معتز» قائلة:

- فلتحكُم أنتَ يا «معتز»، بما أنّك متزوج ألَا يجب استثمار فترة الخطوبة بأفضل ما يكون لأنّها المرحلة الذهبيّة في علاقتنا؟ ولن تطول سوى عام واحد، هل هذا بكثير؟ هذا بالطبع بجوار اسْتكشاف كلّ منّا للآخر بشكلٍ أفضل طوالَ هذه المدّة.

همّ «معتز» أن يردّ، ولكن نطقت «هدير» بهدوئها الرائع قائلة:

- بالعكس، طالما وجدت في البداية المؤهلات التي دفعتك للموافقة على الارتباط به، لا تعقدي الأمورَ وسارعي بإتمام مراحل الارتباط طالما يمكنُك ذلك، طبيعتُنا البشرية يعتريها الكثيرُ مِن النّقص، وحتماً ستصطدم هذه النقائصُ ببعضها البعض، في مرحلة الخطبة ستكون سببًا في انتهاء الأمر والانفصال، أمّا مع الزّواج سيكون هناك حدٌّ أكبرُ للتحمّل يدفع الحياة للاستمرار.

نظر «ماجد» نحوها بعمقٍ وشرود، ولسانُ حاله يقول..»هذه هي مَلَاكي الرّقيق العاقل».. في حين عقدت «سارة» حاجبيْها وقالت بجُمود:

- لقد وجّهت السؤال إلى «معتز»!

ارتبكَ كلٌّ مِن «معتز» و»ماجد»، وقد شعرا باقتراب معركةٍ حامية الوطيس ممّا يهدّد صداقتَهما، ولكنْ قامت «هدير» قائلة:

– أنا ذاهبةٌ إلى الحمّام.

مال «ماجد» على أذن «سارة» قائلًا:

– هل يليق هذا؟!

عادت برأسِها للخلف، وقالت له بحدّة:

– ماذا تريد؟

قال «معتز» مبتسمًا، وبضحكة مصطَنعة:

– خيرًا يا جماعة، لنتجاوز هذه النقطة، أنا رأيي مِن رأيك يا آنسة «سارة»، بالفعل عامٌ ليس بالكثير.

منحتْهُ «سارة» بسمةً ذهبت بفؤاده، وقالت له برقّة:

– شاكرة جدًّا لذوقك.

كاد «ماجد» أنْ يقوم ليصفَعَها، ولكن كظمَ غيظه بصعوبة، وقام واقفًا قائلًا:

– أنا ذاهب إلى الحمّام.

التقتْه «هدير» في الممرّ القصير المؤدي إلى التفرّع السابق للاتّجاه يمينًا ويسارًا حيث تقع الحمّامات بهما للرجال والنساء؛ كلّ على حدة، استوقفها قائلًا:

- أنا آسف جدًّا لك على ما بدرَ مِن «سارة».

كانت تهرب ببصرها منه، وبصوتٍ خافت قالت:

- لا عليك، الأمر بسيط.

وهمّت أن تنطلق، ولكنه استوقفَها قائلًا:

- بعد إذنك لو..

قاطعته قائلة:

- أنتظر حضرتك على المائدة هناك لتتحدّث بما تريد.

وتركتْه وانطلقت دون سماعِ ردّه، ابتسم ابتسامةً حائرة بين السّعادة والحسرة والحسد، لكَمْ هو محظوظ «معتز» صديقه هذا!

همّ أن ينطلق نحو الحمّامات، ولكن طرق أذنَه صوتُ صبيَّيْن يقول أحدُهما للآخر:

- انظرْ إلى ما تمّ تصويره.

وردّ عليه الآخر قائلًا:

– إنهما الساقان فقط.

اندفعَ «ماجد» ليظهر أمامهما بعد أنْ أصبح في ملتقى الفرعين يمينًا ويسارًا، وقد كان الصبيّان يقفان يسارًا أمام باب حمّام السيدات، أدرك على الفور ما يتحدّثان عنه، فانتزع منهما الجوّال وهُما يتراجعان فزعًا، وبلا صوت وبكلّ علامات الغضب أخذَ يشاهد ما يتحدّثان عنه، وقد ارتفع صوتُ صفعاته على وجهيْهما بعد أنْ رأى تصويرهما الخفي لساقي «هدير» أثناء استخدامها للحمّام!

***

٢٤ يونيو٢٠١٢

اليوم هو يومُ البهجة والسّعادة التي كمْ تاقت نفسُه إليه، لقد كان حلمًا بعيد المَنال، وها هو حقيقة ماثلة بين يديه، كانت «سارة» بالنسبة إليه في المستقبل ثمرةً ثمينة باهرة أنّى له الوصول إليها، وفجأة انقلبتِ الأمورُ رأسًا على عقب، وتيسّرت له سبلُ الفوز بها، واجَه بعض العنتِ معها وتأخّر هذا الوصول قليلًا ولكن.. ها هي الطيور تغرّد، والبلابلُ تصدحُ وتطرب معه، فقد أصبحتْ «سارة» ملكَ يمينه، فأيّ سعادة هذه وأيّ فرحة قد لا يطيقُها، ها هي عروسُه في ثوبها

الأبيض متألّقة كعادتها بأكثرَ ممّا يراها في كلّ مرة، أمسك يديها وهو ينظر مليًّا إلى عينيْها بحبٍّ وسعادة وعدمِ تصديق، وعلى غير عادتِها في الشهور الماضية تخضّبت وجنتاهَا بحُمرة خجلٍ وانْكسرتَ عيناها وهي تهرب مِن نظرته، وقالت بتردّد:

– ما بك؟ كأنّك تراني لأوّل مرّة!

ضحك قائلًا:

– بالفعل أراكِ لأوّل مرة، فأنت متجدّدة ودومًا تأتين بما تعجز عنه الأُخْريات.

رفعتْ حاجبيْها قائلة:

– فلتقدّر ذلك وتحفظه وتمنحْه حقّه.

– وهل قصّرت معك؟ لقد أنفقتُ حتى الآن عشرة ملايين في أقلّ مِن عاميْن.

قالت مُبتسمة:

– وها قد فُزت.

ضحك قائلًا:

– تستحقّين، ولكن يجب ترشيد الإنفاق، أو البدء في مشروع يزيدُ من العشرة المتبقّية.

عادت للخلف خطوة، وهي تقول بدهشةٍ وحِدّة:

- هل المتبقي عشرة فقط؟!

تردّد «ماجد» وارتبكَ قائلًا:

- هل هذا هو التّوقيت المناسب للنّقاش في ذلك!؟

قالت بحدَّةٍ أكبر:

- شكوكي كانت في محلّها بالفعل، لقد كنت مُتحمّسًا جدًّا لمشاركتي إيّاك في البحث عن كنز قارون، وفجأة زالَ هذا الحماس وقلت بأنّك قد وصلت إليه، ورفضت بعنفٍ شديد رؤيتي لهذه الخزائن مدّعيًا بأنّ شركاءك مجرمون أشداءٌ لا يمكن تركي لقمةً سائغة بين أنيابهم، والآن أعلمُ فقط بأنّ نصيبك من كنز قارون ليس سوى عشرين مليونًا! أريد معرفة التفاصيل وإلّا لن تمسّني أبدًا، ما هي أسطورة كنز قارون التي خدَعْتني بها؟ وكيف أتيت بهذه الملايين؟ ومَن شركاؤك المجرمون الذين اشتركت معهم في سرقتها؟

ارتفعَ حاجبا «ماجد» دهشةً لخيالها الواسع، أمسكَ بيدِها قائلًا:

- ليس الأمر هكذا أبدًا، أرجوك لا تُفسدي سعادتي القصوى بهذا الجدال الآن، وأعدُك بالشرح غدًا.

نزعت يدَها بعنف قائلة:

- أقسمُ بالله لنْ تنالني إلّا بعد معرفة كلّ الحقيقة، وكيف خدعتني حتّى وصلت بي هنا؟

هزّ رأسه بضيقٍ كبير، وقال بصوتٍ قد بدأ في الارتفاع:

- لمْ أخدعْك يا «سارة»، كنز قارون حقيقة، ولكن هناك مَن هدّدني بالقتل وهو قادرٌ على تنفيذ تهديدِه بالفعل، وذلك إنْ لم أبتعدْ عنه، فقرّرت الاكتفاء بكنوز إحدى المقابر الفرعونية التي وصلتُ إليها مع الفريق الذي حدّثتك عنه، نصيبي كان عشرين مليونًا، لم يخطرْ ببالي أبدًا قدرتي على إنفاقهم بقيّة عمري كلّه مهْما عشتُ في بذخ، ولهذا لم أبحثْ عن سبل اسْتثمارهم، وكانت المفاجأة أنّ نصفهم تبدّد بهذه السرعة.

لوّحت بساعدها قائلة بسخط:

- لمْ أعلم أنّك جبان لهذه الدرجة! ولمَ انفردت بالقرار وحدَك طالما قبلت شراكتي معك في هذا الأمر؟ كان مِن السّهل التّغلب على هذا التهديد بأكثرَ من طريقة أيّها المغفل!

ابتسم «ماجد» لعلمه بقدرة «سارة» على ذلك بالفعل، فذكاؤها وسعةُ حيلتِها لا حدودَ لها، فأمسك بيدَيْها مجدّدًا وقال:

– حسنًا، لم يفتِ الأوان بعد، لا يمكنه الوصول إلى الخزائن بدون السّكين الفضّي، والذي أثقُ باستحالة قدرته على إيجاده، هل مِن الممكن أنْ أفوز بكنزي الخاصّ الآن، ومِن الغدِ نبحث في أمر كنز قارون هذا؟

ابتسمت بخجلٍ لا يتناسب أبدًا مع ثورتها التي انْطفأت بسرعة البرق، وقالت:

– ليس مِن السهل الفوز بأيّ كنز يا فتى.

ضحك قائلًا:

– وهل كلّ ما عانيت في الشهور السابقة ليس بكافٍ لهذا الكنز الذي بين يدي.

تضاعف خجلُها، فنزعت يدَها مجدّدًا، وانطلقت مِن أمامه مُسرعة.

***

ديسمبر ٢٠١٢

شوارع الفيوم ومبانيها وميادينها تبدو له كأنّه يراها للمرة الأولى، كان كمَن سافر لدولةٍ أوروبية وعاش بها حتى تشبّعت واعتادت عيناه على النظام والنظافة الدائمين

في كلّ شيء، ما كلّ هؤلاء البشر الذين يسيرون بالطرقات؟ إلى أين هُم ذاهبون؟ وهل حقًّا الثمرة التي سيعودون بها مِن سعيهم هذا تستحقّ ذلك الجهد منهم؟ أبواقُ السيارات التي لا تكفّ عن الضجيج والتي تعجز عن تحديدِ مصدرها وهي تحيطُك من كلّ اتّجاه حتى تشعر بأنّها تنبعث مِن داخلك، السيارات التي تتقاتل للمرور أولًا، ولا يمكنك أبدًا معرفة سبب تعجّلهم ونزاعهم على تلك الأوْلوية، وهُم جميعًا سوف يتوقّفون عند المطبّ العجيب التالي! أزعجه بشدّة قائدُ تلك الدّراجة البخارية المندفعة أمام سيارته، التي ربّما يجهل هذا المأفون ما هي ماركتها أو ثمنها الذي قد يكْفيه عمره كلّه، تعجّب كيف كان يطيق الحياةَ وسط هؤلاء البشر! رغم أنه لم يغادرْ مصر بعد، ولكن انتقل لبعدٍ آخر ووسطٍ جديد قدْ لا يعلم أو يشعر بما يراه الآن، لهُمْ مدنُهم الخاصّة التي يقيمون بها وشواطئهم المتفرّدة لهم وحدَهم، بل قد يكون لهُم طرقًا لا يسير بها سواهم، دون الوقوع في مُستنقع الشّراكة مع هذه الفئة البائسة التي قد يرون بعضَها عبر القنوات الإخبارية حين مرورِ الأعين عليها سريعًا أثناء تغيير المحطّات، ولكن أن تنغمِسَ فيها هكذا سيختلفُ الشعور وكأنّما يعبرون سيركًا معدًّا لعرض فقرة غرائبيّة!

وصل أخيرًا إلى منزل أبيه، طلب مِن السائق أن يقف بالسيارة بعيدًا مُنتبهًا جيدًا لها، وسار الهوينى نحو العمارة العتيقة التي تربّى فيها، تنتابُه مشاعر عجيبة مُتناقضة، ما بين التأفّف والحنين، ما بين ذكرياتٍ يرى بعضها رائعًا وأخرى ينفضُها مِن رأسه بسرعة، لم يتعرّفه مخلوقٌ ممّن مرّ عليهم، افتقد إلقاء الجميع التحيّة عليه فوْر رؤيته، ربّما لم يستطيعوا التعرّف عليه بهيئته الجديدة اللّامعة المتألّقة بكلّ ثمين، وإنْ كان يشكّ معرفة أحدهم ماذا تعني السّاعة الرّوليكس التي يرتديها أو ما هو سعرها!

كان المصعد متعطّلًا، فبذل جهدًا تقطّعت له أنفاسه حتى وصل إلى الطابق السادس؛ حيث الباب البنّي متشقّق الدّهان يحمل اسمَ أبيه ومهنتَه التي ظلّ يفخر بها حتى بعد توقّفه عن التدريس، داس زرَّ الجرس لينطلق صوته الحادّ المزعج، ومرّ وقت دون أن يردّ أحدهم، فأعادَ الكَرّة، وبعد ثوانٍ سمع صوت كحّة والده المتقطّعة تقترب، فُتح الباب وإذا بأبيه البالغ من العمر خمسًا وستّين عامًا يقف أمامَه وقد تجاوز التسعين!

عدّل النظارة السميكة على وجهه ليعاينَ وجْه الواقف أمامَه بدقّة أكبر، وعندما علمَ بأنّه «ماجد» الصامت أمامه، تركَ له المكان واندفع إلى الدّاخل في صمت أيضًا، أغلق «ماجد» الباب خلفَه وسار ليقف بجواره وهو يكوي قميصَه،

ووضع يدَه على كتفه فهزّ الوالد كتفه نافضًا تلك اليد، قال «ماجد» بأسًى:

– كمْ أفتقدك يا أبي!

– لا أراك الله مكروهًا.

– ماذا أفعل كي ترضى عني؟

– حسابك على الله، الْتمسْ منه الرحمةَ والمغفرة.

هتف «ماجد» بعصبيّة:

– لَمَ كلّ ذلك يا أبي، هل الثراءُ حتى لو كان سريعًا حرام؟ هل التمتّع بهذا الثراء منهيٌّ عنه؟

عدل الأب ياقة القميص ليمرّ بالمكواة فوقَها، وهو يقول بلا عناية:

– أنتَ تدري ما الصواب وما الخطأ، أنت مكلّف بالغ عاقل مسئول عن نفسك، فلتفعلْ ما تشاء.

– لَمَ كلّ ذلك يا أبي؟!

أراح المكواةَ على قاعدتها، ونظر نحوه بعمق قائلًا:

– ألم تملّ النقاش في هذا الأمر؟ أسألك سؤالًا واحدًا.. هل أنت سعيدٌ حقًّا؟

نطق «ماجد» بسرعة قائلًا:

- جدًّا. أحلامي تتحقّق بمجرد أنْ تتوارد لخيالي.. ماذا أريد أكثرَ من ذلك؟!

تنهّد الأب، وهزّ رأسه بأسًى وقال:

- لنْ أحدّثك عن الحلال والحرام، ولكن سأذكر لك شيئًا واحدًا، أكبر متعةٍ مررتُ بها في حياتي لم تكنْ في التمتّع بالملذّات كما تراها أنت، بل كانت بالنّصر بعد كلّ عقبة أتجاوزها، شعور لن تدركه أبدًا، فمع كلّ أزمة ومطبٍّ تعبُره يمنحكَ الله لذّة تغْنيك عن كلّ ملايين الدّنيا التي تسبحُ فيها الآن.

- الغنى ليس عيبًا يا أبي.

- هذا إنْ لم ينسِكَ نفسَك، متى كان آخر فرضٍ صلّيته؟

ارتبك «ماجد» وقال بعصبيّة:

- هل سترفض مساعدتي الصغيرة كذلك الآن؟

هزّ الأب رأسَه بأسًى مجدّدًا، وتناول مكواته وعاد لتنسيق قميصه وهو يقول:

- تعلمْ رأيي في مالك، وهو لم يتغيّر بعد.

- والله يا أبي إنّه من مصدرٍ حلال.

- لم يعدْ عندي الفضول لمعرفة هذا المصدر الذي تصرّ على إخفائه، وكما قلت لك.. أنت عاقل ومستقلّ إن كنت تراه حلالًا فحسابك على الله، ودَعْني وشأني.

شعر «ماجد» بالنّدم على مجيئه مجدّدًا، لم يفعلها منذ عام، ونفس الموقف والعناد مِن أبيه، فقال بخُفوت:

- هل يمكنني مقابلةَ أمي؟

أشار بيده نحو غرفتها دونَ أن ينطق، فسار «ماجد» نحوَها ببطء وهو يسأل الله أنْ يتغيّر موقفها كذلك، وأن يكون لديها لينٌ أكبر مِن أبيه، ولكنْ خاب ظنُّه.

***

لا يدري لم طلبَ من السائق أن يتجوّل بالسيارة على مهَلٍ بشوارع الفيوم رغم تأفّفه منها! وقع بصرُه على طفل لا يتجاوزُ عمرُه التاسعة، مهترئ وشديدُ توسّخ الثّياب، يأتي مسرعًا نحو سيارته فصرفَ بصره عنه، ولم يعرْ طرقاته على زجاج السيارة اهتمامًا، شعر بغصّة في حلقه، وتذكّر جدلًا قديمًا دار بينه وبين «مصطفى» في المستقبل، كان يرى هؤلاء ليسوا سوى محتالين، و»مصطفى» يقول له بأنّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لم يردّ سائلًا، وأنه يجبُ ألّا يخيّب رجاء سائلٍ فيه أبدًا ولو

بالقليل، وكأنّما كان ذلك تمهيدًا ليجدَ ما جعله يرتعدُ رعدةً سريعة رغمًا عنه، فقد وقع بصرُه على «مصطفى» ساكنًا في سيارته ممسكًا بمصحفِه الصغير منهمكًا في التّلاوة، واختطف بصرُه نظرةً سريعة إلى المنزل المكوّن من طابقين والقائم أمامه مباشرة، وعاد ليكملَ تعبّده، نظر «ماجد» نحو هذا المنزل، فإذا به منزلُ السيدة التي جاء إليها برفْقَته ليمنحها لحمَ الأضحية في المُستقبل، طلب مِن السائق أن يقف جانبًا، وترجّل منها وسار ببطء نحو «مصطفى»، الذي لم يلحظْه إلّا بعد إلقاء السّلام عليه، نظر نحوه ببسمته الوضّاءة رادًّا السلام، وعيناه تحملان تساؤلًا عمّا يريده، فقال «ماجد» ببطء:

– ما رأيك لو قلتُ لك بأنّ هذه السيدة ستقذفُ جثتك بحذائِها لاعنةً إيّاك في المُستقبل؟

بُهت «مصطفى» بالسؤال غير المتوقّع والغريب، ورغم تساؤلاته الكثيرة والمُسْتنكرة إلّا أنَه فضّل التركيز على إجابة الرجل أولًا، فحتمًا لها أهمية أتَتْ به، فقال بهدوء:

– وما دافعها إلى ذلك؟

– سيرضي ذلك المانحَ الجديدَ بعدك.

اتّسعت ابتسامة «مصطفى» قائلًا:

– إذًا هي الحاجة، وليس شعورُها الحقيقي.

هتف «ماجد» بسخط:

- هذا الشعب لا يستحقّ منك أي تضحية.

- لم نرَ من الشعب سوى كلّ خير، وذلك عندما نالَ حرّيته الحقيقية، أمّا حين وقوعه تحت أيّ سطوة كانت إعلامية أو تَجَبّريّة؛ لا تؤاخذْه عندها.

- لم يُودِ بك سوى مثاليتك السّخيفة هذه.

اتّسعت عينا «مصطفى» وقال:

- هل مِن الممكن معرفة مَن أنت؟

تنهّد «ماجد» وقال:

- أنا قادم لك مِن المُستقبل لأبلغك رسالةً واحدة، أتمنّى أن تأخذها بجدّيّة، أرجو ألّا تكون بالقاهرة في شهر أغسطس القادم.

همّ «مصطفى» أنْ ينطق، ولكن تركَه «ماجد» واندفع منصرفًا عنه.

***

داخل فيلّته السّاحرة المطلّة على الشاطئ مباشرة في قرية مراسي السياحية الفاخرة بالسّاحل الشمالي، وفي قاعة

الاستقبال العامرة بالتّحف الفنية المعلّقة على الحائط تارةً والمنتصبة فوق موائدها المخصّصة لها تارة أخرى، وفوْر انتهاء الخادم من صبّ المشروب الدافئ لهم، تنحنحَتْ «سارة» ليفيق «ماجد» من تمعّنه الشديد إلى ساقي «ميرنا» الجالسة أمامه بثوبها القصير جدًّا واضعةً إحداهما فوق الأخرى، فقال مسرعًا بارتباك وعيناه تلمحان ملامحَ «سارة» الغاضبة، بينما تلوح السّعادة على محَيّا «ميرنا» بنظراته تلك:

– الفكرةُ رائعة بالفعل، وأتمنّى أن تجني ثمارها.

ابتسمت «ميرنا» وتعمّدت أن تضفي على صوتها دلالًا أكبر، وقد أيقنت مِن تأثيره على «ماجد» قائلة:

– لا تقلق يا مستر «ماجد»، شركتنا متخصّصة ولا يشقّ لها غبار في هذا المجال، وسخاؤك معنا سيحقّق لك ما تريد.

مدّ لها «ماجد» ورقةً مرسوم عليها رسمٌ تقريبيّ كبير للسّكين الفضّي، قام به فنان متخصّص، مثل هؤلاء العاملين مع وزارة الداخلية لرسم أوْجه المشتبَه بهم عبر الإدْلاء ببعض أوصافهم، وقال لها:

– هذه هي الصورة التقريبيّة للسّكين، أعطني رقمَك ولنتواصل على «الواتس آب» بعدَها، وإذا ظهر لك شيء أرسلي لي صورتَه.

تبادلا الأرقام، وانصرفت «ميرنا» وقد ودّعها «ماجد» حتى الباب، وعندما عادَ وجدَ «سارة» تنظر إليه بحاجبيْها المرفوعيْن في استنكارٍ واضح، فحاول تجاهلَ ذلك قائلًا:

- هل سيجدي ذلك فعلًا؟

قالت له بحدّة:

- لماذا لمْ تطلب منها الصعودَ معك بأعلى؟ غرفة النوم مُجهّزة جيدًا!

ارتبكَ قائلًا:

- ماذا تقولين؟ دعْك مِن هذا الخَرَف؟

قالت له بحدّة أكبر:

- أنتم هكذا جنسٌ لعين، لا يكفي أعينَكم إلّا التراب، ماذا تكون هذه بجواري؟

كانت بالفعل «سارة» تفوقُها جمالًا وجاذبية، ولكن لا يدري سرّ انجذابه كذلك لـ«ميرنا»، هل حقًّا بلاؤنا هو أنّنا لا ننظر أبدًا لما في أيدينا، ونبحث عمّا ينقصنا؟

ولكنّه لا ينقصه شيء! هل هي فتنة الاعتياد والبحث عن التجديد؟

ولكن «سارة» متجدّدة في كل شيء! هل هو الجشعُ والطمع الذي يقول هل مِن مزيد، لا يدري.. ولكنّ «ميرنا» فتَنَتْه بجاذبيّتها المختلفة كثيرًا عن «سارة»، يمكنه القولُ بأنّ «ميرنا» تجيد الإغواء رغم إمكاناتها البسيطة، وهذا ما تفتقدُه «سارة» التي تثقُ في قدراتها بشكلٍ مُفْرط! كان لديه إصرارٌ في الهروب مِن هذا الجدل فقال:

- دعْكِ من هذا الهزْل، هل سيفلح ذلك بالفعل؟

تنهّدت بغيظ، وقالت:

- لقد جرّبنا طريقتك العقيمة مع خال «معتز» ولم تفلح، نحن الآن نتعاملُ مع خبراء، بدلًا من الجري خلفَ المنقّبين، هؤلاء هُم التجار الذين يحصلون على ناتج بحثِهم، وبالتالي سيمرّ عليهم أي جديد وأيّ مُستخرج مِن تلك المقابر، وبالسّعر المناسب نشتريه مِنْهم، والرائعُ في الأمر أنهم لا يعلمون قيمة السّكين الحقيقية.

- هل مِن الممكن أنْ يكون «عرفة» قد توصّل إليه بهذه الطريقة؟

- مَن «عرفة» هذا؟

- إنّه الرجل الذي يسابقني نحو الكنز.

- لم لا تتأكّد من ذلك بالوصول إليه؟

- البعد عنه منتهَى الغنيمة.

- بالعكس، هذه هي الخطوة المنطقيّة، يجب أن تجعل عدوّك تحت المجهر، وأمام عينيك طوالَ الوقت.

كانت حجتُها بالغة، ويعلم أنّه لديه قوة المال التي تمكّنه من كلّ ما يريد، ولكن ما زال بداخله الخوفُ المزروع به منذ معرفته بـ»عرفة»، قد يكون «عرفة» مقتولًا الآن أو يتنعّم بثرائه بعد نجاح خططه التي أعدّها، أو حتى يرفلُ بكنوزٍ لا قبلَ لأحدٍ بها وقد تخطّى السّرداب إليها!

يجبُ عليه بالفعل الوصول إلى «عرفة» ولو بطريق غير مباشر، فمعرفة حالِه ستجعلُ خطواته واثقةً وسليمة.

***

بالطابق الخامس عشر في تلك العمارة الشهيرة بجاردن سيتي، والمطلّة مباشرة على النّيل، وفي الشّقة التي تحتل الطابق كاملًا، رغم أنّ العمارة معدّة ليحوي الطابق خمسَ شقق كبيرة، وفي الشرفة الواسعة بها والتي تشبهُ حديقة كبيرة بالنّباتات المتسلّقة والتي تكادُ أن تخفي الجدرانَ خلفها، تلوّثت نسمات الهواء الرقيقة بالدّخان الكثيف الذي نفثَه «عرفة» باستمتاعٍ

شديد، وقبل أن ينطق محاورًا الجالس بجوراه ذي الشّارب الكثّ والملامح الغليظة، دخل عليه غليظٌ آخر ليقولَ له:

- لقد أمسكنا بمتلصّص جديد يا ريّس.

اعتدل «عرفة» في جلستِه، وتنهّد بنفاذ صبر وقال:

- ماذا يريدون هذه المرّة؟ ائتني به.

ألقَى مبسمَ الشيشة التي كان مُستمتعًا برفقتِها، ودخل عليه رجلاه يجرّان شابًّا هزيلًا يظهر الرعبُ على محيّاه، فقام «عرفة» وأمسك بياقةِ قميصه قائلًا:

- ألم أدفعْ لكم ما أردتم، ما المطلوبُ الآن؟

فقال الشابّ في وجَلٍ شديد:

- أنا آسف يا باشا، أقسمُ بالله لن أعودَ هنا ثانية.

صفعَه «عرفة» بقوةٍ طار على إثرها بعضُ لعاب الشابّ، مع حركة وجهه المفاجئة بقوّة الصفعة، وقال له:

- أخبرني أولًا ماذا تريدون؟

كادَ الشابّ أن يبكي:

- كنا فقط نجمعُ بعض المعلومات عنك.

عقد «عرفة» حاجبيْه قائلًا:

– أي معلومات تريدون؟

– فقط محل إقامتك، والتأكّد مِن شخصيّتك.

زادت حيرة «عرفة» وقال:

– مَن أرسلك يا فتى؟

– نحن شركة خدمات أمنيّة جديدة.

قال «عرفة» في دهشة:

– ماذا؟!

قال الشابّ برجاء:

– مثل شركات الحراسات، ولكن في مجال جمع المعلومات عن أيّ شيء، أو أيّ فرد.

زاد اهتمام «عرفة» قائلًا:

– يبدو أنّ هناك جهة جديدة تستهدفني، أخبرني مَن الذي طلب هذه المعلومات منكم؟

– أقسمُ بالله لا أدري، دوري تنفيذُ الأوامر وفقط، هذه لدى إدارة الشركة.

- حسنًا، ما هي شركتكم؟ وأين موقعها؟

ما إنْ منحه الشابّ ما أراد حتى أشار «عرفة» لرجلَيْه بأنْ يلقياه مِن الشرفة، ولم يشفعْ للشابّ صرخاته الملتاعة ورجاؤه المتكرّر.

***

في قاعة حفلات ذلك الفندق الكبير، ارتفع ضجيجُ الأغاني وانطلق الجميع متراقصين بجنون، وتظهر لحومُ النساء بأكثرَ ممّا يخفون منها، وعند الموائد ما لذّ وطاب من طعام باهظ الثّمن، وفي الجانب بارٌ معدٌّ لجميع المشروبات، بما فيها بعضُ الخمور، و»سارة» تتألّق في ثوبها الجديد القادم خصّيصًا لها من باريس، بينما «ماجد» يبحثُ بعينيه عن «ميرنا»، وعندما لم يجدْها؛ أرسل لها على «الواتس آب» مُتسائلًا قائلًا:

- هل يعقل أنْ تتغيّبي عن حفلِ عيد مولدي؟!

أرسلت أيقونة لوجْه بعينٍ تغمزُ قائلة:

- هل أنتَ متأكّد أنه ليس حفلًا كحفلات عيد ميلاد عادل إمام في «السفارة بالعمارة».

- أرسل لها وجهًا يدمعُ مِن أثر الضّحك قائلًا:

- وهل لديك مانعٌ مِن ذلك؟

- ليس سريعًا هكذا؟

همّ أن يردّ عليها ولكنْ نادتْه «سارة»، فحذف المحادثة بسرعةٍ وذهب إليها لتقدّمه إلى أحدِ المعارف الجُدد، رسم الابتسامةَ الدبلوماسية التي ملّها، وردّ عليهم بالعبارات المحفوظة، وانْشغلت عنه «سارة» بضيفةٍ جديدة، فانصرف إلى الشّرفة الكبيرة المطلّة على النّيل ليستكمل محادثة «ميرنا»، ولكن، وجدها أمامه يلفّها نورٌ ملائكي هادئ، ثوبُها الثقيل المحْتَشم، حجابُها المحكَم، صوتُها الخافت جدًّا، بسمتُها الوضّاءة، وأمامها «معتز» الذي نسيَ «ماجد» تمامًا أنه قد دَعاه ضمنَ قائمة المعارف الجديدة، إنّها «هدير»!

شعرَ بأنّ الزمن قد توقّف، كان مِن النعم التي هبطت عليه نسيانُه إياها بعد انتقال معيشتِه مع «سارة» إلى إحدى المُدن الجديدة، وجهُها الهادئ يراه الآن أنقَى ما في الدّنيا كلها، رغم الرّغد الكبير الذي يعتريه، إلّا أن ذكرى احتفالها بعيد مولده البسيط يراه الآنَ أجملَ حفلٍ من الممكن أن يُعدّ له، به مشاعرُ حبّ صافية حقيقيّة، فيه كلّ ما يتمنّاه الآن، تذكّر ضحكتها البريئة على إثْر مفاجأته بالحفل، تذكّر سؤاله السّاذج أليس

هذا مِن البِدع؟ تُرى كيف يكون حفلُه الآن وما حكمُه؟

تمعّر وجهه بألم أنّها ليست له الآن، نالَ «معتز» منه الحسدَ الحقيقي بها، ضغطَ على شفتِه السفلى بألمٍ، وتقدّم نحو «معتز» الذي قام مُحتضنًا إيّاه بقوّة وهو يقول:

- لمْ أصدّق أنك ما زلت تذكرني.

مدّ يدَه مُسلمًا عليها فتنحنَحَت بحرجٍ فجذبَها بسرعة، وقد نسي أنها لا تصافحُ الرّجال، وقال لهما:

- لمَ تجلسان هنا وحدَكما؟

قال «معتز» ضاحكًا:

- الأجواء بالدّاخل لا تعجبُ الهانم، وكانت مصرّة على العودة، لولا إقناعي لها بالمكثِ هنا.

لم يكنْ «ماجد» في حاجةٍ لسؤالها عن السبب، شعر بنَسمات الهواء تحمل طهرًا منها، فتشفي وتُزيل كثيرًا من الدّنس الذي اعْتراه، لأوّل مرة ينتبه إلى المدى الذي طالَه منَ الشّطط، وذلك عندما رأى نقطة البداية ممثّلة في «هدير»، سمع الصوتَ التّنبيهيّ لرسالة على «الواتس»، نظر إلى الشاشة فإذا بها «ميرنا» تقول:

- أين ذهبتَ؟ وبجوارها أيقونةٌ تدلّ على قبْلة حارّة.

اعتصر الجوّال وقذفه بيدِه لأقصى ما يستطيع نحو النّيل، واندفع مسرعًا إلى الخارج ليقودَ سيارته بنفسه مندفعًا بها بسرعة جنونيّة تكاد أن تودي به.

***

ألقى بنفسه على سريره وهو يشعر بكلّ ضيق الدّنيا، ساءل نفسه قائلًا:

- تُرى هل هذه هي النّفس اللّوامة؟ أما زال بي خيرٌ حقًّا؟!

وإذا بصوتٍ أجشّ غريب يجيبه قائلًا:

- لقد تغيّرت كثيرًا جدًّا.

اعتدل «ماجد» في سريرِه منتفضًا وهو يبحث عن صاحبِ هذا الصوت، وإذا به «عرفة»، وقد أطلق شاربه بكثافة، ويرتدي بدلةً متّسعة لا تناسب مقاسَه، ويظهر بشكلٍ مُضحك بها رغمَ غلاء ثمنها، كان واقفًا في ركن الغرفة وبيدِه مسدسٌ يصوّبه نحوه، فازدادَ انتفاض «ماجد» بمرآهُ، وقال له:

- عرفة، أهلًا بك، ماذا تريد؟

ضحك «عرفة» وهو يجذب كرسيًّا ليجلس أمامه قائلًا:

- ماذا أريد؟! ماذا تريدُ أنت؟ ولِمَ تُطْلق خلفي كلابَك؟ لقد نسيتُك تمامًا، كنت بشرفة منزلي أنفثُ دخّاني، وإذا بالمرحوم يُخبرني أنه يسعى خلفي بناءً على طلبك أنت!

ارتبكَ «ماجد» وقد تذكّر تعاقده مع تلك الشركة الأمنيّة التي أتته «سارة» بها؛ لتجلبَ له ما يريد مِن معلومات عن «عرفة»، فقال في كذبٍ مفْضوح:

- لمْ أرسل خلفك أحدًا.

هزّ «عرفة» رأسه بسخرية قائلًا:

- فليكن، أخبرني هل تجاهلتَ أوامري وسعيْتَ خلف الكنز؟

هتفَ «ماجد» قائلًا:

- لا والله أبدًا، لقدِ التزمت باتّفاقي معك.

نظر «عرفة» حوله قائلًا:

- ولكنّك في بذخ كبير، يبدو أنّ مغنمك مِن تلك المقبرة كان أكبرَ مِن توقّعي بكثير.

- الحمد لله، لقد كفاني بما يُغْنيني تمامًا عن التفكير في الكنز.

ابتسم «عرفة» برضا، وقال:

- رائع، أريدُ منك مساعدةً كبيرة مِن هذا الربح.

ابتلع «ماجد» ريقَه بصعوبة، وقد أتتْ إجابته بغير ما توقّع وقال:

- ولكنّك قلت لي بأنّ لديك خططًا كبيرة، أعتقدُ بأنها تغنيك كذلك عن الكنز.

هزّ «عرفة» رأسه بأسى، وقال:

- لقد حدث وفزت بالكثير فعلًا، ولكنّ الأمور آخذةٌ في التغْيير، وبعض القوى الأكبر بدأت تسلُبني كلّ ما أخذت، زاعمين أنهم أوْلى به.

- هل مِن المُمكن أن أفهمَ أكثر؟

ضحك «عرفة» وقال:

- لنْ تفهم أبدًا معنى مستويات القوى وتفاوته، وكيف يأكل الكبيرُ الصغير، دعك مِن هذا، المهم أنا تقريبًا على حافة الإفلاس، فكم ستدفع؟

شعر «ماجد» بالحيرة، وقد حدث أقصى ما يخشاه، مهما فعل سيظلّ «عرفة» مبتزًّا له ما بقي مِن حياته، فقرّر منحه ما

يريد هذه المرّة، وبعدها سيبحثُ مع «سارة» سبلَ التخلّص منه ولو بالقتل! المهم أنه قد تيقّن من عدم وصوله للكنز، فقال له:

- هل يكفيك مائة ألف؟

ضحك «عرفة» عاليًا وقال:

- أخبرني ما هي ثروتك يا فتى؛ كي أقدّر ما يكفيني.

ابتلع «ماجد» ريقَه بصعوبة، وهو في حيرة لا يدري بمَ يُجيب، فهتف به «عرفة» وهو يصوّب مسدسه مجدّدًا نحوه قائلًا:

- انطقْ، كم معك؟

انتفض «ماجد» لصيحتِه وجملته العالية المفاجئة، وقال مسرعًا:

- سبعة ملايين.

أرخى «عرفة» مسدسَه مبتسمًا وقائلًا:

- يكفيني هذا المبلغ، أينَ دفتر شيكاتك؟

قال «ماجد» بصوتٍ باكٍ:

- ولكن..

هتف «عرفة» مجدّدًا:

- لا يوجد لكن، ألا يسوي عمرك ذلك؟

وعند الباب أشارَ له «عرفة» محذّرًا وقائلًا:

- لو حدث أيّ تلاعب منك قبلَ صرف الشّيك، قلْ على نفسك يا رحمن يا رحيم، وأظنّك تعلم مقدرتي على تنفيذ ذلك.

هزّ «ماجد» رأسه دون ردّ، وهو يكادُ أن يغشى عليه..

فابتسم «عرفة» مستطردًا:

- الآن قد تتفهّم تفاوت القوى الذي حدّثتك عنه.

وما إنْ أغلق الباب حتى اسْتند إليه «ماجد» بظهره وهو يهبط لأسفل جالسًا، والدّنيا بأكملها تميدُ به.

***

بينما هو ممَدّد في سريره، ينتابه إحساسٌ بأنّ جميع أعضائه قد شلّت، شارد الذّهن، خالي الوفاض، يشعرُ بالضياع التّام؛ فقد سلبَ منه مصدرَ قوته الرئيسي، ماذا سيفعل الآن ولم يعدْ لديه رأسُ مالٍ ينفق منه بالبذخ المُعتاد، وذلك حتّى يصل إلى الكنز؛ سواء بإيجاد السّكين مبكرًا، أو حتى بانتظار الإنجليزيّين بعد

عدة أعوام، لم يعدْ أمامه إلّا التخلّص من العقارات التي يملكها، والتي ستجلبُ له بعضَ الملايين، وينفق منها دون معرفة «سارة» بما حدث، فهي لن ترحمَه عندما تعلمْ بأنه قد تفرّد مجدّدًا بقرار مصيري، أخذت «سارة» تبدّل ملابس سهرتها أمامَه، وقد عادتْ من الحفل مُبتهجة بما كان فيه، سألته سريعًا لِمَ انصرف مبكرًا؟ فكان الجواب بأنه شعرَ بوعكةٍ صحيّة دفعته لطلب الراحة، لم تعرِ الأمرَ انتباهًا رغمَ الإعياء البادي عليه، وأخذت تتكلّم كثيرًا عمّا أعجبها وما لم يعجبها بالحفل، ارتدت ثوبَها المثير، وحاولت التقرّب منه، ولكن وجدتْ منه صدودًا عجيبًا لم يحدث مِن قبْل، عقدت حاجبيْها وقامت لتجلبَ حاسوبها المحمول، وجلست على مقعدها الصغير أمام المرآة الكبيرة لتشغيله، منهمكةً باستطلاع أمر ما لمْ يثرْ فضول «ماجد» لمعرفتِه، لقد أصبحت الأمورُ كلها لديه الآن شاحبةً لا أهمية لها، وفقد حتّى رغبتَه في الحياة، وفجأة صدرتْ منها صرخةٌ قصيرة وقامت واقفة بانْتفاض، وهتفت بصوتٍ يكاد أن يسمعَه بعض سكان جزر المالديف:

- آه منك أيّها السافل الحقير.

انتفض «ماجد» على إثْر صرختها وسبابها العجيب، وقال بدهشة:

- ماذا بك؟

بنفس نبرةِ الصّراخ وبملامح غاضبة شيطانية هتفتْ قائلة:

– تقول لي إنّك انصرفت بسببِ وعْكة صحيّة، وأكتشف أنك دنّست فراشي مع تلك العاهرة «ميرنا»!

صرخ فيها بغضب قائلًا:

– ماذا تقولين! وكيف يتبادر لذهنك هذا؟

– محادثتك لها على «الواتس» أيّها الحقير، وانصرافك المبكّر غير المبرّر، واعراضك عني للمرّة الأولى، واكتئابك الظّاهر الآن بسبب جريمتك معها.

كان ارتباكُه واضحًا وهو يقول:

– أي محادثة هذه؟

أشارت نحو حاسوبها قائلة:

– مسجّلة بالكامل عندي لو أردتَ مطالعتها!.

شعر بعجبٍ كبير كيف تمّ تسجيل محادثته الأخيرة مع «ميرنا» عبْر هذًا الحاسوب، وبلا شعورٍ انطلق تساؤله على لسانه قائلًا:

– وكيف يقومُ هذا الحاسوب بتسجيل محادثة «واتس آب» تتمّ في جوّال بعيد عنه؟!

هتفت قائلة:

- إنها فكرة يعرفها كلّ مَن اشتركت في جروب «أفكار بنات مبدعات» على الفيس، برنامج يربطُ جوّالك به وتظهر أيّ محادثة تجريها عليه، و..

قاطعها «ماجد» مُسرعًا:

- «سارة».. المحادثة حدثتْ بالفعل، وأقسمُ بالله لم أرَها اليوم مطلقًا، لقد كانت مجرّد محادثة عابثة وفقط.

- لستُ أنا مَن تعبثُ معها أيّها الفاسد، فلنْ أكون أمةً تحتَ قدميك تأتيها عند فراغِك.

ظلّت تتحدّث كثيرًا، تسبّ وتلعن وتسردُ له كلّ نقائصه السّالفة، في حين انصرفَ «ماجد» تمامًا عنها وعنِ الدّنيا وقد التقطتْ أذنُه كلمة قالتها قذفتْ به إلى المستقبل الذي عادَ منه، «جروب أفكار بنات مبدعات» لقد كانت «هدير» مشتركةً به، وهو مَن علّمها كيف تجعل منشوارته صاحبة الأولوية في الظهور، وحتماً قد علمت بكلّ محادثاته مع «سارة» وقتَها، ويوم أن سأل «سارة» عن ساقيها عادَ ليجدها حزينةً صامتة بلا سبب، الآنَ علمَ ما هو السبب!

وعلمَ كيف تعاملت تلك الأميرة مع الأزمة بمنتهى الحكمة والهدوء، هو الآنَ في مهبّ عاصفة قاسية لا قِبَل له بها، صمتَتْ «سارة» تلتقطُ أنفاسها فقال لها:

- ألم يكنْ مِن الأجدى معالجتك للأمر بطريقةٍ أفضل وأهدأ من ذلك؟

قالت بثورة:

- أنت لست طفلًا لأدلّلك.

ابتسم رغمًا عنه بمرارة، وقال:

- على نقيضِ ما تقولين، فزوجُك هو أكبر أطفالِك وأصعبُهم، ومَن يريد منك معالجَتَه بحكمة وهدوء.

- دعْكَ من هذه التّرهات، فأنتمُ جنس خائنٌ خسيس لا تقوّمه أي معاملة.

هزّ رأسه بخفوت قائلًا:

- لقد أثمرت مِن قبْل بالفعل.

تذكّر ما يثبت براءته، فقال لها مسرعًا:

- يمكنك تفريغ كاميرات مراقبة الفيلا لمعرفة أنّ «ميرنا» هذه لم تأتِ هنا.

توقّفت وقد برقت عيناها، فتركتْه واندفعت للخارج لترى بنفسِها صدقَ كلامه، وتذكّر «ماجد» أنّ الكاميرات حتماً قد سجّلت ما دار بينه وبين «عرفة»، قام مسرعًا ليتبعها وهو على شفا جرفٍ تترقّبه عاصفة أخرى قادمة، أخذ يعتصرُ ذهنَه كيف سيبرّر لها ظهور «عرفة» وما فعلَه معه، وتدفّقت الأفكار في رأسه وعلمَ كيف سيقلبُ المائدة على رأسها، رغماً عنه ابتسمَ وهو يتبعُها وقد هدأت مشاعره كثيرًا، لقد منحتْه المخرجَ المناسب لكلّ ما أهمّه قبل مجيئها، نظرت نحوه شذرًا عندما وجدته يقف خلفَها أثناء فتحها لشاشة الحاسوب المختصّ بتسجيلات كاميرات المراقبة، أعادت التّسجيلات إلى ما قبْل عودته، وشاهدت كلّ ما حدث ولكنْ بلا صوت، ارتفع حاجباها دهشة، وقالت بتساؤل:

- مَن هذا؟

حاول «ماجد» أن يجيدَ التّمثيل وهو يرسم الغضبَ والأسى على وجهه قائلًا:

- هذا مَن حاولت تجْنيبَك شرّه، وكلّ همّي كان سلامتك فقط.

تردّدت قليلًا وقد هدأت ملامحها، وقالت:

- ولِمَ يهدّدك؟

قال بنفس الأسى:

- بسبب خطؤك أنت، لقد حذّرتك مِن قبل أنّ البعد عنه غنيمة، ولكنّك أصررْتِ على التحرّي عنه، لقد الْتقط الخيطَ وعلم مَن يتبعه وجاء إليّ مهدّدًا، فاضطررت لمنحه مائة ألف كي ينصرف.

تغيّرت مشاعرها للنّقيض مباشرة، وهي تشفق عليه وتمتنّ له، وقالت:

- يمكنك إلغاء الشّيك والإبلاغ عنه، ولديْنا التّسجيلات التي تضيّعه.

هتف قائلًا:

- لا.. فلتذهب الأموال إلى الجحيم، لقد رضي بما نال، فلنعدّه ثمنًا للمعلومة التي وصلنا إليها، فهو لم يجد السّكين بالفعل بعد.

ابتسمت قائلة:

- رائع، بهذا يمكننا الاستمرار في البحث عنْ كنز قارون.

ابتسم قائلًا:

- بالطبع، ولكن يجب علينا ترشيد الإنفاق قدرَ استطاعتنا حتى نجده، وبعدها ننطلق بأقصى ما نريد.

ضحكت ضحكتَها القصيرة، وقالت:

- سأحاول.

***

١ يوليو ٢٠١٣

في نفس المركز الطبّي الذي جاء إليه برفقة «هدير» من قبْل، جلس بنفس التوتّر والقلق، للمرة الثانية سيقوم بالكشفِ عن ذكورته، ولكن هذه المرّة مع «سارة» التي لا تتودّد إليه كي يفعل، بل صحبَها بالأمرِ المباشر غير محتمل النّقاش، وحجّتها أن مرور عام بلا إنجاب كثيرٌ جدًّا، ولا يمكن السكوت عليه! رغم علمه بسلامة موقفه والاطْمئنان بلا أي افتراضات وهواجس كما كان في المرّة السابقة، إلا أنّه يكره أنْ يوضَع موضع اختبار مهْما كان، حاولت «سارة» طلبَ السفر للعلاج في لندن، ولكنه قال لها:

- هذا إنْ وجد ما يستحقّ العلاج، نحن فقط نرى هلْ هناك مشكلة، أم لا؟ فقد يكون كلانا سليم، وإن وجِدَ فلنسافر بعدها إلى لندن.

وافقتْه على مضَض، وكان منها الاستنكار الأكبر عندما أتت معه لهذا المركز الذي تراه شعبيًّا حقيرًا، وكيف ترك القاهرة بكلّ ما فيها ليأتي إلى الفيوم؟! فقال لها مبررًا:

- في مصر قد يكون أكثر الأطباء براعةً وخبرة يجلس في مكان مهمَل، وبالكاد يجدُ قوتَ يومه، لذا لا تنبهري بالمظاهر في هذا الشأن فقط.

كانت جالسة بجواره تتطلّع بتأفّف لسيدة بطنُها منتفخة كأنّ بداخلها خمس توائم، وتمسكُ بمنديل قماشي وتطلبُ مِن طفلٍ يرافقها أن يضعَ أنفه به نافخًا ما بداخله من إفْرازات ومخاطٍ! همّت أن تسبّ «ماجد» على ما وضعها به، ولكن وجدتْه يغرق في توتّر يدفعه لطرق الأرض بقدمه في سرعةٍ متزايدة، فقالت له:

- هل هناك ما تخشاه؟

ردّ مُستنكرًا قائلًا:

- مطلقًا، سترين بنفسك بعدَ الكشف.

وبالداخل دار نفسُ الحوار السابق، فخرج برفقتِها إلى المعمل المجاور، وترك العيّنات، وقال لها:

- ألا تريدين تناولَ آيس كريم؟

قالت باستنكار:

- هنا؟!

أمسك بيدها وجرّها قائلًا:

- تعالي ستتذوّقين طعمًا جديدًا له.

أخذ «ماجد» في تناول الكوبِ الخاصّ به في استمتاع شديد، ومع كلّ ملعقة كانت تقذف بداخله ذكريات تسرحُ بوجدانه إلى آفاق أصبح يحلم بالعودة إليها، في حين لم تستطعْ «سارة» الاقترابَ منه، حاولت شغلَ نفسها بإجراء مكالمة، فاتّصلت بأحد خدمِها تطلب منه تجهيزَ فيلا مراسي قبل ذهابها إليها في الغد، استمعتْ للردّ لتتّسع عيناها بقوّة، فأغلقت خطّ الهاتف ونظرتْ نحو «ماجد» المُنْغمس في كوبه وذكرياته، وقالت له ببطء:

- هل بعتَ فيلا مراسي؟

ابتلع «ماجد» القطعةَ الباردة بصعوبة وارْتباك، ولم يدرِ ما يردّ عليها به، فقال:

- كنتُ في حاجة إلى ثمنها، حتى يمكنُنا الاستمرار بنفس المستوى الذي نعيش به.

لوّحت بكفّيها قائلة:

- ولِمَ لمْ تخبرني قبل تصرّفك الغبي هذا؟

لم يجدْ ما يردّ عليها به فاسْتطردت قائلة:

- وماذا بعتَ أيضًا!؟

نظر نحوها بوجَلٍ قائلًا (في خفوت):

- شقّة الزمالك.

قالت بعنف:

- كم تبقّى من الرصيد معك يا «ماجد»؟

ارتبكَ أكثر قائلًا (بتردّد أكبر):

- مليون ونصف.

قامت واقفة وقائلة:

- أنا ذاهبة عند أهلي يا «ماجد».

ولمْ تنتظر ردّه، وانطلقت مُسرعة إلى السّائق الذي ينتظرها لتأمُرَه بالمَسير دون انتظار لـ«ماجد»، الذي ترك كوبَه ولم يصلْ بعدُ لمُنْتصفه، وقد اخْتنقت به العَبرات، ترك المائدة تحملُ الكوبيْن شاهديْن على ركام المعركة، وانطلق سيرًا على الأقدام إلى موقف السيارات؛ ليستأجر إحداها في رحلتِه إلى القاهرة، الأمورُ تسير نحو الأسوأ بسرعةٍ قاطعة، دخل فيلتَه الغارقة في الخَراب رغم ما بها من رفاهية، أخذ ينادي على «سارة» وكلُّه أملٌ في ردّها عليه ولم يجدْ، صعد لغرفته ليجدَها ساكنة مظلمة، ارتمى على سريره والهزيمةُ تنالُ منه، وبينما هو يغرقُ في سيلٍ

من المشاعر السلبيّة، لم يجد بدًّا مِن إخراج جوّاله الخاص الذي لا تدري «سارة» عنه شيئًا، ليتّصل بـ«ميرنا» في مكالمة طويلة لم تخلُ مِن موبقاتٍ كثيرة!

***

٣ يوليو ٢٠١٣

مرّ أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة ظنَّ «ماجد» أنّها كافية لتهدأ مشاعر «سارة» وتتّخذ القرار السليم بالنقاش حول سبل استثمار ما تبقّى، والمشاركة في البحث أو انتظار كنز قارون كما كان يعدُها دومًا، ولكن لم تردّ على أيٍّ من اتصالاته، ولم تعرْهُ انتباهًا في رفض صريح للنقاش، قرّر أن يستعين بأحدِ والديها، فأمّها أكثر تعقُّلًا وحكمة، اتّصل بها مطمئنًا عليها ومعتذرًا عن تأخّره في ذلك، وأنه قد تركَ لـ«سارة» فرصة الإفلات من وطأة الغضب، أثنَتِ الأمّ على عقله، وأخبرته أنها ستساعدُه، وعندما سألها قائلًا:

- أين هي الآن؟

ردّت بتلقائية قائلة:

- ذهبت إلى حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها بمدينة نصر.

انتفضَ «ماجد» مرتعدًا وقائلًا:

- ماذا؟!

لم يسمعْ بقيّة حديثها وهو يرتدي ملابسه في سرعة وبلا نظام، لقد تذكّر ما يتربّص بها هناك، التاريخ لا يمكن نسيانه أبدًا، لقد كان يومًا فاصلًا في حياة «سارة»، انطلق بسيارتِه في جنونٍ وهو يسأل اللهَ أن يلحق بها قبل وقوع الواقعة!

وهناك عند مسجد آل رشدان..

لم يرَ إلّا ركام المعركة!

جسدٌ دام، ملابسُ ممزّقة، نفسٌ مهترئة، وترتمي أرضًا في عجزٍ وقهر وألمٍ لا مثيلَ لهم!

كانت الظلمة بداخله أشدّ مِن الظّلمة التي تعتري المكان، ولا يدري مِن أين يصدر نعيقُ الغربان حوله!

ضرب بابَ السيارة برأسه حتى كادت أنْ يلتوي معدنُها وتتحطّم جمجمتُه، كيف يغفلُ عنِ الذّئاب والثعالب الذين يتربّصون بها، لقد كان على علمٍ بما ينتظرها، فلمَ لمْ يعدّ للأمر عدّته؟!

احتضنَها لتغمرَه بدمائها، حملها إلى السيارة وانْطلق بها وبداخله كسرٌ يعلمُ أنّ ما لديها أكبرُ وأعمق ومُسْتعصٍ على الشّفاء، ولا يمكن العودةُ كالسابق مهما حدث.

***

مرّ أسبوعان مكثتْ فيهم «سارة» عند أهلها لا تنطق ولا تكادُ أن تأكل، يعلمُ «ماجد» جيدًا مآلَ الأمور فيما بعد، لذا تركَ لها محاولة لملَمَة وجمع شَتات نفسها، وأخيرًا لمعَ جوّاله باتّصالها، ردّ عليها بلهفة يخاطبها بلقب «حبيبتي» ولكن كان صوتُها جامدًا عنيفًا وهي تقول:

- متى يمكنُنا الذهاب لذلك المركز اللّعين؛ الذي قمنا بالكشف والتحاليل فيه.

فرح «ماجد» وقد خالجَه شعورٌ بأنّ مسار «سارة» سيتغيّر حتمًا، هنا عاملٌ جديد قد يكون سببًا في خيارات جديدة؛ يجنّبها ما آلتْ إليه في المستقبل العائد منه، حتمًا طفلٌ يناديها بلقب أمي سيكون له شأنٌ آخر، احترم صمتَها وهي جالسة بجواره في رحلتهما إلى الفيوم، أخذ يضعُ الاحتمالات التي قد يجدها هناك، قد يكونُ اضطرابٌ هرموني تسبّب في تأخّر حملها، وهذا سهلٌ علاجه بضبط تلك الهرمونات بالأدوية

المناسبة، أو أي مانع مثل الموانع التي سمعَ عنها كتكيّس المبايض أو أيّ شيء آخر، كل هذا سهلٌ ويسير بجراحةٍ دقيقة وفي أرقى مكان، ستشفى وتُرزق بالطفلِ الذي سينقلها لعالمٍ جديد، قد يكون بداية التغيير للأفضل لَه كذلك، سيفيقُ منَ اللّهو المُنْغمس فيه الذي أنْساه كلّ شيء!

صحبها إلى داخل المركز الطبي السّقيم، طلبَ منها الانتظار حتى يعودَ بنتائج الفحوصِ المعمليّة التي لم يفهَمْ منها شيئًا، وأمام الطبيب جلسا وهو يَسأل الله- عزّ وجلّ- أن تكون مشكلتُها بسيطة ويسيرة العلاج، نظرَ الطبيب نحوها مبتسمًا قائلًا:

- الحمد لله يا مدام «سارة»، فحوصك كلّها رائعة، سنحتاج فقط إلى أشعةٍ على الرّحم والمبايض لنطمئنّ على سلامتهما، وبعدها نقرّر ما نفعل.

ابتسم «ماجد» سعيدًا بالنّجاح في المستوى الأول، أصبح لديه شعورٌ بأن نتائج الأشعة ستكونُ جيدة كذلك، فنظر نحوها وعيناه تربِتان عليها في صمتٍ قائلة.. اطمئني.

كانت نظرتُها إليه خاوية، فنطقت للمرّة الأولى وهي تقاوم غثيانًا انتابها قائلة للطبيب في جُمود:

- وما هي نتائج فحوص «ماجد»؟

فتح الطبيبُ المغلّف الحاوي لنتائج الأخير محتفظًا ببسمته الدبلوماسية، ولكن ماتتْ على وجهه ببطء، ونظر نحوهما بتردّد، وكأنّما يبحث عمّا يقول وكيفيّته، فحسمَتْ «سارة» تردّده بقولها في صرامة:

- ماذا بها؟

ارتفعت دقاتُ قلب «ماجد»، وقد شعر بأنّ هناك أمورًا على غير هواه، فقال للطبيب:

- أخبرنا ماذا بها لا عليك.

تنهّد الطبيب وقال ببطء:

- للأسف يا ا. ماجد، لا يمكنك الإنجاب أبدًا.

انتفض «ماجد» واقفًا وصارخًا:

- ماذا؟!

خبطت «سارة» على المكتبِ بيدِها، وهي تهزّ رأسها وتزفرُ بقوّة، في حين سالت دموع «ماجد» وهو يقول:

- هل أنتَ متأكّد ممّا تقول يا طبيب؟ لقد قمت بالفحص مُسبقًا وكنتُ سليمًا.

أشارَ له الطبيب ليجلس، وقال بهدوء:

- للأسف أنت عندك ما نسمّيه «انعدام الحيوانات المنوية»، لا يوجد حتّى حيوان واحد؛ قد نستثمرُه في تلقيحٍ صناعي، كمْ كانت النسبة حين قمتَ بالفحص السابق؟

تذكّر «ماجد» بأنّ «هدير» هي التي ذهبتْ وحصلت على نتائج الفحوص وحدَها، علمَ الآنَ ما أخفتْه عنه، علمَ كمْ كانت ترفُل في ثوب الملائكيّة الشفافة المثالية، وكم كان حقيرًا بشعًا معها، كادتِ الأرض أنْ تميد به، لم يردّ على الطبيب وخرج بكتفيْن متهدّليْن، والدّنيا تدور به، وأمام المركز لحقَتْ به «سارة» ونادتْ عليه بجفاء، نظرَ نحوها بانْكسار تامّ، وردّ أنْ.. نعم. خلعت دبْلته وقذفتْها في وجهِه وقالت:

- أنتَ عاقر فاشل فاسد، لا تستحقّ العيش، أنتظرُ طلاقي منك.

وتركتْه وانطلقت.

***

ظلّ يسير حتى تورّمت قدماه، وكلمتُها أنّه لا يستحقّ العيش تتردّد بصدًى عجيب في أذنيْه، اليأس الذي يسحقه جعله يفكّر جديًا في إنهاء حياته التي لم تعدْ تغْنيه في شيء، انطلق رنينُ جوّاله، نظر إلى الشاشة فإذا بها «ميرنا»!

لم يجد بدًّا مِن أن يدعوها لفراشِه بلا أيّ مواربة أو كنايات أو حتى مقدّمات، ضحكتْ بخلاعةٍ قائلة:

- وكم ستدفع مقابلَ هذا الإنجاز الضخم؟

- هل يكفيك مليونٌ؟

- هل تتحدّث بجديّة؟

- وهل صوتي يحملُ أيّ عبث أو مزاح؟

- أنا قادمة إليك.

وقبل أن ينغمسَ معها في بحر الرّذائل، طلبت منه الشيكَ مقدّمًا، فكتب فيه كلّ ما تبقى لديه مِن مال، وانطلق ليغوصَ في جميع أوْحالها.

ظنّ بأنّ فعله ذلك سيكون سببًا في تغيير ما داهمَه مِن يأس وهَمّ وغمّ وحزن، ولكن.. زاد الانْسحاق لنفسه وروحِه بعدَها، ابتسم بسخرية قائلًا:

- تُرى هل علم الله ما أنا مُقدِم عليه، فاقتصّ مني باغْتصاب «سارة» مقدّمًا؟

كان مِن بديهيّاته سابقًا أنّ القصاص في هذا الأمر عاجلٌ غيرُ آجل، وعندما اختلّت لديه هذه القناعة؛ حينما كان ينتزعُ

مِن مفاتن «سارة» ما يمكنه بالبصَر، ويتساءل كيف سيطولُ ذلك «هدير» وهي التي مِن المستحيل اختراقُ حصونها، ولكنْ رأى بعينيه تلك الكيفيّة وبأيدي بعض الصبْية عند حمامات الفندق، إذًا هو القَصاص، الآن كما قالت عنه «سارة»، هو عاقرٌ لا ولنْ يُنجب، فاشلٌ ضيّع كلَّ شيء في فرصته الثانية التي جاءته على طبقٍ مِن ذهب، فاسدٌ ارْتكب كلَّ الموبقات، وبالتالي لم يعدْ يستحقّ الحياة، ولهذا سوف يُنهيها بيديْه وقد خسرَ كلّ شيء.

صعدَ إلى أعلى فيلّته، ولكن وجدَها قريبة لنْ تودي بحياته إنْ ألقى بنفسه من فوقها، هبط مسرعًا وتعثّر بإحدى الدّرجات ليسقط مرْتطِمة رأسُه بالحائط المقابل، قامَ وهو يشعر بدوارٍ كبير، وقف قليلًا حتّى بدأ في الاسْتقرار، وأسرع ليستقلّ سيارتَه منطلقًا إلى أقربِ برجٍ تتعدّى طوابقه العشرين، صعدَ إلى سطحه ووقفَ على حافّته، ونظرَ نحو السّماء التي غابت فيها النّجوم وضوءُ القمر؛ فبانتْ سوداء كالحة كنفسِه الذّبيحة، قال بصوتٍ هادر:

– هل مِن الممكن أنْ تمنحني الفرصة الثالثة يا ربّ!؟

ظلّت رقبته مشرئبّة لأعلى كأنّما ينتظر إشارةً مِن السّماء توحي بالردّ على سؤاله، ولكنْ كان الصمتُ التامّ، علم أنّ الإجابة لا، لقد استنفذْتَ كلّ فرصك المتاحة، وجدَ أنّ التخلص من كلّ ما هو فيه بشكلٍ سريع أفضل مِن عذاباته المتزايدة، فأغمض عينيْه، وفردَ ذراعيْه وبلا تردّد مالَ بجسده للأمام تاركًا إيّاه يسبح بسرعة نحو الهاوية التي لا مَردّ منْها.

***

ظلَّ مُغمضًا عينيه بقوّة، وهو ينتظر الارْتطام الذي سيتفتّت جسدُه بسبَبِه، تُرى أين سيبدأ الألمُ؟ وكمْ سيطول؟

وكيف سيكون الألمُ الذي سيلاقيه بعدَ تكشّف الحجب عنه؟

ابتسم بتهكّم حين تذكّره للطلب الذي طلبَه مِن ملك الجان بمقولتِه له:

- أريد جنة الخلد ونعيمَها.

هل لو جاءَه الآن سيكون عنده الجرأة لأنْ يسأله نفسَ الطلب؟!

سيكون طمعًا منه أنْ يطلب التّخفيف يومًا من العذاب!

شعرَ بأنّه قد طالت هواجسُه وأفكاره، كذلك مدّة سقوطه قد غابتْ عنِ الوقت اللّازم قبل وصوله للأسْفلت الذي لن يرحَمَه!

بل لقد شعرَ بأنّ سرعة انْدفاعه قد تناقصَت بشكلٍ كبير، حاول فتحَ عينيه ببطء وكانتِ المفاجأة الكبرى، لقد عادً للعدَم الذي بدأ عندَه الأمر، الأبيض يسودُ كلّ شيء ولا توجد حدود أو اتّجاهات له، اختلجَ قلبُه بفرحةٍ غامرة، هل يعقل أنّ الله قد استجاب لدعوتِه بمنحه الفرصة الثالثة؟!

لقد دعاه- سبحانه- مِن قبْل وهو أطهرُ قلبًا مِن ذلك أنْ يردّه ردًّا جميلًا إلى «هدير»، ولم يحدث، فلمَ توقّفت إجابة الدعاء حينها؟ ورفعت إلى السّماء لتعود إليه بإجابةٍ سريعة وهو غارقٌ في دنَسِ المعاصي؟!

صرف ذهنَه عن هذا التساؤل ليعدّ أهمّ إجابة قادمة، فبعدَ قليل سيظهرُ لك ذلك الجنيّ أو الملاك ليسأله عن الوقتِ المُراد، فتُرى لأي نقطةٍ يريد العودة؟

بلا تردّد وبحسْم سريع وفي أقلّ من ثانية واحدة كان قد اخْتار النقطة التيٍ يريدُها، ارتجفَ قلبُه وأخذت خفقاتُه

تتزايد وهو يشعرُ ببهجة ذهبتْ بمشاعره من أقصَى النقيض إلى منتهاه الآخر، لقد اختار يومَ زواجه بـ«هدير»، سيذهب إليها ليقبّل قدميْها ويقول لها.. أرجو أنْ تقبلينَني عبدًا ينعم بطاعتك، ويكْفيه فقط القربُ منك؛ لينهلَ من طهرها ونقاءِ قلبها وهدوءِ وحكمةِ عقلها.

تأخّر ظهور الملاك، أو حتى صوتُه، فأخذ «ماجد» يستغفرُ ويكرّر دعاءه السابق قائلًا:

- اللّهم ردّني إلى «هدير» ردًّا جميلًا.

طالَ الانتظار أكثر، فتساءل عن السّبب، وبالطبع ما مِن مُجيب، شعر بوخزات تنتشرُ عبْر جسده كلّه، فاتسعت عيناه دهشة، إنه لن ينتقلَ إلى بعدٍ أو زمنٍ آخر إنّها الروح تستعدّ للصعود، لقد كان في مرحلةِ ما قبل الموت، ها هو بدأ شعوره بجسده في التّزايد، شعرَ بألم في ساقيه وذراعيه وكلّ أعضائه الداخلية، انتابه الهلعُ بعد فرحة لم ينَلْ منها الكثير، همّ أنْ يهتف.. ربّ ارْجعون، ولكن ثقل لسانه المُتَزايد كتَمَ حتى الأهةَ بداخله، شعرَ باللّون الأبيض يتزايد حتّى كأنّه ضوء مُبْهر يغشي عينيْه فأغلقهما بألم، ولدهشتِه شعرَ بيدٍ رقيقة حانية مُمْسكة بكفّه، حتمًا هذه يدٌ ملائكيّة، هل يُعقل أنه ذاهبٌ حقًّا إلى الجنة؟!

ولكنْ سمعَ صفيرًا قصيرًا متقطّعًا!

رمشَ بعينيه بتتابعٍ سريع وفتحهما ببطء، ليجد أجملَ ملاكٍ مِن الممكن أن تقعَ عليها عيناه، تنظر إليه بشغفٍ وسعادة، وهتفتْ ببهجة مَصْحوبة بدموع الفرحة قائلة:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.

لقد كانت «هدير»!

***

ما زال «ماجد» غيرَ مصدّق بأنه مع «هدير»، وأنّها قد عادت إليه، أو عاد هو إليها، أي معجزة فعلتْ ذلك، بسبب بعض الأدوات الطبيّة والأجهزة الكثيرة التي تتّصل به، لم يمكنْه الحديث؛ فبداخل فمِه خرطومٌ لا يدري سببَه، ولا إلى أين يصل؟ صدرت منه همهَمَة ولاحتْ في عينيْه فرحتُه برؤياها، أخذتْ تحمدِ الله بكلّ عبارات الثناء التي تحفظها، وسجدتْ على الأرض شكرًا، وانطلقتْ مُسرعة لتخبر الأطباء، وعادتْ إليه في لمح البصر، جاء الأطباءُ على مهلٍ ليفحصوه مجدّدًا، وآيات العجبِ باديةٌ عليهم، قال أحدُهم:

- إنّها معجزة حقًّا، عبر ثلاثين عامًا هي مدة عملي في الحقلِ الطبّي لم يعدْ مخلوق مِن الموت الإكلينيكي معي.

بدأوا في حقنِه ببعض الأدوية، وطلبَ منه الطبيبُ أن يرمشَ مرّة واحدة بعينه لو كانت الإجابة بنعم أو اثنتين لو كانت بلا، وأخذ يسأله و"ماجد" يُسرع في الإجابة عن أسئلتِه الطبيّة حول وعْيِه وإحساسه بجسده وإدراكه للمكان ومَن حوله، وأخيرًا بدأوا في سحب الخرطوم بألم يعبُرُ كلّ جوفِه، وطلب أحدُهم منه أنْ يقول بسم الله، فنطقها وهو يشعرُ بها أجملَ ما يمكن قولُه، ذكر الشهادتيْن وكأنّه يدخل الإسلام مِن جديد، ونادى على «هدير» بصوتٍ متحشْرج وحروفٍ متكسّرة، أتت إليه لتمسِك بكفّه مجدّدًا، ودموعها تسابقها، وهي تقول له:

- نعمْ يا نور عينيّ.

حاول أن يقول لها بفضول:

- ماذا حدث؟ وكيف جئت هنا؟

ولم يستطع، فقد كان مكبّلًا بعجزٍ عجيب لا يمكنه تحريك أيّ عضلة بجسده، ولكنْ بعد ثلاثةٍ أيام انطلق لسانُه فطرح عليها السّؤال، لتنكسر عيناها وقد حملتا ألمًا، وقالت:

- قبل أيّ شيء لقد ارتكبتُ عدّة ذنوب في حقّك، وأرجو أنْ تسامحني فيها.

شعرَ بألمِ محاولةِ الابتسام المريرة وهو يقول:

- أنتِ مَن أذنبت في حقّي! يا لها مِن مفارقة، وكيف ذلك أيّها الملاك النقي الشّفاف؟!

- لقد كان لديّ برنامج تجسّس عليك في «الواتس آب»، ولم أجن منه سوى النّصَبَ والمَشقة، فهل تسامحني فيما فعلت؟ لقد سألَت الله كثيرًا أنْ يغفر لي مخالفةَ أمره، وأسألك المِثل.

هزّ رأسه بضعف قائلًا:

- أنتِ ملاكي الجميل، قلبي هو مَن يرجو قلبَك العفو والمغفرة عن كلّ شيء، فلا تسأليني هذا السؤال مرةً أخرى.

قبّلت يدَه وقد تسابقت منها العبرات، وقالت:

- لا حرمني الله منك زوجي الحبيب.

- هل يمكنني الآنَ معرفة كيف جئت هنا؟

تنهّدت بعمق، وقالت:

- خطّتك مع «سارة» كان ينقصُها الكثير، وقد تابعت كلّ إعدادكم لها عبرَ محادثتكم على برنامج «واتس آب»، والذي كان يأتيني نسخةٌ من حواركما إلى حاسوبي المحمول، لم يكن هناك أيّ فتحات لأيّ سرْداب بقصر قارون، بل بئر عميقة كانت يخرجُ منها السُّقيا لأهل هذا المعبد بالعهد اليوناني، ولكنِ انْطلقت حولَه الكثير من الأساطير التي تقول إنّه يصل

القاهرة تارة، وإلى الإسكندرية تارة أخرى، وبالطبع ظنّكم أنّه سرْداب قارون، وقد أغلق المسئولون الغرفة المؤدّية إليه، حتى يكفّ العابثون عن محاولاتهم لاسْتكشافه، وكان مِن سوء حظّك أنّ هناك مغامرًا أمريكيًّا حاول النزول بهذا البئر في نفسِ ليلتك، وصلَ لمنتهى البئر وعندما حاول الخروجَ فقدَ مصباحَه، وحين خروجه من البئر التقيْتُما لتهوي أنتَ فيه بعنف مُتحطّمًا وفاقدًا للوعي، ولولا نجاتُه لما وصلنا إليْك في الوقت المُناسب، فهو مَن أرشدنا إليك، ومنذ شهر وأنت في غيبوبة تامّة، وقد أخبروني بأنّك قد مت إكلينيكيًّا أَمس، ولكن ثقتي في الله ودعواتي وصلاتي لأَجْلك لم تنقطِع، والحمدُ لله الذي استجاب لدعائي وأكْرمني بعودتك لتنيرَ لي حياتي.

شعرَ «ماجد» بالحَيرة، لم يعدْ يدري تُرى ما هي حياته الحقيقية؟

هل هي التي ينعمُ فيها الآن بتحقّق حلمه واستجابة دعائه أنْ يردّه الله إلى «هدير» ردًّا جميلًا؟ أمْ إنّه الآن في هلوسة وغيبوبة توحي إليه بما يرجوه ويحلم به؟

حتى لو كان في حلم الآن؛ فهو أفضلُ حلم يمكن أن يعيشَ فيه، ورغم كلّ شيء إلّا أنه انْتابه فضولٌ لأنْ يسأل «هدير» قائلًا:

– وماذا عن «سارة»؟

رغم الضيق البادي عليها إلّا أنها قالت:

- كان ذلك ما ينقصُكُم مِن الخطة وقد استكملتُه لكم، فقد أرسلتُ لها رسالة نصيّة على جوّالها لتتصرف بسرعة وبأيّ حجة، وقد نجحتْ هي في ذلك، وفي نفسِ الوقت أبلغتِ الشّرطة عن مجرمين يحتالون ويحاولون سَرِقةَ قصر اللورد كرومر الآن، فتوجّهت قوّة ألقت القبض عليهم جميعًا، وبهذا يكون قدِ انعدم شرّهم وما يُضمرون لكم، ولم أكنْ أعلمُ بمصابك وقتها.

- وماذا حدث لعرفة؟

- ضمن المقبوض عليهم، وقد كان يستغلّ منصبه وأسماءَ قادته الكبار في كثير من عمليات النّصب التي تكشّفت، ولهذا لن تراه مجدّدًا بعد الآن.

ابتسمَ برضا، ولم يستطعْ منعَ السؤال قائلًا:

- وأين «سارة» الآن؟

- لقد تزوّجت بـ»معتز» منذ أسبوعٍ واحد.

ابتسم برضا أكبر، وقال:

- الحمدُ لله.

تنهّدت «هدير» وقالت له:

- يبدو أنّ أمر هذا الكنز والوثائق كان خدعةً من اللورد كرومر.

- ولِمَ يفعل ذلك؟

- الله أعلم، حتمًا له أسبابه.

- لم يعدْ يهمّني ذلك الآن.

ابتسمت وقالت:

- هل ستكفّ عن اللّهاث خلف هُراء الكنز هذا؟

ابتسم بضعفٍ شديد وجاهدَ ليمسك بكفّها، وقرّبه من فمه مُقبّلًا إيّاه وقائلًا:

- الحمدُ لله، لقد نلتُ كنزي الآن بالفعل.

***

توقّفت سيارة الأجرة أمام العمارة التي يقطنها «ماجد»، هبطَ منها على مهَلٍ وعضلاتُه كلها تئنّ بعد طولِ رقاد، وقفَ يستند على كتف «هدير» ينظرُ يَمْنة ويسرةً متطلّعًا إلى شارعه كأنّما يراه للمرّة الأولى، كان كالعائد بعد سفرٍ طويل، وبه افتقادٌ وشوقٌ لكلّ مَعْلَم وتفصيلةٍ صغيرة به، ابتسمَ وهو يرى صياحَ عمّ رشاد الجزار معنّفًا أحدَ الصبية عنده، وكانت طرقاتُ جمعة الحدّاد بأذنيه كأجمل سيمفونية موسيقيّة، ومرَقَ بجواره صبيّ بدراجته القديمة وهو يتمايلُ كأنّما ستسقط به، بصعوبة أسرعَ «ماجد» خطوته كي يفسحَ له مجال انْطلاقه المتعثّر بدراجتِه،

ولكنْ كادَ أن يصطدم بسيدة تمرّ أمامه فتوقّف وهو يكاد أنْ يسقط على ظهرِه، وعضلاتُه تهتفُ به أنْ كفى، نظرت السيدةُ نحوه مبتسمةً وهزّت رأسَها بتفهّم، وانطلقت بكلّ حيوية بخطواتِها السريعة وقامتِها المَشوقة، و»ماجد» ينظر نحوَها بذهولٍ ولا يدري كيفَ لم تتعرّفه، ولا ما هو سرّ محيّاها المتألّق بكلّ سرور وبهجةٍ هكذا، فقد كانت أمّ مصطفى!

هل تغيّرت هيئته بسببِ المرض لهذه الدرجة؟!

ولكنْ ليست أمّ «مصطفى» التي تغيب عنها ملامحُه مهما شحبَ أو ناله الهُزال!

هزّ رأسه بحَيْرة وسارَ بخطواته المتمَهّلة تساندُه «هدير» حتى وصلا بابَ المصعد الإلكتروني، فتحتْه له فدخلَ ليستندَ على جداره مريحًا ظهرَه عليه، وأغلقت «هدير» الباب بعد أنْ وضعت حقيبتَها أرضًا، وضغطت زرّ الطابق العاشر، عقد «ماجد» حاجبيْه قائلًا، ومتسائلًا:

– لمَ سنذهب إلى الطابق العاشر؟!

بابتسامتها اللّطيفة الهادئة التي تشفي كلّ قروح نفسه قالت:

– إلى شقّتنا، هل تريد الذهابَ إلى مكان آخر؟

هزّ رأسه وزادَ بداخله التّساؤل الذي نطقَ به قائلًا:

– ولكنّ شقّتنا بالطابق السابع!

اتّسعت ابتسامتها بحنانٍ وقالت:

– طوال عمرنا ونحنُ بالطابق العاشر يا حبيبي، يبدو أنّ الحادثة والمرض قد أثّرا على ترْكيزك، أيام قلائل وسوف تعود بأفضلَ ممّا كان بإذن الله.

هزّ رأسه وازدادَ انعقادُ حاجبيه بحَيْرة أشدّ مِن سابقتها، وشعرَ بالفعل أنّ تركيزه ليسَ على ما يُرام، ففضّل الصمت والرّضا بما هو فيه الآن.

تمّت بحمد الله

الإسكندرية

٢-١٠-٢٠١٧